

كتابي
48
ستيفان زفايج
عاشقات في الخريف
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

ستيفان زڤايج

١ ـ الأرملة العاشقة

الفصل الأول

● احتدم النقاش حول المائدة ، فى النزل (البنسيون) الصغير الذى كنت أقيم فيه ، فى (الريفييرا) ، حيث كنت أقضى الشتاء ، قبل الحرب بعشر سنوات . وتطور النقاش — دون أن نفطن — إلى خلاف حاد أوشك أن يغدو شجاراً مصحوباً بالسباب . فلقد أوتى معظم الناس آفاقاً ضيقة ، تجعلهم لا يكادون يتأثرون بشىء ما دام لا يمسهم مباشرة ، ولا يفرض نفسه على مداركهم عنوة ! .. أما الحادث التافه الذى يقع تحت أعينهم ، وفى نطاق أحاسيسهم ، فإنه لايلبث أن يذكى فيهم من الانفعالات العاطفية مالا يتناسب مع قيمته .. وفى مقابل ندرة اهتمامهم تلك ، نجدهم من ناحية أخرى — إذا ما استيقظ اهتمامهم أخيراً — ينفعلون فى تحمس ينطوى على مغالاة لامبرر لها !

وكان هذا شأن أفراد الجماعة التى اعتادت الجلوس إلى مائدتنا ، وكلهم من أبناء الطبقة الوسطى . فقد اعتادوا أن يقنعوا بالأحاديث القصيرة ، الهادئة ، تتخللها بعض الدعابات التى لا معنى لها ، ثم يتفرقون بمجرد الفراغ من الطعام ، ويذهب كل منهم فى طريقه : فكان الزوجان الألمانيان ينصرفان إلى النزهات وإلى ممارسة هوايتهما وهى التصوير الفوتوغرافى ، ويفرغ الدانيمركى الممتلئ الجسم — إلى صيد السمك ، الذى يتطلب منه نشاطاً وحركة .. كما كانت السيدة الإنجليزية الوقور تخلو إلى كتبها .. والعروسان الإيطاليان يترددان كل

حين على (مونت كارلو) :. أما أنا ، فكنت أستلقى فى مقعد من القماش ، أو أعكف على التأليف ..

على أننا فى هذه المرة لزمنا أماكننا ، وقد اشتبكنا فى الجدال العنيف .. وكان يحدث أن يقفز أحدنا عن مجلسه لحظة ، ولكن لم يكن قفزه هذا — كما جرت العادة — استئذانا بمفارقة الجماعة ، وإنما كان مجرد مظهر لانفعال اشتد حتى انقلب غضباً متقداً ..

والواقع أن المسألة التى أثارت جماعتنا الصغيرة إلى هذا الحد كانت غريبة حقاً .. كان النزل الذى أقمنا فيه — نحن السبعة — يبدو فى ظاهره داراً صغيرة — « فيلا » — قائمة بذاتها ، تشرف نوافذها على منظر رائع على الساحل الصخرى .. أما فى حقيقته ، فكان النزل قسماً خاصاً رخيص الأجر ، ملحقاً بفندق (بالاس) ، وتصله بهذا الفندق حديقة تمكننا — نحن نزلاء الملحق — من أن نختلط بنزلاء المبنى الرئيسى اختلاطاً تاماً ..

وكانت ثمة ضجة كبرى قد حدثت فى الفندق فى اليوم السابق .. ففى قطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة العشرين — ولابد من تحديد الموعد بالدقة ، لما له من أهمية فيما حدث ، وفى نقاشنا المحتدم — وصل شاب فرنسى ، واستأجر إحدى الحجرات الأمامية المطلة على البحر ... وكان حرصه على اختيار موقع حجرته دليلا كافياً على أنه من ذوى الثراء .. كما أنه كان يسترعى الأنظار ، لا لأناقة ملبسه — فى غير بهرجة — فحسب ، بل لأنه كان على درجة غير عادية من الوسامة واللطف . كان وجهه ناحلا ، أشبه بوجه أنثى .. وكان فمه يوحى بالدفء

والعواطف المرهفة ، يعلوه شارب أصفر ناعم .. أما شعره فكان كستنائياً ، ناعماً ، يشوبه تموج يروق للعين .. وكانت عيناه تنمان عن لطف وحنان . وبالاختصار ، كان فى مجموعه فاتناً ، رقيقاً حقاً ، ومع ذلك كان غاية فى البساطة ، خلواً من كل تكلف ! والواقع أن شكله كان يذكر الناظر — لأول وهلة — بتلك الوجوه الوردية المصنوعة من الشمع التى ترى فى نوافذ متاجر الأزياء .. أو بتلك التماثيل التى تصور أجمل الشبان فى أوضاع رشيقة ، متكئين على عصى أنيقة ، كنماذج لأعلى مثل الجمال بين الرجال ! .. ولكن تأمل النزيل الجديد عن قرب كان ينقض هذه الفكرة غير المستملحة عنه ، فلا يلبث الناظر إليه أن يتبين أنه إزاء مثل من الأمثلة النادرة — كل الندرة — للطف الطبيعى الكامن فى نفس صاحبه !

* * *

● وأخذ النزيل الجديد يحيى كل شخص بطريقة تجمع بين التواضع والحفاوة .. وكان من بواعث السرور حقاً أن تشهد حرصه على إضفاء حسن طباعه ، وعلى أن ينتهز كل فرصة ليؤدى بعض المجاملات الرقيقة .. فكان يسرع إلى مساعدة أية سيدة تخرج إلى البهو بحثاً عن معطفها ، ويقابل كل طفل بنظرة ودود ، أو كلمة لطيفة : كان ظريفاً فى غير إزعاج .. وباختصار ، كان من أولئك المحظوظين ، الذين يدرك الواحد منهم — بالتجربة — أن الآخرين يبتهجون بشبابه وحسن مظهره ، فيزيده هذا الإدراك سحراً وفتنة ! .. وكان لوجوده مفعول الدواء المقوى فى نفوس النزلاء الآخرين ، الذين كان أغلبهم من المسنين ::

وقد استطاع أن يستولى دون عناء على مشاعرهم جميعاً ، بفضل شبابه الذى كان يغزو القلوب ، وبما أوتى من المرح الفياض والنشاط الدافق . فلم تنقض ساعتان على وصوله ، حتى كان يلعب « التنس » مع ابنتى الرجل البدين ، البادى الميسرة ، والذى يمتلك مصنعاً فى (ليون) . وكانتا فتاتين فى الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر ، تدعى أولاهما (آنيت) والأخرى (بلانش) .. وكانت أمهما — (مدام هنرييت) — سيدة محتشمة ، رقيقة ، مهذبة .. وقد راحت ترقب فى ابتسام كيف كانت الصبيتان تداعبان الشاب الغريب فى دلال برىء .. حتى إذا كان المساء ، انضم هو إلينا ساعة حول رقعة الشطرنج ، وروى لنا — فى أدب — قصتين أو ثلاثاً من القصص الشيقة ، ثم أخذ يتمشى فى الشرفة ، مندمجاً فى حديث مع مدام (هنرييت) ، التى كان زوجها مستغرقاً فى لعب (الدومينو) مع صديق له من رجال الأعمال .. فلما تقدم الليل ، رأيته فى مكتب سكرتيرة الفندق ، وقد انهمك الاثنان فى حديث خاص كاد يبدو سراً خاصاً بينهما !

وفى الصباح التالى ، انطلق الفتى لصيد السمك مع النزيل الدانيمركى مبدياً إلماماً واسعاً بهذه الرياضة .. ثم انصرف إلى الحديث مع صاحب مصنع (ليون) ، فتناولا المسائل السياسية .. وبدا أن الشاب الفرنسى كان محدثاً ظريفاً ، إذ أن قهقهة الرجل المسن كانت تنبعث — من وقت لآخر — عالية ، حتى لقد كانت تطغى على هدير البحر !

وبعد تناول الغداء — وليس بوسعى إيضاح الموقف دون إيراد هذه التفصيلات جميعاً — جلس ساعة مع مدام (هنرييت) فى الحديقة

يحتسيان القهوة ، ثم لعب (التنس) مرة أخرى مع ابنتيها ، وانصرف بعد ذلك إلى الحديث مع الزوجين الألمانيين فى بهو الفندق .. حتى إذا كانت الساعة السادسة ، التقيت به فى محطة سكة الحديد ، حيث ذهبت لإلقاء خطاب فى صندوق البريد ، فأقبل على فى خطوات متعجلة ، وقال إنه مضطر إلى أن يودعنى ، إذ استدعى للسفر فجأة ، ولكنه لن يلبث أن يعود بعد يومين .. وبالفعل ، لم يكن بيننا عند العشاء .. على أنه وإن غاب بجسمه ، فقد كان حاضراً بروحه ، إذ كان المحور الرئيسى للحديث . فقد أخذ القوم — على كل مائدة — يطرون طباعه العذبة ، المرحة !

* * *

● وخلوت فى غرفتى — فى تلك الليلة — إلى كتاب أردت أن أفرغ منه .. ولعلها كانت الساعة الحادية عشرة ، حين سمعت فجأة — خلال النافذة المفتوحة — جلبة فى الحديقة ، وأشخاصاً يتنادون ، بينما بدا أن أمراً غير عادى يجرى فى الفندق .. وأسرعت — يدفعنى القلق أكثر مما يحدونى الفضول — فاجتزت الياردات الخمسين التى تفصل بين الملحق والفندق ، وإذا بى أجد النزلاء ومستخدمى الفندق فى قلق صاخب ..

كان زوج مدام (هنرييت) قد انصرف إلى لعب « الدومينو » مع صديقه القادم من (نامور) ، كعادتهما فى مثل تلك الساعة من كل ليلة ، ولكن الزوجة لم تكن قد عادت من نزهتها المسائية على شاطئ البحر ، فإذا كل امرئ يوجس خيفة من أن يكون قد أصابها مكروه .. واندفع الزوج — الذى كان بديناً ، ولكنه بطبعه رزيناً ، خفيف

الحركة ــ وراح يجرى على الشاطئ كحيوان مذعور .. وعندما أخذ يناديها بصوت يخنقه الانفعال : « هنرييت ! .. هنرييت ! » ، بدا صياحه وحشياً ، رهيباً ، كصراخ حيوان ضخم دهمه الموت بغتة .. وراح السقاة والسعاة ينهبون السلالم ــ صعوداً وهبوطاً ــ موقظين النزلاء . واتصل مدير الفندق تليفونياً بالبوليس .. والزوج البدين يهيم ــ طيلة هذه الأثناء ــ متخبطاً كمعتوه ، وقد فك أزرار صديريه ، وراح يصيح دون انقطاع : « هنرييت ! .. هنرييت » ، بصوت جمع بين العويل والصراخ ..

وما لبثت ابنتاه أن استيقظتا ، فوقفتا بقميصى النوم فى النافذة تناديان أمهما .. وإذ ذاك ، هرع الأب صاعداً إليهما أملا منه فى أن يهدئ روعهما ..

ثم حدث أمر من البشاعة بدرجة لا أكاد أجد عبارات أصفه بها ، إذ أن الطبيعة ــ فى أويقات الأزمات العصبية ــ كثيراً ما تخلع على تصرفات الناس طابعاً أليماً ، لا سبيل للرسم ولا للكلام إلى وصف قوته الهائلة ! .. إذ ما لبث الرجل البدين ، الجزع ، أن هبط السلم وقد تبدلت أساريره ، وبدا عليه الإعياء والوحشية فى آن واحد ، وهو يمسك بيده رسالة مفتوحة .. وصاح فى رئيس الخدم ، وقد استرد صوته رزانته : « ادع رجالك للعودة .. لم يعد فى وسعهم أن يفعلوا شيئاً .. لقد هربت زوجتى ! » .

كان فى مسلك الرجل شىء من ضبط النفس ، برغم أنه أصيب لتوه بطعنة نجلاء .. بل لقد أبدى جلداً يفوق طاقة البشر ، أمام كل الناس

الذين أحاطوا به متسائلين ، وأخذوا يرمقونه بأنظارهم .. ثم لم يلبثوا أن انفضوا من حوله ، وقد غشيهم الفزع والخجل فجأة ! .. وكانت ما تزال به بقية من قوة مكنته من أن يمر بنا مترنحاً ــ دون أن ينظر إلى أحد منا ــ متجهاً إلى قاعة المطالعة ، حيث أطفأ الأنوار .. وسمعنا صوت ارتطام جسمه الضخم وهو يتهالك على أحد المقاعد ، ثم انبعث نحيب حيوانى وحشى .. بكاء رجل لم يعرف البكاء منذ طفولته ! .. هذا المظهر البدائى للألم المبرح ، كان له فى نفوسنا جميعاً ــ حتى أضعفنا إحساساً ــ تأثير أذهلنا ، فلم يجرؤ أحد من خدم الفندق ، ولا من الفضوليين من النزلاء ، على أن يبتسم أو ينبس بكلمة تتصل بالموضوع .. وإنما انسحبنا فى صمت .. وكأنما أخجلنا هذا الانفجار العاطفى المدوى ، فتسللنا إلى حجراتنا ، واحداً إثر واحد .. بينما ظل هذا الحطام البشرى المنهار يبكى ويشهق فى عزلة وظلام الحجرة التى لاذ بها ، وقد شملته وحدة مطلقة فى هذا الفندق الكبير الذى ملأته همسات لم تلبث أن أخذت تخفت رويداً ، متلاشية فى الظلام ، ليسود صمت لم يكن يعكره سوى نحيب الرجل ..

* * *

● وقد يتبادر إلى الذهن أن حادثاً كهذا ــ يقع فجأة ، وتحت أبصارنا ــ كفيل بأن يترك أثراً قوياً فى نفوس قوم كانوا ــ بوجه عام ــ يعيشون بمنأى عن الهموم والشواغل ، ولا يجدون لهم من عمل عادة سوى البحث عن ملهاة تجنبهم الضجر . بيد أن النقاش الذى احتدم حول مائدتنا ، والذى أوشك المشتركون فيه أن يتبادلوا خلاله

الكلمات .. هذا النقاش كان فى صميمه — برغم انبعاثه عن الحادث الذى رويته لتوى — مظهراً لخلاف حول مبدأ معين .. كان صراعاً عنيفاً بين وجهتى نظر متعارضتين فى الحياة ! .. فقد كان الزوج المهجور — فى غضبه الأهوج — قد فرك الخطاب وألقاه على أرض قاعة المطالعة ، فإذا بخادم تلتقطه وتقرؤه .. وعن طريق لسانها المفلوت ، عرف الجميع أن مدام (هنربيت) لم ترحل بمفردها ، ولكنها سافرت بصحبة الشاب الفرنسى ! وإزاء هذا النبأ ، بدأت نظرة العطف التى كان معظم النزلاء يبدونها للشاب الغريب فى الانحسار .. وإن كان من الطبيعى — فى الواقع — أن تهجر (مدام بوفارى) الصغيرة هذه ، الرجل الريفى الكئيب ، البدين ، — زوجها — لتلقى بمصيرها إلى شاب وسيم لطيف !

على أن الذى أثار سخط الجميع ، هو أن لا صاحب المصنع ولا ابنتيه ، ولا مدام (هنربيت) ، كانوا قد رأوا (لوفلاس) — الشاب الفرنسى — من قبل .. وأن حواراً لمدة ساعتين فى الشرفة مساء ، وحديثاً لمدة ساعة أثناء تناول القهوة فى الحديقة ، كانا كافيين لإغراء امرأة فى نحو الثلاثين من عمرها — كانت حتى ذاك الوقت محترمة — على أن تهجر زوجها وابنتيها ، وتسلم مصيرها إلى أهواء شاب غريب عنها تماماً !

واتفقت كلمة الجماعة — التى ضمتها مائدتنا — على أن هذا العمل — بظروفه التى لا لبس فيها ولا غموض — كان خيانة منكرة من العاشقين .. وأن مدام (هنربيت) كانت ولابد على علاقة خفية بذلك

الشاب قبل اليوم بأمد طويل ، وأن هذا (الساحر) ما جاء إلا ليرسم معها آخر دقائق خطة هربهما .. فمن المؤكد أن أية سيدة محترمة يستحيل عليها أن تهجر زوجها لأول إشارة من رجل لم تنقض على تعارفها به أكثر من سويعات قلائل ! .. هكذا رأى الجميع .. أما أنا ، فقد راق لى أن أنحو نحواً مخالفاً ، وأن أعلن فى تحمس أن من المعقول ، إن لم يكن من المحتمل ، أن يصدر عمل كهذا عن امرأة لم تصادف فى حياتها الزوجية — على مر السنين — سوى خيبة الأمل .. أو منيت من الزواج بضجر لم تجد مفراً منه إلا بالاستسلام عند أول هجوم قوى لغزو قلبها ! .. وسرعان ما أثار هذا الرأى غير المرتقب نقاشاً عاماً ، لم يلبث أن اشتد واحتدم ، إذ رفض الزوجان الألمانيان ، والزوجان الإيطاليان — فى استهجان — أن يعترفوا بما يسمى بالحب الداهم .. الحب الذى يستولى على القلب من النظرة الأولى .. وقالوا — فى عبارات تجاوزت حدود المجاملة — إن القول بوجود شىء كهذا حماقة ، لأنه من وحى خيال الروائيين !

ولا مجال هنا لإعادة سرد النقاش العاصف — الذى دار أثناء تناول الطعام — بحذافيره .. على أن أحداً لم يؤت من حضور البديهة فى مثل هذه المحاورات ، قدر أولئك الذين ألفوا تناول الوجبات فى المحال العامة . ذلك لأن الحجج التى تعن فى غمرة جدال طارئ حول مائدة ، تكون تافهة فى العادة ، لأنها مرتجلة ، تقفز إلى الخاطر فى عجلة . كذلك من العسير أن نبين سبب احتدام مناقشتنا بمثل هذه السرعة . وأعتقد أن التوتر الذى سرى فى الجو ، نشأ أول الأمر عن

حرص الزوجين — الألمانى والإيطالى — على أن يبينا بجلاء أن زوجتيهما بمنجاة تماماً من الإقدام على مثل هذا التصرف الطائش الذى أقدمت عليه مدام (هنرييت !) .. وشاء الحظ ألا يجدا ، لإيضاح رأيهما ، أفضل من أن يقولا إن آرائى لا يمكن أن يعتنقها سوى رجل يحكم على نفسية المرأة فى ضوء خبرته مع من عرف من النساء فى مغامراته العابرة .. النساء اللاتى يسهل وقوعهن فرائس لكل رجل أعزب . وأذكى هذا الرأى غضبى بعض الشىء ، فلما قالت السيدة الألمانية ، بنفس اللهجة القاسية ، إن النساء نوعان : « نساء فاضلات » و « نساء فطرن على الفجور » ، وأن مدام (هنرييت) — فى رأيها — لابد أن تحسب من النوع الثانى ، نفد صبرى تماماً ، وعمدت إلى الهجوم ، قائلا إن المرأة تصادف فى حياتها ساعات كثيرة تتعرض فيها لدوافع غامضة أشد قوة من إرادتها ، ومن علمها .. وأن هذا التهرب من الحقيقة الواضحة ، وذلك الكبت للواقع ، لا يهدفان إلا إلى إخفاء استبشاعنا لغرائزنا ، وخوفنا من القوى الأولية الكامنة فى طبيعتنا . وجاهرت بأن كثيراً من الناس يستطيبون أن يتصوروا أنفسهم أصلب عوداً ، وأقوى خلقاً ، وأطهر نفساً من « أولئك اللاتى انزلقن بسهولة إلى الزلل » .. أما أنا ، فأرى من الأشرف للمرأة أن تسلم قيادها — فى حرية وانطلاق — لغريزتها ، بدلا من أن تغمض عينيها وتخون زوجها وهى بين ذراعيه ، كما جرت عادة النساء عامة !

كان هذا خلاصة ما قلت على وجه التقريب .. وكانت المناقشة — فى هذه الأثناء — قد اشتدت قسوة ، بطبيعة الحال .. وكلما عنف

الآخرون فى مهاجمة مدام (هنرييت) المسكينة ، ازددت تحمساً فى الدفاع عنها .. وإن كنت فى الواقع قد شعرت بأننى قد جاوزت حدى شأن المرء إذا ما استثير !.. ولاح للزوجين الألمانيين وزميليهما الإيطاليين أن تهورى أشبه بالإهانة التى يعمد إليها الصبية للاستفزاز . ومع أنهم كانوا يؤلفون (رباعياً) غير متناسق ولا منسجم ، إلا أنهم استطاعوا أن يحشدوا قواهم فى مهاجمتى بشدة ، ومن ثم زاد هياجنا إلى درجة حدت بالسيد الدانيمركى المسن إلى أن يتطلع نحونا ببشاشة — ذكرتنى بالحكم حين يقف فى مباريات كرة القدم ممسكاً بساعة التوقيت (الستوب — ووتش) فى يده — وأن يطرق المائدة بأصابعه عدة مرات ، منبهاً إيانا ، وهو يقول : « أرجوكم ، أيها السادة ! » .. وكان هذا التدخل يحملنا على الهدوء إلى حد ما ، ولكن .. لحظة واحدة !.. ولقد قفز أحد الزوجين ثلاث مرات مستوياً على قدميه ، وقد احتقن وجهه غضباً ، فكانت زوجته تجد عناء فى تهدئته . وكنا مسوقين — بلا مراء — إلى أن نشتبك بالأيدى بعد دقائق قليلة ، لو لم تتدخل مسز (س .) فتلطف من حدة هياجنا ..

* * *

● كانت مسز (س .) سيدة إنجليزية متقدمة فى السن ، بيضاء الشعر ، بادية الوقار ، استطاعت أن تكون (زعيمة) لمائدتنا دون ما انتخاب رسمى !.. فهى تتصدر المائدة ، فى جلسة معتدلة ، وتوزع على كل منا قسطاً من الرعاية ، فى عدل ومساواة .. وكانت قليلة الكلام بعض الشىء ، ولكنها تحسن الإصغاء .. وكان مظهرها فى حد ذاته يشرح

الصدر ، إذ كان يبدو أن رزانة رائعة تشع من شخصيتها الوقور ، المترفعة ! وكانت لا تختلط بنا إلا بقدر ، وإن كانت تعرف دائماً — فى لباقة بديعة — متى تبدى الود ، ومتى تقبل الزمالة .. على أنها كانت عادة تجلس فى الحديقة منصرفة إلى القراءة أو تعزف على (البيانو) فى بعض الأحيان . وكان من النادر جداً أن ترى منهمكة فى حديث خال من الكلفة مع أى إنسان .. كانت ميالة للعزلة ، ومع ذلك فقد كان لها على زملائها من النزلاء تأثير غريب .. فما أن تكلمت — فى هذه المناسبة ، مثلا — حتى شعرنا جميعاً باستحياء من أنفسنا ، إذ فطنا إلى أننا سلكنا مسلكاً غير مستحب ولا لائق ..

واستغلت مسز (س :) الوجوم الذى ساد حين قفز الألمانى على قدميه ، ثم أغرى على الجلوس ثانية ، فرفعت عينيها الرماديتين الصافيتين ، على غير توقع ، ورمقتنى لحظة والتردد يبدو عليها ، ثم تناولت الموضوع ، من وجهة نظرها ، فى حنكة وبراعة ، فقالت : « إذن فأنت ترى — إن كنت قد أصبت فى فهم حديثك — أن من المحتمل أن تكون مدام (هنرييت) قد وجدت نفسها مسوقة إلى هذه المغامرة فى سذاجة ، ودون تدبير سابق .. وأن مثل هذا قد يحدث لأية امرأة ، فتجد نفسها متورطة فى تصرفات كانت تبدو لها — قبل ذلك بساعة واحدة — مستحيلة ، ومن ثم فهى لا تكاد تكون مسئولة عنها ! »

— هذا ما أراه بالتأكيد !

— ولكن هذا يجعل معاييرنا الخلقية غير ذات قيمة ، ويبرر أى

انتهاك للقوانين .. وإذا كنت تعتقد حقاً أن (الجريمة العاطفية) ليست جريمة على الإطلاق ، فما حاجتنا إلى نظام قضائى ؟.. إنك إذا شئت — (وهنا ابتسمت) — وأخال أن اتجاهك يميل فعلا إلى هذا ، ففى وسعك أن تجد وراء كل جريمة دافعاً عاطفياً يبررها ، بناء على رأيك !

وأطربتنى نبرات صوتها .. كانت واضحة ، بل إننى أكاد أقول إنها كانت مرحة .. فقلت بين الجد والفكاهة ، محاولا بدورى أن أقلدها : « لا مراء فى أن العدالة العامة ترى فى هذه الأمور رأياً أقسى من رأيى .. فإن المجتمع المنظم مسوق إلى حماية الأخلاق العامة والتقاليد ، ومن ثم فهو مضطر إلى أن يدين بدلا من أن يعذر .. أما أنا فلست أرى ما يضطرنى — كفرد عادى — إلى أن أقوم بدور المدعى العام ، وإنما أفضل أن أؤدى دور الدفاع .. إننى أوثر أن أفهم الناس بدلا من أن أحكم عليهم ! »

وحدجتنى مسز (س .) بنظرة ثابتة ، ثم ترددت قبل أن تجيب . وكنت قد بدأت أخشى ألا تكون قد فهمت تماماً ما رميت إليه ، فهممت بأن أكرر بالإنجليزية ما سبق أن قلته بالألمانية . بيد أننى لم أجد ما يدعو إلى ذلك ، إذ لم تلبث أن عاودت تساؤلها فى لهجة صارمة ، وكأنها أستاذ ممتحن : « ألا تراه عملا شائناً .. ألا تراه عملا معيباً أن تترك امرأة زوجها وابنتيها لكى تربط مصيرها بمخلوق ألقته المصادفات فى طريقها ، وهى لا يمكن أن تكون قد أدركت بعد ما إذا كان أهلا لحبها ؟.. أترى حقاً أن من الممكن التماس عذر لهذا العمل

الثاني .. لهذا المسلك الطائش ، من امرأة لم تعد فى باكورة الشباب :: امرأة كان يخلق بها أن تحترم نفسها ، ولو من أجل ابنتيها ؟ »

ولكننى تشبثت بوجهة نظرى ، قائلا : « لا يسعنى إلا أن أكرر أننى أتردد فى أن أتخذ رأياً ، أو أن أدين السيدة ، فى هذا الحادث :: على أننى مستعد لأن أقر أمامك أنى كنت مبالغاً فى تصوير الحادث ، فليست مدام (هنرييت) المسكينة بطلة ، بالطبع .. ولست أحسبها كانت مدفوعة بحب المغامرة المنزه عن أية شائبة .. وكذلك أرانى أقل ميلا إلى اعتبارها « عاشقة مدلهة » .. لقد لاحت لى — فيما رأيته منها — امرأة لا تزيد عن أية امرأة عادية فى شىء .. بل إنها امرأة ضعيفة ، ومع ذلك فإنى أكن لها شيئاً من الاحترام ، لأنها تبعت رغبتها فى جرأة .. كما أكن لها شيئاً من العطف — كذلك — لأنى موقن من أنها ستكون فى أقصى حالات التعاسة غداً ، إن لم تكن اليوم .. ولعلها اندفعت فى حماقة ! ومهما يكن الأمر ، فإنها كانت متعجلة فى اندفاعها أكثر مما ينبغى ، ولكن مسلكها — فى حد ذاته — لا ينطوى على شىء من الدناءة أو الخسة .. وما زلت — كما كنت من قبل — أنكر على أى إنسان الحق فى أن يحتقر هذه المرأة المسكينة ، التعسة ! »

— إذن فأنت ما زلت — فى قرارة نفسك — مقيماً على احترامك وتقديرك لها ؟.. ألا تفرق بين المرأة الشريفة التى كنت فى صحبتها حتى أول أمس ، وهذه المرأة الأخرى التى هربت أمس مع رجل غريب عنها تماماً ؟

— لست أفرق بينهما على الإطلاق :. لا أقل تفرقة .. بل ولا أتفهها !

فهتفت بالإنجليزية — على الرغم منها — إذ استغرقها موضوع النقاش إلى أقصى حد : « أهذا رأيك حقاً ؟ » :: وأخلدت إلى التفكير فترة وجيزة ، ثم تطلعت إلى ثانية بنظراتها الصافية ، وعادت تقول : « وإذا حدث أن التقيت غداً بمدام (هنرييت) ، فى (نيس) — مثلا — وهى بين ذراعى ذلك الشاب ، فهل تحييها كالعادة ؟ »

— بالتأكيد !

— وهل تتحدث إليها ؟

— بالتأكيد !

— فإذا كنت .. أو لو كنت متزوجاً ، أفكنت تعرف زوجتك بامرأة كهذه ، وكأن شيئاً ما لم يحدث على الإطلاق ؟!

وإذ أجبت : « بالتأكيد » ، هتفت بالإنجليزية — مرة أخرى — وقد استبدت بها الدهشة ، فأنكرت ما سمعت : « أحقاً كنت تفعل هذا ؟ » .. فأجبت بالإنجليزية مثلها ، دون ما تعمد : « كنت أفعله حقاً ! »

ولاذت مسز (س .) بالصمت ، وبدا عليها الاستغراق فى تفكير عميق . وما لبثت أن قالت بالإنجليزية — فجأة — وهى تحملق فى وجهى ، وكأنها فى دهشة من جرأتها : « ما الذى يدريني بما كنت [illegible] أفعله أنا ؟ ربما كنت قد حذوت حذوها [illegible]

ونهضت فبسطت لى يدها مصافحة ، بذلك الاطمئنان الذى لا سبيل إلى وصفه ، والذى لا يحذق استخدامه سوى الإنجليز ليضعوا ، حداً لأى نقاش ، فى بساطة ، دون ما جفاء أو غلظة .. وعاد الهدوء يسودنا بفضل تدخلها .. وشعرنا — فى دخائل أنفسنا — بأننا مدينون لها ، إذ استطعنا ، نحن الذين كنا على وشك الخصام ، أن نفترق على شىء من الوئام ، وأن نرى التوتر الخطير يتلاشى من الجو ، دون أن يخلف سخيمة أو جفوة !

* * *

الفصل الثانى

● بالرغم من أن نقاشنا انتهى بوئام وتصاف ، إلا أن شيئاً من الفتور ران على العلاقات بينى وبين أولئك الذين خالفونى فى الرأى .. فإذا الزوجان الألمانيان يبديان تحفظاً وبروداً ، بينما أخذ الزوجان الإيطاليان يتلطفان إلى ، فكانا لا يكفان فى الأيام التالية عن سؤالى — فى شىء من التهكم — عما إذا كانت لدى أنباء عن (الكاراسنيورا هنريتا) !.. ومع أننا احتفظنا بما للمعاشرة من آداب ومجاملة ، إلا أن صدعاً لا سبيل إلى إصلاحه أصاب ما كان بيننا من إخلاص وصراحة ..

وخفف عنى الود الصافى الذى اختصتنى به مسز (س .) ، منذ تلك المناقشة ، ذلك البرود الساخر الذى بدا من خصومى الألداء .. فقد تحينت عدة فرص لتجاذبنى الحديث فى الحديقة ، وهى التى كانت تلتزم عادة أقصى درجات التحفظ ، فلم يحدث قط أن أسرفت فى الحديث مع أحد من زملاء المائدة .. وأستطيع أن أقول إن مسلكها إزائى كان تكريماً لى ، فإن ما امتازت به من تحفظ مترفع ، كان يجعل أى حديث تختص به أحداً ، صنيعاً تؤثره به .. أجل ، بل إننى لأذهب صادقاً إلى أنها كانت تبحث جادة عنى ، وتنتهز كل مناسبة لحديث معى .. وكان حرصها على هذا واضحاً لا يمكن إغفاله ، مما كان خليقاً بأن يوحى إلى غرورى ببعض أفكار معينة ، لولا أنها كانت متقدمة فى السن ، يكلل الشعر الأبيض رأسها !

على أنه ما من مرة دار فيها الحديث بيننا ، إلا واتجه بنا — دون أن نملك له دفعاً — إلى نقطة البداية .. إلى مدام (هنرييت) . ويبدو أن مسز (س .) كانت تستشعر لذة خفية فى اتهام هذه المرأة — التى نسيت ما عليها من واجبات — بعدم الرزانة ، وضعف الخلق .. ولكنها كانت فى الوقت ذاته تبدى اغتباطاً بثباتى على ما كنت أظهر نحو تلك المرأة من عطف رقيق مهذب كما كانت تجهر بسرورها من أن ترى أن شيئاً ما لم يقو على أن يزحزحنى عن ذلك العطف !.. كانت مسز (س .) تذكر لى هذا ، وهى توجه أحاديثنا دائماً نحو هذه الناحية ، حتى حرت — فى آخر الأمر — من سر هذا الدأب العجيب ، الذى كاد ينقلب إلحاحاً ممضاً !

وظل الأمر على هذه الحال بضعة أيام — لعلها خمسة أو ستة — دون أن يبدر منها ما يشى بسر اهتمامها بهذا الموضوع . ولكن مدى هذا الاهتمام تجلى واضحاً لى ، حين قلت لها عرضاً — فى إحدى نزهاتنا — إن إقامتى فى الفندق أوشكت على نهايتها ، وأننى أفكر فى السفر بعد غد .. فقد علا وجهها — الذى كان فى العادة هادئاً — اكفهرار غريب وغامت سحابة معتمة على عينيها اللتين كانتا فى لون البحر ، ثم قالت : « يا للأسى !.. ما يزال عندى أمور كثيرة أود أن أتحدث إليك عنها :

وغشيها منذ تلك اللحظة ارتباك وحيرة ، كما لو كان فكرها فى شغل بموضوع غير الذى كانت تتكلم فيه .. ولعل شرود ذهنها، ضايقها ، إذ لم تلبث أن صمتت بغتة ، ثم بسطت يدها فى عجلة ، قائلة :

« أرى أنى عاجزة عن أن أعبر عما أريد الإفضاء به إليك .. وأفضل أن أكتبه لك ! » .. واتجهت على الفور إلى الفندق بخطى سريعة لم أعهدها منها قبل ذلك الوقت ..

وبالفعل ، وجدت فى حجرتى — قبيل موعد العشاء — خطاباً كتب بخط سريع ، واضح .. وكنت — للأسف — مهملا فى الاحتفاظ بالخطابات التى تلقيتها فى شبابى ، ومن ثم لا يسعنى أن أورد نص ذلك الخطاب ، وإنما أكتفى بأن أورد مضمونه على وجه التقريب .. فقد سألتنى عما إذا كنت أسمح لها بأن تروى لى حادثاً صادفها فى حياتها .. وقالت — فى رسالتها — : إن هذا الحادث من القدم بحيث أنها لم تعد تعتبره جزءاً من حياتها فى الواقع .. وبما أننى راحل بعد غد ، فإن سفرى يسهل عليها الحديث عن أمر ظل يشغل بالها ، ويعذبها — فى قرارة نفسها — زهاء عشرين عاماً .. فإذا لم أر بأساً فى الإصغاء إلى هذا الحديث ، فلأسع إلى لقائها فى ساعة حددتها لى ..

* * *

● أسلمنى هذا الخطاب — الذى لم أملك هنا سوى الإشارة إلى مضمونه — إلى دهشة تفوق الوصف .. كان أسلوبه الإنجليزى واضحاً دقيقاً إلى درجة لا تتسنى لغير تلك السيدة ، مما جعل الرد أمراً غير يسير ، حتى أننى مزقت ثلاث مسودات ، قبل أن أصل إلى صيغة نهائية ، قلت فيها : « إنه لشرف أن تؤثرينى بمثل هذه الثقة ، وأعدك بأن أجيبك مخلصاً إذا ما طلبت رأيى .. ولست — بالطبع — فى حاجة إلى أن أرجوك بألا تفضى إلى إلا بما تشائين أن تبوحى به ، على أن تلتزمى

الحقيقة الخالصة — نحو نفسك ونحوى — فى رواية ما ترين روايته .. وأرجو أن تؤمنى بأننى أعتبر ثقتك تقديراً خاصاً أعتز به »!

ونقلت رسالتى هذه إليها فى نفس الليلة ، فتلقيت فى الصباح التالى هذا الرد : « أنت محق تماماً فيما قلت ، فإن الحقيقة الناقصة لا تساوى شيئاً .. ولابد من أن تكون مكتملة دائماً .. سأحشد كل قواى لكى لا أخفى شيئاً عن نفسى أو عنك .. فتعال — بعد العشاء — إلى حجرتى « فلست أخشى ، وأنا فى السابعة والستين ، أى تأويل سيىء لزيارتك » إذ أننى لن أستطيع الكلام فى الحديقة ، أو على مقربة من الناس .. وصدقنى حين أكرر أن اتخاذ هذا القرار لم يكن أمراً هيناً على ! » ...

والتقينا قبل نهاية ذلك النهار على المائدة ، فتبادلنا حديثاً خفيفاً تناول أموراً غير ذات بال . لكن المرأة تجنبتنى فى اضطراب جلى حين التقينا فى الحديقة بعد ذلك .. وكم آلمنى وآثار إشفاقى أن أرى تلك السيدة العجوز ، ذات الشعر الأبيض ، تفر منى — فى أحد الدروب المحفوفة بأشجار الصنوبر الوارفة — كما لو كانت فتاة فى مقتبل الشباب

وطرقت بابها فى الموعد المناسب من ذلك المساء ، ففتحت لى على الفور .. وكانت الغرفة مضاءة بنور باهت ، كليل .: كان ثمة مصباح صغير واحد ، على منضدة ، يرسل ضوءاً مخروطى الشكل ، خلال الظلام الداكن الذى سيطر على الغرفة .. وتقدمت منى مسز (س :) فى غير ما ارتباك ، فقدمت لى مقعداً ، واتخذت لنفسها آخر فى

مواجهتى .. وشعرت بأنها كانت تزن كل حركة من حركاتها ! .. وسادنا صمت واجم فرض نفسه علينا دون إرادة منا .. صمت كذلك الذى يسبق قراراً يشق اتخاذه .. صمت استمر طويلا ، وطويلا جداً ، دون أن أجرؤ على خرقه بأن أبدأ الكلام ، إذ أحسست بأننى إزاء إرادة قوية ، تصطرع فى عنف مع مقاومة قوية .. وكانت تترامى إلى سمعى فى تلك الأثناء أنغام خافتة متقطعة من موسيقى راقصة ، كانت تنبعث من قاعة الاستقبال فى الطابق السفلى ، فتعمدت أن أصغى إليها بكل جوارحى ، لكى أتخفف من وطأة الصمت الممض ..

* * *

● وكأنما شعرت المرأة بدورها بوطأة هذا الصمت غير الطبيعى ، فما لبثت أن استجمعت قواها ، كمن تتأهب لهجوم ، ثم شرعت تقول :

« ليس أشق على من أن استهل الحديث .. إننى أتأهب منذ يومين لكى أكون صريحة ، صادقة فى كل ما أقول ، وآمل أن أوفق فيما اعتزمت . ولعلك لم تهتد بعد إلى ما يبرر إقدامى على أن أروى لك كل هذا ، وأنت الغريب بالنسبة إلى .. ولكن ما يكاد يمضى يوم ، أو تنقضى ساعة ، دون أن أفكر فى هذا الحادث .. وبوسعك أن تصدق العجوز التى تجلس أمامك ، إذا ما قالت إن من الأمور التى لا تطاق ، أن يظل فكر الإنسان مركزاً طيلة حياته على حادث لم يستغرق سوى يوم واحد .. فإن ما أنا مقدمة على روايته لم يستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة من سنى عمرى السبع والستين !.. وكم أخذت أردد لنفسى حتى أوشك قولى أن ينقلب هذياناً محموماً :

« ما قيمة أن تعترض المرء لحظة حماقة .. لحظة واحدة فى كل هذا العمر الطويل ؟ » .. ولكن المرء لا يستطيع أن يفلت بسهولة من ذلك الشيء الغامض المبهم ، الذى نسميه : الضمير !.. فلما قدر لى أن أسمعك تستعرض حادث (هنريت) بمثل هذه النظرة الواقعية ، خطر لى أننى قد أستطيع أن أضع حداً لهذا الوضع الفظيع .. لهذه الحال التى تجعلنى أتلفت دائماً إلى الماضى ، فلا أفتأ أتهم نفسى بنفسى .. خطر لى أننى قد أخلص من هذه الحال إذا أقنعت نفسى بأن أفضى بصراحة لأى امرئ بقصة ذلك اليوم الأوحد فى حياتى .. ولو أننى كنت كاثوليكية — بدلا من أن أكون من رعايا الكنيسة الإنجليزية — لتخففت من ذنبى بالاعتراف منذ زمن طويل ، ولكنا محرومون من هذه السلوى .. لهذا كله أقدم اليوم على هذه المحاولة الغريبة : فألقى إليك بسرى ، متطهرة منه .. وإنى لأدرك أن هذا التصرف منى ، أمر شاذ ، غير عادى .. ولكنك قبلت ما عرضت عليك دون ما تردد ، فأشكرك ..

« وعلى هذا ، فإننى — كما ذكرت من قبل — أود أن أقص عليك ما حدث لى فى يوم واحد من أيام حياتى .. أما بقية الأيام ، فتبدو غير ذات قيمة ، بل إنها قد تبعث الضجر فى نفس كل امرئ سواى ..

* * *

● « كانت حياتى عادية جداً ، حتى بلغت الثانية والأربعين .. إذ كان أهلى من كبار الملاك فى (اسكتلندا) ، وكنا نملك مصانع كبيرة ، وضياعاً شاسعة ، ونعيش على غرار النبلاء فى بلادنا : نقضى

الشطر الأكبر من السنة فى مزارعنا ، ونقضى (الموسم) فى لندن .. وتعرفت إلى الرجل الذى صار زوجى ، فى أحد المجتمعات التى كنت أرتادها وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى .. وكان ثانى أبناء أسرة « ر . » المعروفة ، وقد خدم فى الجيش ، وقضى عشر سنوات فى الهند .. ولم يطل بنا الوقت حتى تزوجنا ، وأخذنا نعيش الحياة المترفة التى تحظى بها طبقتنا فى المجتمع .. فكنا نقضى ثلاثة أشهر فى لندن ، وثلاثة فى مزارعنا .. أما بقية السنة ، فكنا نقضيها متنقلين بين فنادق إيطاليا وإسبانيا وفرنسا ، لا يخيم على هنائنا الزوجى أتفه غيم .. وأنجبنا ولدين هما الآن رجلان فى أوسط العمر ..

« وكنت فى الأربعين من عمرى ، حين مات زوجى فجأة .. إذ كان قد أصيب بداء الكبد ، أثناء الأعوام التى قضاها فى البلاد الحارة .. وفقدته بعد أسبوعين عانى فيهما أفظع الآلام .. وكان ابنى الأكبر — حين مات أبوه — قد انخرط فى سلك الجيش ، أما الأصغر ، فكان فى الكلية . وهكذا وجدت نفسى — بين عشية وضحاها — وحيدة تماماً ، لا يؤنس وحشتى أحد .. وكانت هذه الوحدة عذاباً مضنياً لى ، أنا التى ألفت الحياة مع رفاق أحباء ، فبدا لى أننى لن أطيق البقاء يوماً واحداً — بعد ذلك — فى البيت الخالى ، الذى كان كل ما فيه يذكرنى بفجيعتى فى زوجى الحبيب . ومن ثم عقدت العزم على أن أكثر من الأسفار فى سنواتى المقبلة ، لا سيما وأن ولدى لم يكونا قد تزوجا واستقرا ..

« ومنذ تلك اللحظة ، بدت لى حياتى خالية من كل غاية ، بل ومن



كل نفع فى الغالب .. فقد مات الرجل الذى شاطرنى كل ساعة ، وكل فكرة ، ثلاثة وعشرين عاماً .. ولم يكن ولداى فى حاجة إلى .. بل لقد خشيت أن أنغص عليهما صفو شبابهما بحزنى وأساى .. ثم إننى لم أعد أهفو إلى شيء ! .. وقد سافرت — فى بادئ الأمر — إلى (باريس) .. وأخذت أرتاد ، فى فراغى الطويل ، المتاجر والمتاحف. ولكننى شعرت بالوحشة والملل ، إذ كانت المدينة غريبة عنى بأهلها. وكنت أتجنب الناس ، إذ لم ترق لى نظرات العطف المهذبة التى كانت تثيرها فى أعينهم ملابس الحداد ..

« من العسير على اليوم أن أقص عليك كيف انصرمت تلك الأشهر الأولى الحزينة ، المعتمة .. كل ما أذكره هو أن الرغبة فى الموت أخذت تلاحقنى ، ولكنى لم أجد الجرأة على أن أعجل بلقاء هذا المصير الذى كنت أشتهيه فى لوعتى وأحزانى ..

« ووجدتنى فى نهاية شهر مارس — من العام الثانى لترملى ، والثانى والأربعين من عمرى — فى (مونت كارلو) ، وقد ساقتنى إليها الرغبة المستترة فى الفرار من حياة لم يعد فيها ما يستهوينى أو يشغل وقتى .. أجل ، لم يدفع بى إلى تلك المدينة ، فى الواقع ، سوى الضجر والفراغ اللذين يلقيان على النفس تثاقلا تحاول أن تجد مهرباً منه فى أتفه الأحداث التى تقع .. وكنت كلما فطنت إلى تبلد أحاسيسى ازددت رغبة فى أن ألقى بنفسى فى دوامة الحياة وهى منطلقة بأقصى سرعتها .. فالمرء الذى يفتقد ما يستهويه فى الحياة ، يجد فى الهزات

العنيفة التى تصيب حياة الغير ، ما يثير أعصابه من جديد .. كما يفعل المسرح والموسيقى فى نفوس الرواد والمستمعين !

* * *

● « ولهذا السبب أخذت أكثر من التردد على (الكازينو) .. فقد كان يلذ لى أن أشاهد أمارات السعادة ، أو الشقاء ، ترتسم على وجوه الآخرين ، فى الوقت الذى لم تكن تهتز فيه جارحة واحدة من جوارحى .. أضف إلى هذا أن زوجى — برغم بعده عن النزق — كان يميل إلى التردد على قاعة اللعب ، كلما زرنا (الكازينو) فى الماضى ، فرأيت فى الوفاء لعاداته القديمة نوعاً من التعبد فى محراب الأحزان !

« وفى تلك القاعة ، بدأت تلك الساعات الأربع والعشرون ، التى كانت أكثر عنفاً وإثارة من أية لعبة أخرى فى دنياى ، والتى قلبت مصيرى رأساً على عقب لبضع سنوات .. فقد تناولت الغداء ظهر ذات يوم مع دوقة (م .) ، وهى سيدة تربطها بأسرتى صلة نسب .. ثم جاء الليل ، فلم أشعر بتعب يحبب إلى أن آوى إلى مضجعى بعد العشاء ، ومن ثم ولجت قاعة اللعب ، ورحت أتسكع من مائدة إلى مائدة ، دون أن أشترك فى اللعب على الإطلاق ، بل كنت أرقب « بطريقة خاصة » أولئك اللاعبين المتجمعين هنا وهناك .. وأقول « بطريقة خاصة » ، لأن المرحوم زوجى علمنى إياها ذات يوم ، إذ رآنى وقد برح بى الضجر لطول تحديقى فى الوجوه التى لم تكن تتغير. وجوه أولئك العجائز المتغضنات الجباه ، اللواتى يقضين ساعات طويلة جالسات إلى موائد اللعب ، دون أن تجازف إحداهن بإلقاء (فيشة)

واحدة .. أو وجوه أولئك المحتالين المحترفين ، أو الغانيات المقامرات .. هذا الخليط المتنافر ، القادم من كافة أرجاء العالم ، والذى هو فى حقيقته — كما تعلم — أقل رواء وإثارة للخيال من تلك اللوحة التى اعتدنا أن نتخيلها ونحن نقرأ القصص التعسة التى تصورهم وكأنهم أعلى أمثلة الأناقة ، وصفوة الأرستقراطية الأوربية !

« إننى أصف لك ما كان منذ عشرين عاماً ، عندما كانت الأموال وفيرة ، فكانت الأوراق المالية الجديدة ، والعملة الذهبية التى تحمل رسم نابليون ، والقطع الكبيرة ذات الخمسة فرنكات ، تنهال على موائد اللعب .. عندما كان « الكازينو » — قاعة القمار الفخمة — أروع وأفتن مما هو اليوم ، وخاصة بعد أن أعيد بناؤه .. وعندما كان السياح الذين تجلبهم شركة « كوك » يبعثرون الأموال فيه دون وعى ولا حساب :

« ومع كل هذا ، كنت أضيق بالتشابه الرتيب ، حتى أرشدنى زوجى — الذى كان ذا ولع خاص بعلم الكف — إلى تلك الطريقة المبتكرة لتأمل الناس .. طريقة مثيرة ، خلابة ، لا يحس المرء معها بذلك الخمول الذى ينتابه وهو يقف جامداً كالصنم ، بلا حراك .. هذه الطريقة تتلخص فى عدم النظر إلى الوجوه على الإطلاق ، وتركيز البصر على صفحة المائدة وحدها .. على هذا المربع الذى لا ترى فيه سوى أيدى اللاعبين . بأدق حركات هذه الأيدى !

« ولست أدرى إن كان قد قدر لك يوماً أن تمعن النظر فى الموائد الخضراء ، وأن ترى ذلك المربع الأخضر الذى تترنح داخله الكرة ، كشخص ثمل ، متنقلة من رقم إلى رقم .. وأوراق النقد ، والقطع

الفضية والذهبية المستديرة ، تتساقط على مربعاته تساقط البذور على الأرض ، ليجرفها مراقب اللعب بعد ذلك ، حاصداً إياها بضربة قاضية من مجرفته الشبيهة بالمنجل ، أو ليدفعها نحو الرابح !

« .. العنصر الوحيد الذى كان يختلف فى هذه الناحية من المنظر ، هو الأيدى :. ذلك الحشد من الأيدى الشاحبة ، المرتعشة ، أو المرتقبة حول المائدة حتى تحين ساعة العمل .. أيد كلها تحفز ، وقد أحاط بكل منها كم جعلها تبدو كحيوان — على فوهة مغارة — يتأهب للانقضاض ! .. أيد ، لكل يد منها شكلها الخاص ، ولونها الخاص .. أيد عارية ، وأيد مثقلة بالخواتم والسلاسل الذهبية البراقة ، وأيد كثة الشعر كالحيوانات الكاسرة ، وأيد ناعمة بضة تتلوى كالأفاعى ! .. على أنها برغم تباينها ، كانت تتشابه جميعاً فى توتر عضلاتها ، وفى حركاتها المنفعلة ، المرتعشة ، التى تنم عن صبر نافذ ..

« وكنت فى كل مرة لا أتمالك من أن أتخيل نفسى فى ميدان لسباق الخيل ، فى اللحظة التى تسبق الانطلاق ، وقد شدت أعنة الجياد كبحاً لجماحها ، حتى لا تنطلق قبل الموعد المحدد .. هكذا تبدو أيدى اللاعبين . ترتجف ، وتتراجع ، ثم تندفع .. وهى فى ترددها ، وفى طريقة إمساكها بالنقود أو (الفيشات) ، وفى توقفها عن الحركة ، تفصح عن شخصية اللاعب .. فالأيدى ذات الأظافر الطويلة تشى بالبخل ، والأيدى المسترخية تنم عن إسراف ، والأيدى الهادئة الرزينة تدل على اعتداد مبنى على دقة فى الحساب ، والأيدى المرتجفة تكشف عن يأس : مائة سجية وخلق ، تفضحها فى لمح البصر تلك الحركة السريعة التى تبدر

من اليد وهى تلتقط الأرباح .. فمن الناس من يفرك الأوراق المالية فى يده ، ومنهم من ينثرها فى حركة عصبية ، ومنهم من يقبض يده عليها — إذ تكون موارده قد نضبت — ثم يلقى بها بعد ذلك على الأرض فى غير اكتراث !

« ومن الأقوال الدارجة ، أن « اللعب يكشف عن حقيقة اللاعب » ! .. أما أنا فأقول إن يد اللاعب نفسه هى التى تكشف — خلال اللعب — حقيقته فى أوضح صورها .. فجميع الذين يمارسون المقامرة — أو معظمهم على الأصح — يتعلمون كيف يكتمون انفعالاتهم ، فلا ترتسم على وجوههم .. إنهم يسدلون على كل ما يعلو ياقة القميص قناعاً من الجمود البارد ، ويجهدون فى إخفاء تلك التجاعيد التى تتجمع حول الفم ، ويحبسون اهتزازاتهم النفسية بين أسنانهم وهم يصرون عليها ، ويسدلون بين سرائرهم وأعينهم ستاراً ، حتى لا تنعكس ومضات اضطراباتهم خلال نظراتهم ، وينسقون عضلات وجوههم فى أوضاع مصطنعة توحى بعدم الاكتراث ، وهم إذ يركزون كل عنايتهم على وجوههم — لأنها أكثر أجزاء الجسم إفصاحاً عما فى النفس — ينسون أيديهم ، ويغفلون عن أن من الناس من يرقبون هذه الأيدى دون سواها ، ويستشفون منها ما تحاول إخفاءه الشفة ذات الابتسامة المتكلفة ، والنظرات التى تصطنع عدم المبالاة !

« وإن اليد لتفضح أعمق أسرارهم دون استحياء ، إذ لا مناص من أن تأتى لحظة تفيق فيها الأصابع من السبات الذى كانت تجبر عليه لتبدو هادئة .. وفى اللحظة الفاصلة التى تسقط فيها كرة (الروليت) فى الفجوة ،

وينبعث الصياح الذى يعلن الرقم الرابح ، تصدر من هذه الأيدى المائة — أو الخمسمائة — حركة لا إرادية ، هى التعبير الفردى الصريح للغريزة البدائية .. فإذا تعود المرء ما تعودته أنا من مراقبة معركة الأيدى هذه ، وخبر ما خبرت — بفضل هواية زوجى — من حركات تصدر مفاجأة وعلى غير توقع ، على الدوام ، فتكشف سافرة عن التوتر العصبى الذى يتملك صاحبها ، ألفى نفسه ينفعل ويتحمس كما لو كان يشهد مسرحية ، أو يسمع ألحاناً موسيقية مثيرة !

« وليس بوسعى أن أصف لك — تفصيلا — آلاف الحركات التى تصدر من الأيدى أثناء اللعب .. فبعض هذه الأيدى حيوانات وحشية ، ذات أصابع نحيلة يكسوها الشعر ، تنقض على النقود كما ينقض العنكبوت على الذباب .. وبعضها مرتجفة ، ذات أظافر شاحبة ، تكاد لا تجرؤ على مس هذه النقود .. وسواء أكانت الأيدى مترفعة أو وضيعة ، وحشية أو حيية ، خبيثة أو مترددة ، فإن لكل يد منها طابعاً يميزها عن سواها .. بل إن كل يد من يدى الشخص الواحد ، تعبر عن حياة تختلف عن حياة الأخرى .. فيما عدا أيدى مراقبى اللعب ، فهى آلات صماء فى دقتها ، وانتظام حركاتها المكتسبة بالمران ، وحيادها المطلق إزاء النشاط المستعر فى أيدى اللاعبين .. فتراها تدور محدثة صريراً كذلك الذى يصدر عن باب حديدى يدور حول محور أقيم عليه عداد « مثل باب حديقة الحيوان » .. ومع ذلك ، فإن لهذه الأيدى المحايدة تأثيراً عجيباً ، إذ أنها بتناقضها مع الأيدى الشرهة ، المتوثبة ، تلوح كما لو كانت ذات زى خاص موحد ، كرجال الشرطة وسط حشد هائج متمرد !

« أضف إلى ذلك لوناً من المتعة يستشعره المرء إذا ما اندمج — عدة أيام — فى هذه العادات والانفعالات التى يراها من بعض الأيدى ! .. على أنه لم تلك تنقضى بضعة أيام ، حتى أتعرف على أيدى جديدة ، أفحصها وأضع كلا منها فى المرتبة التى تلائمها .. كنت أراها كالآدميين تماماً ، فمنها ما تكون خفيفة الظل ، ومنها ما تكون ثقيلة .. وكنت أنفر من عدد كبير منها لفظاظتها وجشعها ، حتى أننى لم أكن أتمالك أن أشيح بوجهى عنها كلما وقع بصرى عليها ، وكأنى أرى فيها شيئاً نابياً ! .. وكانت كل يد جديدة تظهر على مائدة اللعب ، حدثاً جديداً بالنسبة لى ، يثير فضولا واستطلاعاً .. وكثيراً ما كنت أغفل النظر إلى الوجه الذى يعلو الياقة ويظل جامداً فوقها بلا حراك — كأنه قناع بارد فوق قميص الـ (سموكنج) — أو الوجه الذى يعلو العنق المزدان بعقد براق ، إذا كانت اليدان لامرأة !

* * *

● « وعندما دخلت « الكازينو » فى ذلك المساء — الذى بدأت فيه قصتى — مررت بمائدتين اشتد زحام الناس حولهما ، حتى إذا اقتربت من الثالثة ، بدأت أعد بعض القطع الذهبية ، وإذا بى أفاجأ بما أدهشنى .. كان الوجوم يسيطر على المائدة .. وجوم صامت مفعم بالتقزز العصبى ، حتى ليخيل إليك — لفرط السكون — أنك توشك أن تسمع للصمت ذاته رفيفاً أو حفيفاً .. وفى غمرة هذا الوجوم الذى يسود اللاعبين عادة عندما تكون الكرة وشيكة الوقوف ، وقد أخذت تتأرجح بين رقمين قبل أن تسقط فى ثغرة أحدهما .. فى غمرة هذا الوجوم ، أدهشنى أن

أسمع فى الجانب المواجه لى صوتاً غريباً ، وقرقعة خيل إلى أنها تنبعث من عظام تتهشم .. وتطلعت — على الرغم منى — إلى الجانب الآخر من المائدة ، وإذا بى أجفل ! .. فقد رأيت يدين لم أر لهما مثيلا من قبل ، على الإطلاق .. يدين أطبقت كل منهما على الأخرى ، كحيوانين يتحفز كل منهما كى يعض الآخر ! .. وكانتا تشتبكان ، وتتصاولان فى عنف وحشى ، فتحدث عظام أصابعهما — فى غمرة الاحتدام الخشن — قرقعة أشبه بتلك التى تنبعث من ثمرة الجوز وهى تتكسر !

« أما جمال هاتين اليدين ، فكان باهراً ، نادراً .. كانتا مفرطتى الطول ، مسرفتى النحول ، ومع ذلك فقد تخللتهما عضلات ذات قوة غير عادية .. وكانتا ناصعتى البياض ، تنتهيان بأظافر شاحبة ، لامعة ، مستديرة فى اتساق .. ووجدتنى أحدق فيهما طوال السهرة .. أجل ، كنت أتأمل فى دهشة لا تنضب هاتين اليدين غير العاديتين .. اليدين الفريدتين ، اللتين لم يكن لهما نظير حقاً .. أما ما أثار فى نفسى دهشة أوشكت أن تكون جزعاً ، فقد تمثل فى تلك الحمى التى كانت تسرى فيهمـــا ، وتلك التعبيرات التى كانت تصـــدر عنهما وهما تشتبكان وتتصارعان .. وأدركت لأول وهلة — إذ رأيتهما — أنهما لرجل فاضت قوته جامحة ، فحشد كل انفعالاته فى أصابعه ، لكى لا تحتبس فى أطواء نفسه فلا تلبث أن تنفجر وينفجر معها كيانه ! .. وفى اللحظة التى هوت فيها الكرة فى الفجوة — محدثة بارتطامها صوتاً مكتوماً — وصاح مراقب اللعب معلناً الرقم الرابح .. فى تلك اللحظة الحاسمة ، انفصلت كل من اليدين عن الأخرى ، كما لو كانتا حيوانين أردتهما رصاصة واحدة ،

وارتمتا على المائدة ميتتين ، لا منهوكتى القوى فحسب ! .. وكانتا فى ارتمائهما تنمان عن ذعر ولوعة تعجز فصاحتى عن وصفهما ، وكأنما باغتتهما صاعقة ! .. ما رأيت قط من قبل — ولا بعد — مثل هاتين اليدين الناطقتين ، المعبرتين ، كأن كل عضلة فيهما فم .. وكأن شهوة المقامرة تكاد تنبثق من مسامهما !

« وظلت اليدان مستلقيتين على المائدة الخضراء برهة ، وكأنهما حيوانان بحريان قذفت بهما الأمواج على الشاطئ ، ميتين ، يثير منظرهما التقزز .. وما لبثت إحداهما — اليد اليمنى — أن شرعت ترفع أصابعها فى عناء ، وهى ترتجف .. ثم انكمشت ، وأخذت تدور حول نفسها مترددة .. وإذا بها قد أمسكت بإحدى « الفيشات » فى حركة عصبية واضحة ، وراحت تديرها — فى حيرة — بين السبابة والإبهام ، وكأنها عجلة صغيرة .. وفجأة ، تراجعت تلك اليد كنمر يتحفز ، ثم قذفت بتلك « الفيشة » — من فئة المائة فرنك — إلى وسط المربع الأسود ، وكأنها تلفظها ، أو تبصقها ! .. وكأنما كانت هذه الحركة إيذاناً لليد اليسرى ، فإذا بها تضطرب — بعد أن كانت مستلقية بلا حراك — وتنهض بدورها فتتسلل زاحفة إلى أختها التى كانت ترتجف بعنف ، كما لوكان إلقاء « الفيشة » فى المربع الأسود قد أنهكها واستنفد قواها .. ولاحت اليدان ، وهما ترتجفان جنباً إلى جنب ، كالأسنان حين تصطك فى عنفوان الحمى .. وأخذتا فى ارتعاشهما ترتطمان بالمائدة برفق ، دون أن تحدثا صوتاً ..

« لا .. أبداً .. ما رأيت من قبل — على الإطلاق — يدين أوتيتا

مثل هذه القدرة المعبرة الخارقة ، التى تجلت فى اضطرابهما ، واختلاجاتهما العصبية .. فإذا كل ما كان يجرى تحت تلك القبة الكبيرة .. وإذا الهمهمة السارية فى أجواء الحجرات ، وصياح مراقبى اللعب ، وحركة الناس فى غدوهم وذهابهم ، بل وحركة الكرة ذاتها ، إذ ألقيت — إذ ذاك — من عل ، فأخذت تقفز كمجنون فى قفص مستدير مصقول القضبان .. كل هذه الصور التى تداخل بعضها فى بعض ، وامتزجت فى تعاقبها ، وأناخت على الأعصاب بكل ثقلها .. كل هذه بدت لى — فجأة — ميتة ، إذا قيست بتلكما اليدين المرتعشتين المضطربتين ، اللتين استسلمتا للانتظار وهما تنتفضان .. تلكما اليدين العجيبتين اللتين سحرتانى وحملتانى على أن أركز كل انتباهى عليهما وحدهما .

« ولم أعد أقوى على المقاومة .. لابد من أن أرى وجه الرجل .. الوجه الذى يملك صاحبه هاتين اليدين الساحرتين .. وأرسلت بصرى فى حذر وخشية — أجل ، خشية ، إذ كانت هاتان اليدان تخيفانى — فتتسلل على طول كمى السترة حتى بلغ الكتفين الضيقتين ، وإذا بى أجفل مرتاعة مرة أخرى .. كان الوجه ينطق بنفس تلك اللغة الثائرة ، المتطرفة فى جموحها وانفعالها .. اللغة التى كانت تنطق بها اليدان. فقد اجتمع فى ذلك الوجه نضال رهيب ، وجمال رقيق — يكاد يكون نسوياً — فى آن واحد ! .. ما رأيت من قبل وجهاً كذلك الوجه ، لاتمت تعبيراته إلى جسد صاحبه بصلة ما ، فكأن الوجه وصاحبه شخصان لا علاقة بين كل منهما والآخر فى حياته ، ولا فى أحاسيسه وانفعالاته !

« وأتيح لى — وأنا أحدق فيه من موقفى — أن أتأمله فى أناة ، فتراءى

لى كقناع ، أو كرجل من (البلاستيك) لا دبيب للحياة فيه ! .. كانت عينه — تلك العين الجامدة — لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، اللهم إلا فى لحظات خاطفة ، وقد قبعت تحت جفنها المفتوح إلى أقصاه ، حدقة سوداء ، لا تتحرك ، كأنها كرة من زجاج لا حياة فيها ، ينعكس عليها طيف الكرة الزرقاء الأخرى ، التى كانت تدور وتقفز فى جنون أرعن ، داخل صندوق (الروليت) الصغير ، المستدير ..

* * *

● « وأكرر مرة أخرى أننى لم أر من قبل مثل ذاك الوجه المنفعل ، الفاتن .. كان لشاب فى الرابعة والعشرين من عمره تقريباً .. وكان وجهاً نحيفاً ، لطيفاً ، على شىء من الاستطالة ، يطفح فى مجموعه بآيات ما كان ينتابه من انفعال .. وكان هذا الوجه — كاليدين — خالياً من كل أثر للرجولة ، كما لو كان وجه طفل ينصرف إلى اللعب بكل مشاعره .. على أننى لم ألاحظ كل هذا إلا فيما بعد .. إذ كان الوجه — حين تأملته للمرة الأولى — يستتر خلف تعبيرات صارخة تدل على جشع جنونى مستعر .. كان فمه صغيراً ، مفتوحاً ، وقد بدت أسنانه خلال شفتيه القرمزيتين .. واستطعت أن أتبين — وأنا على بعد عشر خطوات منه — أن أسنانه كانت تصطك فى رعدة محمومة ، بينما ظلت الشفتان ثابتتين فى انفراجهما .. وانسدلت على جبينه خصلة من شعر أشقر ناعم ، لامع ، تدلت من حافة رأسه كإنسان على وشك أن يسقط .. وانتابت طاقتى أنفه اختلاجة متواصلة ، وكأن موجات صغيرة أخذت تتدافع تحت بشرته ... وكان رأسه يزداد انحناء إلى الإمام

— دون أن يفطن حتى ليخال الناظر إليه أن ذلك الرأس كان ينجذب إلى الدوامة التى راحت الكرة تدور فيها ..

« إذ ذاك فقط ، أدركت سر العنف الذى كانت يداه تتضاغطان به .. كان اشتباكهما واصطراعهما يحفظان التوازن لهذا الجسد الذى انتزع من مجال ارتكازه ! .. ومرة أخرى ، أجدنى مضطرة إلى أن أكرر باستمرار أننى لم أر قط من قبل وجهاً تنبثق منه المشاعر فى غزارة دافقة ، ووحشية سافرة ، عارية ، كذلك الوجه .. ووجدتنى أتفرس فيه بكل جوارحى وأنا مشدوهة ، مأخوذة بتلك النظرات المختبلة التى كانت تندلع من عينيه ، وهو يرقب الكرة فى قفزها ، وحركتها ، ودورانها ! .. منذ تلك اللحظة لم أعد ألتفت إلى أى شىء آخر ، فقد بدا لى كل ما عداه باهتاً ، صدئاً ، لاقيمة له .. ولاح كل شىء مظلماً إلى جانب ذلك اللهب المنبثق من ذلك الوجه !

« وبقيت لا ألتفت إلى شخص آخر سواه نحو ساعة من الزمن ، قضيتها فى تأمله وحده ، وفى تأمل كل حركة من حركاته .. وفجأة ، انبعث من عينيه وميض وهاج ، وانشقت راحتا يديه المحتقنتين ، فانفصلت الأصابع بعضها عن بعض فى حركة عنيفة وهى تنتفض .. كان ذلك حين دفع مراقب اللعب إلى اليدين عشرين قطعة ذهبية ، فأطبقتا عليها فى شراهة ونهم .. وإذ ذاك أشرق الوجه فجأة ، وارتدت إليه ميعة الصبا كاملة ، وانبسطت أساريره فى رفق ، وأبرقت عيناه .. أما جسده المنحنى إلى الأمام ، فقد اعتدل فى رشاقة وخفة ، وانتصب كجسم فارس على صهوة جواده ، وقد ازدهاه النصر .. وأخذ رنين

القطع الذهبية يتردد بين أصابعه التى راحت تديرها فى شغف ووله ، فتسقط الواحدة منها على الأخرى ، وتتراقص ، وتبعث رنيناً ..

« وما لبث الشاب أن أدار رأسه إلى المائدة من جديد — فى قلق — وأخذ يذرع الرقعة الخضراء بنظراته ، ككلب صغير يتشمم الأرض بحثاً عن فريسة ! .. وفجأة ، وضع القطع الذهبية جميعاً على أحد المربعات ، بحركة عصبية سريعة ، وارتد لفوره إلى الترصد والتربص .. ومن جديد ، انساب من بين شفتيه ذلك الأزيز المهتز ، وعادت اليدان إلى توترهما ، وتوارى الوجه الصبيانى خلف الرغبة القلقة .. ودام هذا إلى اللحظة التى بلغت فيها خيبة الأمل درجة الانفجار فتراخت تقلصات يديه ، وإذا الوجه — الذى كان منذ لحظة يشبه وجه الطفل — قد ذبل ، وأظلم ، واكتهل ، وخمد بريق عينيه !

« حدث كل هذا خلال ثانية واحدة ، إذ استقرت الكرة على رقم غير الذى كان قد اختاره .. وخسر ! .. ومرت ثانيتان حملق الشاب خلالها فى بلاهة وكأنه لا يفهم ، ولكن .. ما أن عادت صيحة مراقب اللعب ، حتى نبهته كما لو كانت سوطاً ألهب ظهره ، فأنشب أصابعه فى قطع ذهبية أخرى .. ولم يكن قد استقر على رأى فى البداية فوضع القطع الذهبية على مربع ، ثم غير رأيه ووضعها على مربع آخر .. حتى إذا شرعت الكرة فى الدوران ، سارع — ويده ترتعش — فألقى بورقتين ماليتين مجعدتين على المربع ذاته ، كأنما هبط عليه إلهام مفاجىء ..

« وتعاقب عليه الربح والخسارة ، زهاء ساعة تقريباً ، كنت خلالها لا أحول بصرى عن ذلك الوجه المتغير — بتأثير تعاقب الانفعالات فى مدها وجزرها — ولا عن تلكما اليدين الفاتنتين اللتين كانتا ترتفعان وتنخفضان كقذيفة على سطح الماء ، وقد تجلت على كل عضلة فيهما سلسلة متصلة من صور الأحاسيس التى كانت تخالج صاحبهما ! .. وما تطلعت فى حياتى إلى وجه ممثل مسرحى بمثل هذا الاهتمام الذى رحت أرمق به ذلك الوجه الذى توالت عليه أفواج من كافة الأحاسيس ، كما تتعاقب الأضواء والظلال على المناظر الطبيعية .. ولا استغرقت بكل جوارحى فى تأمل شىء ، قدر استغراقى فى التطلع إلى هذه الفورة العارمة ، العجيبة . ولو أن إنساناً راقبنى فى تلك الفترة ورأى نظراتى المسددة — التى كانت ثابتة لا تتزحزح — لخيل إليه أنه أمام امرأة منومة تنويماً مغناطيسياً .. إذ كان استغراقى قد سلبنى حسى كما يفعل التنويم المغناطيسى تماماً !

« لم أكن أملك أن أكبح نفسى عن النظر إلى هذه التعبيرات المتعاقبة .. وكان كل ما يحيط بى من أضواء ، وضحكات ، ومخلوقات متناثرة ، ونظرات .. كل هذه كانت تطفو حولى كما لو كانت خيالات ، أو كسحابة من دخان شاحب ، برز فى وسطها ذلك الوجه تحيط به هالة من لهب ! .. لم أعد أسمع شيئاً ، أو أحس بشىء ، أو أرى الناس حولى وهم يتدافعون .. لم أعد أبصر سوى تلكما اليدين تمتدان فجأة كالأسلاك لتقذفا بالنقود فوق رقعة اللعب ، أو لتجمعاها ! .. ولم أعد ألتفت إلى الكرة ، أو أسمع صوت مراقب اللعب .. ومع

ذلك كنت أرى كل ما يدور حولى ، مجسماً ، ومضخماً ، بتأثير الانفعالات والاختلاجات التى كانت تنتاب يدى الشاب ، كما لو كنت احيا فى حلم ، وليس فى الواقع !

« وهكذا لم أكن بحاجة إلى أن أتطلع إلى مائدة (الروليت) ، لأتبين ما إذا كانت الكرة قد وقعت على اللون الأحمر أو على اللون الأخضر ، وما إذا كانت ماضية فى الدوران أو أنها توقفت .. إذ كانت كل مرحلة من مراحل اللعب — سواء أكانت خسارة أو ربحاً ، انتظاراً أو خيبة — تقرأ بحروف من نار على ذلك الوجه الذى استبدت شهوة المقامرة بأعصابه وحركاته !

* * *

● « على أنه لم تلبث أن حلت لحظة رهيبة .. لحظة كنت أتهيب — فى قرارة نفسى — من حلولها طيلة الوقت .. لحظة كانت مخيمة على أعصابى ، التى اشتد بها التوتر ، كما تخيم العاصفة ، قبل انقضاضها فجأة .. فقد بدأت الكرة تتثاقل ، محدثة تلك الارتطامات التى تشبه التصفيق الخافت .. ومرة أخرى تأرجحت تلك اللحظة الحاسمة التى انطبقت فيها مائتا شفة لتحبس الأنفاس ، إلى أن علا صوت مراقب اللعب ، معلناً فى هذه المرة فوز رقم (الصفر) ، بينما كانت مجرفته السريعة الحركة تجمع القطع الذهبية الرنانة وأوراق النقد من جميع جوانب المائدة .. ففى تلك اللحظة ، صدرت من اليدين حركة مفعمة بالذعر ، إذ وثبتا على شىء ما ، لم يكن له وجود .. ثم تهالكتا فى إعياء — وكأنهما من الثقل بحيث شدتهما الجاذبية الأرضية إلى المائدة ! —

و راحتا تختلجان فى ألم .. على أن النشاط لم يلبث أن دب فيهما ثانية ، فانطلقتا تعدوان — محمومتين — من المائدة إلى الجسم الذى تنتميان إليه ، تتسلقان جذعه كقطتين متوحشتين ، وتنقبان فى الجيوب العليا والسفلى ، واليمنى واليسرى ، بلهفة منفعلة ، لتستوثقا من أنه لم تبق فى أى منها قطعة نقدية منسية .. ولكنهما كانتا ترتدان خاويتين دائماً ، ثم لا تلبثان أن تعودا إلى البحث والتنقيب فى لهفة ، ولكن .. دون جدوى ! .. وبدأ قرص (الروليت) الصغير يدور من جديد — فى تلك الأثناء — فاستأنف اللاعبون لعبهم ، وتجاوب رنين القطع النقدية ، وأخذت المقاعد تتزحزح ، وآلاف الهمسات الحائرة تملأ البهو بالأقاويل .. وارتجفت أنا ، وقد تولانى الجزع ، إذ اندمجت — على الرغم منى — فى تلك المشاعر جميعها ، كما لو كانت أصابعى هى التى راحت تبحث فى جنون ويأس عن أية قطعة من النقود قد تكون متوارية فى أحد الجيوب ، أو فى ثنايا السترة التى تهدلت !

« وما لبث الشاب أن قفز مستوياً على قدميه فجأة ، وكأنه أحس بتعب مباغت .. وأخذ يشد قامته حتى لا يختنق ، بينما هوى المقعد خلفه ، مرتطماً بالأرض فى صوت حاد .. ولكنه لم يعبأ بما حدث ، ولا التفت إلى جيرانه الذين انكمشوا فى دهشة وخوف من ذلك المترنح الذى لم يلبث أن ابتعد عن المائدة بخطى متثاقلة .

« وسمرت فى مكانى حين رأيت ذلك المنظر ، فقد أدركت لفورى إلى أين كان يسعى ذلك الرجل .. إلى الموت ! .. فالذى ينهض عن المائدة بهذا الشكل ، لا يمكن أن يكون ذاهباً إلى فندق بالطبع ،

ولا ساعياً إلى ملهى ، ولا ذاهباً إلى مخدع امرأة ، أو إلى مقعد محجوز له فى أحد القطارات ، ولا إلى أى مكان آخر فى الدنيا .. وإنما هو يولى وجهه شطر .. العدم ! .. كان فى وسع أبلد الناس إدراكاً — فى تلك القاعة الجهنمية — أن يدرك أن هذا الرجل قد غدا معدماً ، لا يملك مورداً فى بيته ، أو فى أى مصرف ، أو لدى أسرته .. كان قد قامر بآخر درهم معه .. بل قامر بحياته ، ثم انطلق بتلك الخطى المتثاقلة ، المتعثرة ، إلى مكان ما ، لا يهمه موقعه ، ولكن من المؤكد أنه خارج نطاق الوجود !

* * *

● « وكنت دائماً أوجس — وقد ساورنى هذا الشعور منذ اللحظة الأولى ، بطريقة خفية — من أن اللعب هنا لا يقتصر على تنافس على الربح أو الخسارة .. ومن ثم وقع علىّ وقوع الصاعقة أن أرى الحياة تغيض من عينى هذا الشاب فجأة ، والموت يبسط صبغته الشاحبة على ذلك الوجه الذى ما يزال فى نضارة الفتوة .. فلما نهض من مكانه فى عناء ، مترنحاً ، ضممت قبضتى بشدة ، دون وعى منى .. إذ كنت قد تأثرت بحركاته المرنة إلى أقصى حد ، فسرت فى جسدى مشيته المتعثرة ، كما سرت انفعالاته فى عروقى وأعصابى من قبل .. ولم يسعنى أن أقف مكتوفة اليدين ، بل وجدتنى مسوقة إلى أن أتبعه ، وأخذت قدماى تتحركان من تلقاء نفسيهما ودون ما إرادة منى .. كان ذلك دون وعى منى .. لم أكن أنا التى تتصرف ، ولكن الذى

حدث أننى اندفعت — دون ما انتباه إلى نفسى ، ولا وعى إلى حقيقة حركاتى — أجرى نحو الردهة المفضية إلى الخارج ..

« كان الشاب فى غرفة إيداع الثياب ، وقد حمل له الخادم معطفه ، ولكن ذراعيه لم تعودا تطيعانه ، فأسرع الخادم يعاونه على إدخال يديه فى كمى المعطف ، كما لو كان يساعد عاجزاً أو مشلولا ! . ولمحته يدس أصابعه بطريقة آلية فى جيوب صديريه بحثاً عن مبلغ ينفح به الخادم ، ولكنها ارتدت خاوية بعد أن غاصت إلى قاع كل جيب .. وإذ ذاك ، بدا أنه تذكر فجأة كل ما مر به منذ لحظات ، فتمتم موجهاً للخادم بعض كلمات غير مفهومة .. وكما حدث منذ برهة ، وثب فجأة إلى الأمام ، وهبط سلم الكازينو متعثراً كالثمل ، بينما ظل الخادم لحظة يرمقه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، نمت فى البداية عن ازدراء ، ثم لم تلبث أن نمت عن إدراك للحقيقة ..

« وكان هذا المنظر مثيراً إلى درجة جعلتنى أخجل لوجودى فى ذلك المكان .. ووجدتنى أشيح بوجهى على الرغم منى ، لفرط ما انتابنى من ضيق ، إذ خيل إلى أنى أشاهد مسرحية عن مأساة من مآسى اليأس ، تحل بإنسان لا أعرفه .. ودفعنى ذلك الألم — الذى استولى على كيانى كله — إلى أن أمضى خلف الرجل فجأة .. فطلبت معطفى فى عجلة . وبحركة آلية غريزية ، ودون ما تفكير ، اندفعت فى الظلام ، أقتفى خطوات الشاب ! »

* * *

الفصل الثالث

● أمسكت مسز (س .) عن الكلام برهة .. وكانت ـ طوال الوقت الذى مضى ـ جاثمة فى مقعدها أمامى ، لا تحير حراكاً ، وهى تسرد حديثها دون ما توقف تقريباً ، بذلك الهدوء والوضوح اللذين امتازت بهما ، واللذين لا يتوفران إلا لشخص أعد نفسه لموضوع الحديث ، ونسق ترتيب الحوادث بعناية .. وكانت هذه أول مرة تمسك فيها عن الاسترسال .. وبعد تردد قصير ، نحت موضوع قصتها جانباً ، واتجهت بالحديث إلى مباشرة :

« لقد تعهدت أمامك وأمام نفسى بأن أروى لك كل ما حدث بصراحة خالصة من كل شائبة ، ولكنى ـ بدورى ـ أطالبك بأن تثق بصدق أقوالى ثقة مطلقة ، وألا تعزو تصرفى هذا إلى بواعث خفية أخجل إذا فكرت اليوم فيها .. لأنك إن فعلت ، فستسترسل فى احتمالات لم يكن لها قط أى ظل من الحقيقة ! .. ومن ثم ، أرى أن أؤكد لك أننى عندما أسرعت فى الطريق وراء ذلك المقامر المتداعى ، المحطم ، لم أكن قد وقعت فى غرامه ـ مثلا ـ بأى حال من الأحوال ، لأننى لم أكن أفكر فيه كما قد تفكر امرأة فى رجل !.. فالواقع أننى ـ وكنت قد جاوزت الأربعين إذ ذاك ـ لم ألق اعتباراً لأى رجل قط ، بعد وفاة زوجى ، بل صار ذلك بالنسبة لى شيئاً دفن مع الماضى !.. إننى أوضح لك هذا خصيصاً ، إذ لابد لى من أن أبينه لك ، وإلا فلن يبدو لك كل ما تبع ذلك من أحداث ، مفهوماً :: لفرط بشاعته !



أمسكت مسز (س.) عن الكلام برهة .. وكانت ـ طوال الوقت الذى مضى ـ جاثمة فى مقعدها أمامى .

« ومن ناحية أخرى ، يشق عليَّ فى الواقع أن أصف بدقة ذلك الشعور الذى لم أقو على مقاومته ، والذى دفعنى إلى تعقب ذلك التعس . كان فيه شىء من الفضول ، ولكن الحافز الأكبر عليه كان لوناً من الخوف الرهيب .. أو بالأحرى ، التوجس من شىء رهيب شعرت به يستولى عليَّ منذ اللحظة الأولى التى وقع فيها بصرى على ذلك الشاب ! وليس فى الوسع تحليل تلك المشاعر ، ولا بحثها ومناقشتها ، لا سيما وأنها تأتى متشابكة بعضها ببعض ، فى قوة وسرعة ، ودون ما سابق تدبير أو تفكير .. بل لعل الباعث الذى دفعنى إلى ذلك التصرف لا يختلف عن ذلك الحافز الغريزى المحض ، الذى يدفع المرء إلى أن يخف إلى إنقاذ طفل يوشك أن يلقى بنفسه تحت عجلات سيارة فى الطريق ! .. وإلا ، فكيف نبرر تصرف أولئك الذين لا يجيدون السباحة ، ومع ذلك يلقون بأنفسهم من فوق قنطرة ، إذا رأوا إنساناً يغرق ، رغبة منهم فى إنقاذه ؟! .. إن ثمة قوة خارقة .. إرادة خفية غامضة ، هى التى تدفع بهم إلى إلقاء أنفسهم فى الماء ، قبل أن ينفسح لهم الوقت الكافى للتفكير فى ذلك العمل الجنونى الجرىء الذى يقدمون عليه !

« وهكذا كانت حالى تماماً .. فقد انطلقت — دون ما تفكير أو تدبير ، بل دون ما وعى على الإطلاق — أتعقب ذلك التعس ، من قاعة اللعب حتى الباب الخارجى .. ومن الباب الخارجى ، إلى فناء (الكازينو) .. وإنى لأومن بأنك ... بل بأن أى امرئ أوتى عينين مبصرتين ، ما كان ليقوى على أن يكبح نفسه عن ذلك الفضول

القلق ، المثير .. فليس أدعى للرثاء والأسى من تصور ذلك الشاب — الذى كان فى الرابعة والعشرين من عمره ، على الأكثر — وقد أخذ يجر قدميه فى عناء ، هابطاً السلم ، ومتجهاً إلى فناء (الكازينو) الخارجى مترنحاً وكأنه ثمل ، وقد التوت أطرافه وتخلخلت !

* * *

● وهناك — فى الفناء الخارجى للكازينو — تهالك متثاقلا على أحد المقاعد ، وكأنه زكيبة !.. ومن جديد ، ارتجفت حين عاودنى الإحساس بأن هذا الرجل قد استنفد كل حيويته .. فلا يمكن أن يتهالك بهذه الطريقة سوى ميت ، أو إنسان لم تعد فيه جارحة حية !.. كان رأسه مائلا إلى الوراء ، ومرتكزاً على مسند المقعد ، وذراعاه متدليتين نحو الأرض فى استرخاء .. ولو أن عابراً لمحه تحت الضوء الخافت الواهن — المنبعث من المصابيح — لما ارتاب فى أنه جثة فاقدة الحياة !

وهكذا اعتبرته أنا فى تلك اللحظة ! وليس بوسعى أن أفسر كيف تبلورت هذه الصورة أمام ناظرى فجأة .. ، ولكن هكذا كنت أراه إذ ذاك .. كأنى كنت أرى حقيقة بشعة مروعة .. كأنى كنت أشهد جثة !.. وكنت واثقة تمام الثقة من أنه يحمل مسدساً فى جيبه ، ومن أن جسمه هذا لن يلبث أن يكتشف فى اليوم التالى على هذا المقعد ، أو على سواه ، هامداً ، غارقاً فى بركة من الدم !.. كان شكله — فى هذا الوضع — يشبه الحجر الذى تقذف به فى هاوية ، فيظل يتدحرج

دون توقف حتى يصل إلى قرارها .. أبداً لم يقدر لى أن أرى من قبل جسداً فى وضع ينم عن اليأس والإعياء ، مثل هذا !

والآن ، تخيل موقفى ! .. لقد وجدت نفسى على بعد عشرين أو ثلاثين خطوة ، خلف مقعد استقر عليه رجل فاقد الحركة، متداع . واحترت ماذا أفعل !.. كنت — من ناحية — مدفوعة بالرغبة فى إغاثته .. ومن ناحية أخرى ، كان يصدنى الخوف من مخاطبة رجل غريب فى الطريق .. وهو خوف متولد عن التربية والوراثة ! .. وكانت مصابيح الغاز ترسل ضوءها مستديراً ، شاحباً ، نحو السماء الملبدة بالغيوم .. والمارة القلائل يسرعون الخطى ، إذ كان الليل قد أوشك أن ينتصف ، ومن ثم كنت بمفردى — تقريباً — فى المتنزه ، مع ذلك الرجل الذى كان على شفا الانتحار !

واستجمعت قواى — خمس أو ست مرات — وهممت بالاقتراب منه ، ولكنى كنت أتراجع بدافع الحياء ، أو بدافع من تلك الغريزة أو ذلك الإحساس العميق الذى يوحى إلينا بأن أولئك الذين يهوون من حالق ، يجذبون معهم فى سقوطهم كل من يخف لنجدتهم !.. وفى غمرة هذا الموقف ، تبينت بوضوح مدى حماقتى وطيشى وحرج مركزى .. لم أستطع أن أتكلم ، ولا أن أنصرف ، ولا أن أفعل شيئاً، ولا أن أترك الشاب وشأنه !.. صدقنى إذا قلت إننى ظللت على هذه الحال — فى تلك البقعة — زهاء ساعة .. ساعة لم تشأ أن تنتهى .. بينما كانت أمواج البحر غير المنظورة تنبه الزمن بآلاف متعاقبة من خفقاتها

الخفيفة .. وأنا ما زلت حائرة ، مضطربة ، إزاء هذه الصورة التى كانت تمثل النهاية الحزينة لمخلوق .. من البشر !

أجل ، لم أجد من نفسى جرأة على أى قول ، أو أى عمل .. وكان من الممكن أن أقضى النصف الباقى من الليل فى الانتظار على هذا النحو ، أو أن أعود أدراجى ، فى نهاية الأمر ، بدافع من الأنانية .. نعم ، أعتقد أننى كنت قررت بالفعل أن أترك هذه الحزمة من التعاسة لمصيرها ، لولا أن تغلبت على ترددى قوة خارقة .. إذ بدأت السماء تمطر !.. كانت الريح قد ظلت الليل بطوله تجمع — من فوق البحر — سحب الربيع المثقلة بالبخار ، حتى إن المرء كان يحس — برئتيه وقلبه — أن السماء تنوء بثقلها على الأرض !.. وما لبثت أن سقطت قطرات من مطر ، أعقبها سيل منهمر من تلك السحب المليئة التى كانت الريح تطاردها .. ووجدتنى أحتمى — دون أن أفطن — بسقف إحدى مظلات المتنزه .. ومع أننى استبقيت مظلتى مفتوحة ، إلا أن السيل الدافق نثر على ملابسى (كتلا) من الماء .. بل إننى شعرت بالرذاذ المنبعث من ارتطام القطرات الثقيلة بالأرض يصيب وجهى ويدى .. ولكن .. شد ما كان المنظر رهيباً ، حتى أننى ما زلت إلى اليوم أشعر بغصة فى حلقى كلما تذكرته .. أقول : ولكن التعس بقى — برغم كل هذا — جامداً فى مقعده ، لا تبدر منه أية حركة على الإطلاق !.. وظل الماء يتدفق ويجرى فى المسارب ، بينما كانت قعقعة عجلات العربات تتناهى إلى سمعى من ناحية المدينة .. وكان الناس يجرون هنا وهناك وقد تسربلوا بالمعاطف الضافية .. كان كل مخلوق

حى ينكمش على نفسه، وينشد ملاذاً وقد استبد به الفزع .. وبالإجمال سيطر الخوف — من الطبيعة الثائرة — على كل إنسان وحيوان .. فيما عدا تلك الحزمة الآدمية السوداء، التى ظلت فى مكانها على المقعد دون حراك :

* * *

● ولقد ذكرت لك من قبل أن هذا الرجل أوتى مقدرة خارقة على التعبير — بمرونة — عن مشاعره، بحركاته وإيماءاته . على أنه لم يكن فى الوجود ما هو أقوى فى التعبير عن اليأس المطبق، وعن التخلى الكامل عن النفس، وعن (الموت الحى) ، من ذلك الجمود .. تلك الحال من فقدان الحركة وفقدان الشعور تحت وابل المطر .. وذلك التخاذل البالغ، الذى حال بين الرجل وبين الوقوف ليخطو الخطوات القلائل اللازمة كى يبلغ أى ملجأ يحتمى به !.. كان عدم اكتراثه بنفسه قد بلغ حداً لا تصدقه العين .. أبداً لم يقدر لمثال أو لشاعر — ولو كان (ميكل أنجلو) أو (دانتى) — أن يصور لى كيف يكون مظهر اليأس الطاغى، والتعاسة المطلقة فى الدنيا، ذلك التصوير القوى المثير الذى تجلى فى مسلك ذلك المخلوق الذى ترك نفسه تغرق فى العاصفة .. فقد بلغ من الانحلال والتخاذل مبلغاً عجز معه عن الإتيان بأية حركة !!

ولم أستطع إلى المقاومة سبيلا، إذ لم يكن ثمة بد من عمل شىء .. فما لبثت أن وثبت تحت المطر الغزير الذى كان يتساقط بعنف فهززت تلك الحزمة البشرية التى كانت على المقعد، والتى أغرقها السيل

المنهمر .. وقلت له وأنا أمسك بذراعيه : « تعال ! » .. وتطلع إلىّ — فى عناء — وجه غامض المعالم .. وخيل إلىّ أن دبيباً من الحركة يسرى فى أوصاله، ولكنه لم يفقه ندائى .. فقلت وأنا أجره من كم معطفه المبتل، وقد أوشكت لهجتى أن تنم عن غضب : « تعال ! » .. فنهض إذ ذاك فى بطء، مسلوب الإرادة، مترنحاً .. وسألنى : « ماذا تريدين ؟ » .

ولم أجد لسؤاله جواباً، فقد كنت لا أدرى إلى أين أذهب به .. لم يكن يعنينى سوى أن أنتزعه من ذلك المطر الغزير البارد، ومن ذلك التخاذل وعدم الاكتراث اللذين كانا بمثابة الانتحار، واللذين أبقياه فى ذلك المكان فريسة ليأس قاتل !.. وظللت ممسكة بذراعه، ثم أخذت أجر تلك الحزمة البشرية، حتى وصلت بها إلى « كشك » بائعة الزهور، إذ كان لسقفه حافة منبسطة قليلا، تستطيع أن تحمى الرجل من المياه التى كانت تنصب انصباباً، فتدفعها الريح فى عنف . لم أكن قد فكرت فى شىء .. بل لم أكن أبغى سوى هذا، إذ لم يكن يشغل فكرى سوى أمر واحد : هو أن أسلم ذلك الرجل إلى ملجأ .. إلى مكان آمن من البلل !

وهكذا وجدنا نفسينا — جنباً إلى جنب — فى ذلك الحيز الضيق الذى احتمينا به، ومن خلفنا باب « الكشك » المغلق، وفوق رأسينا حافة السقف التى كانت من الضيق بحيث أن مياه المطر الدافقة كانت تتسلل عبرها، لتقذفنا برشاش تحمله نفحات الهواء الشديدة إلى ملابسنا ووجهينا .. ولم يلبث الموقف أن أصبح لا يطاق !. فما كنت

أملك — برغم كل الاعتبارات — أن أبقى أكثر مما بقيت إلى جوار هذا الغريب المثقل بالبلل .. كما كان من المستحيل عليّ أن أتخلى عنه بعد أن زحزحته عن مكانه ، لمجرد رغبتى فى تركه ، ودون أن أحدثه بشىء !.. كانت الضرورة تحتم أن أفعل شيئاً !.. وما لبثت أن انتهيت رويداً إلى فكرة صائبة ، واضحة .. فكرت فى أن خير ما أستطيع أن أفعله ، هو أن أرافقه فى عربة إلى المكان الذى يقيم فيه ، ثم أعود إلى حيث كنت أقيم .. ولسوف يعرف — فى غده — كيف يتصرف فى مصيره ..

« ومن ثم سألت الرجل الواقف بجوارى ، والذى كان يحملق فى الليل البهيم : « أين تقيم ؟ » .. فقال : « لا مأوى لى .. لقد حضرت الليلة بالذات من (نيس) ، ولا سبيل لأحد أن يرافقنى ! » .. ولم أدرك فى الحال ما كان الرجل يرمى إليه ، ولكننى فهمت فيما بعد أنه كان يظن أننى .. أننى .. أننى من أولئك النسوة اللاتى تحوم أفواجهن حول (الكازينو) فى الليل ، أملا فى الظفر ببعض المال من اللاعبين المحظوظين ، أو ممن لعبت الخمر برءوسهم !

* * *

● « ترى ، كيف كان من الممكن أن يظن غير ذلك ؟.. إن ظنونه لم تبعد كثيراً عن الحقيقة ، فأنا ما زلت أشعر — إذ أروى لك الآن قصتى — بغرابة موقفى فى ذلك الوقت !.. وإلا ، فأية فكرة أخرى كان يمكن أن تراوده ، وقد انتزعته من مقعده ، وجررته معى دون ما حرج أو تردد ؟! .. ما كان هذا فى الحق مسلك سيدة محترمة !..

بيد أن هذا لم يخطر ببالى إذ ذاك ، ولم أفطن — إلا فيما بعد ، وحين فات الأوان — إلى مدى ازدرائه المقذع لى .. ولو كنت أدركت لفورى مغزى كلامه ، ما انطلقت من فمى هذه الألفاظ التى كانت خليقة بأن تدعم ظنونه الخاطئة ، إذ وجدتنى أقول له :

— استأجر الآن حجرة فى فندق ، فليس بوسعك أن تبقى هنا .. يجب أن تعثر لك على مأوى فى الحال !

« وإذ ذاك فقط ، أدركت ظنه الفظيع ، إذ قال فى شىء من السخرية ، ودون أن يلتفت نحوى : « لا ، لست بحاجة إلى غرفة .. لم أعد بحاجة إلى شىء ، فلا تتعبى نفسك .. لا منفعة ترجى منى .. لقد أخطأت الاختيار ، فلست أملك نقوداً ! » .. قال هذه الكلمات فى لهجة بشعة ، وفى استهتار مثير ..

« وكان يبدو — فى وقفته المسترخية وطريقته فى الاعتماد على سياج « الكشك » — مثيراً للاشمئزاز ، إذ كان خائر القوى ، مبتلا حتى عظامه .. وأثار مسلكه فى نفسى ألماً شديداً لم يدع لى وقتاً للإحساس بالإهانة التى وجهها إلىّ فى قحة وحماقة .. كان الشعور الوحيد الذى تملكنى وظل يلازمنى ، هو نفس ذاك الشعور الذى داخلنى حين رأيته يغادر بهو (الكازينو) مترنحاً ، والذى رافقنى طوال تلك الساعة التى لا تخطر ببال .. الشعور بأننى أرى إنساناً — فى عنفوان الشباب ومقتبل الحياة — يسعى إلى الموت ، فمن واجبى أن أنقذه !.. لذلك ما لبثت أن دنوت منه قائلة : « لا تحمل للمال هما ، وتعال !.. إنك لا تستطيع

البقاء هنا طويلا .. سأبحث لك عن مأوى .. لا تقلق ، فما عليك إلا أن تتبعنى ! » .

« وتحرك رأس الشاب فى إيماءة تدل على أنه اقتنع بجوابى ، إذ كان المطر ينهمر حولنا فى عنف محدثاً خريراً عالياً ، وينساب تحت أقدامنا فى غزارة .. وأحسست خلال الظلام بأنه يجاهد كى يتأمل وجهى للمرة الأولى .. وبدا كأن جسمه قد أخذ يستفيق من سباته ، ثم قال :
« ليكن ما تشائين .. كل الأمور تستوى عندى .. لم لا ؟. لننصرف ! » :

« وفتحت مظلتى ، فاقترب منى ، وأنفذ ذراعه تحت ذراعى ، فشعرت بالاشمئزاز من هذا التبسط المفاجىء .. أجل ، أزعجنى إقدامه هذا على رفع الكلفة ، فداخلنى ذعر نفذ إلى أعماق قلبى ، ولكنى لم أجد الجرأة على أن أصد الرجل عن هذه الألفة ، فإن صدى كان كفيلا بأن يرده إلى الهاوية ، فيضيع كل ما بذلت حتى الآن بدداً !

« وسرنا بضع خطوات فى اتجاه (الكازينو) .. وإذ ذاك فقط ، أدركت أننى تورطت معه . ورأيت — بعد تفكير سريع — أن أفضل الحلول هو أن أصحبه إلى فندق ، ثم أضع فى يده بعض النقود ليستطيع أن يدفع أجر غرفته ، وأن يسافر إلى (نيس) .. لم يخطر ببالى قط أى شىء آخر !.. وإذ كانت العربات تمر تباعاً وهى مسرعة ، أمام (الكازينو) ، فقد استدعيت إحداها ، وصعدنا إليها .. وعندما سألنى الحوذى عن مقصدنا ، لم أدر — فى البداية — بماذا أجيبه .. ثم خطر لى بغتة إن هذا الرجل الغارق فى البلل من رأسه إلى قدميه — والذى

كان إلى جوارى — لا يمكن أن يجد ترحيباً فى فندق محترم :. كذلك لم يدر بخلدى قط — لقلة تجربتى — إن من المحتمل أن يرتاب أحد فى أمرى وأنا على ذاك الوضع مع شاب ، فاكتفيت بأن قلت للحوذى :
« إلى أى فندق صغير ! » .

« وألهب الحوذى الغارق فى الماء ظهر جواده بقوة .. أما الأجنبى الذى كان يجلس إلى جوارى ، فقد بقى صامتاً ، بينما أخذت عجلات العربة تقرقع فى سيرها ، والماء يرتطم بنوافذ العربة فى عنف .. وخيل إلى وأنا فى ذلك الحيز الضيق ، المعتم ، أننى برفقة ميت فى تابوت !.. وحاولت أن أفكر .. أن أوفق إلى كلام أخفف به غرابة وقسوة هذه الزمالة الليلية ، ولكنى لم أهتد إلى شىء !.. وإن هى إلا دقائق ، حتى توقفت العربة عن المسير ، فهبطت ، ونقدت الحوذى أجره ، بينما كان الشاب قد هبط وأقفل باب العربة ، والنعاس يغالبه .. ووجدنا نفسينا أمام باب فندق لم أكن أعرفه ، وفوق رأسينا مظلة زجاجية تعلو الباب ، وتقينا المطر الذى كان يتساقط فى استرسال ممل ، فظيع فيشق انسياله الليل البهيم ..

« واستند الشاب إلى الحائط على الرغم منه ، والماء يقطر من قبعته ومن ثيابه المهدلة ، كما لو كان ينساب من ميزاب .. كان كغريق انتشل من اليم ، ولم يسترد بعد رشده تماماً !.. وأخذ الماء يتجمع حول البقعة الصغيرة التى وقف فيها .. على أنه لم يبذل أقل جهد كى يهز نفسه فيخرجها من هذا الخور ، أو ينفض عن قبعته الماء الذى

كان يتقاطر باستمرار على جبهته ووجهه ، بل ظل جامداً فى وقفته .. إننى لأعجز عن أن أصف لك مدى تأثرى لمنظر هذا الإنسان المهدم.. ولكن ، كان لابد من تصرف ينقذ الموقف ، ومن ثم وضعت يدى فى جيبى وقلت له :

— هاك مائة فرنك تدفع منها أجر الغرفة ثم تسافر غداً إلى (نيس).

« فتطلع إلى بدهشة، بينما استطردت قائلة، إذ لاحظت تردده : « لقد كنت أراقبك فى قاعة اللعب ، وعرفت أنك خسرت كل ما معك ، فخشيت أن تقدم على حماقة .. ليس من العار فى شىء أن تقبل معونة .. هيا ، خذ ! » .

« ولكنه دفع يدى بقوة لم أكن أتوقعها منه ، وقال : « إنك فتاة طيبة ، فلا تبعثرى نقودك .. لم يعد هناك ما يمكن عمله لى ، ولم يعد يهمنى إذا حظيت الليلة بمرقد أو لم أحظ !.. فغداً ينتهى كل شىء !.. لم يعد هناك مجال لأمل ! » .. فهتفت فى إصرار : « لا .. يجب أن تقبل هذا المبلغ ، ولسوف يتغير رأيك غداً .. أما الآن ، فادخل الفندق ، وانعم بنوم هادئ.. إن الليل خير صديق تأتمنه على متاعبك. حتى إذا أقبل النهار ، فسوف تجد الأمور على حال تناقض ما يبدو لك الآن ! » .

« وإذ حاولت أن أدس النقود فى يده مرة أخرى، دفعنى ببعض العنف ، مردداً بصوت أجش : « لا جدوى !.. ليس لهذا من نفع !.. من الخير أن أنفذ ما أنا مقدم عليه ، خارج الفندق ، حتى

لا ألطخ حجرة أصحاب هذه الدار بالدم !.. لن تنقذنى مائة فرنك ، ولا ألف فرنك .. لن يكون لما يتبقى من هذه الفرنكات من أثر سوى أن تردنى مرة أخرى إلى (الكازينو) غداً ، فلا أبرحه حتى أخسرها جميعاً .. لماذا أبدأ من جديد ؟.. لقد عانيت ما فيه الكفاية ! » .

« ... ليس بوسعك أن تتصور ما أحدثه ذلك الصوت الأجش من أثر فى نفسى !.. قدر موقفى !.. تصور إنساناً ، شاباً ، ذكياً ، مليئاً بالحياة والصحة ، يقف على بعد خطوتين منك ، وما لم يستخدم المرء معه كل حيلة ، فإن هذا الشاب المزدهر ، المفكر ، المتكلم ، المتهدج الأنفاس ، لن يلبث أن يستحيل إلى جثة هامدة ، فى خلال ساعتين !.. لقد استبدت بى إذ ذاك رغبة جامحة فى أن أذلل إصراره الجنونى ، فأمسكت بذراعه قائلة : «كف عن هذا الهذيان الأخرق !.. ستدخل الفندق وتستأجر غرفة ، وسآتيك صباح غد فأصحبك إلى المحطة .. إذ يجب أن تغادر هذا المكان ، وأن تعود إلى بلدك غداً .. ولن يهدأ لى بال حتى أراك بنفسى وقد ابتعت تذكرة السفر ، واحتللت مكانك فى القطار .. إن الإنسان لا يبدد شبابه بالانتحار لمجرد أنه خسر بضع مئات ، أو بضع آلاف من الفرنكات .. هذا جبن .. إنها نزوة حمقاء من نزوات الغضب والسخط .. ولسوف تتبين بنفسك غداً أننى على حق !

« فقال فى لهجة أفعمت بالسخرية والمرارة إلى درجة غريبة : « غداً !.. غداً !.. ليتك تعلمين أين سأكون غداً !.. بل ليتنى أعلم

ـ أنا نفسى ـ أين أكون غداً !.. الواقع أننى جد مشوق إلى معرفة هذا .. لا ، عودى إلى دارك يا صغيرتى ، ولا تتعبى نفسك ، ولا تبددى مالك ! » .. غير أننى لم أشأ أن أتراجع ، فقد كدت أجن لفرط سخطى وحنقى ، ومن ثم أمسكت يده بعنف ، ودسست فيها الورقة المالية قسراً ، وأنا أقول : « خذ هذه ، وادخل فى الحال » .. وسرت إلى الباب فى حزم ، فضغطت زر الجرس ، وأنا أقول : « ها قد ضغطت الجرس ، ولن يلبث حارس الباب أن يفد ، فتصعد لتنام .. ولسوف تجدنى فى انتظارك أمام الفندق فى الساعة التاسعة غداً ، لأصحبك فوراً إلى المحطة .. ولا تشغل بالك بما يعقب ذلك ، إذ سأدبر لك كل ما يمكنك من العودة إلى بلدك . أما الآن ، فاذهب ، ونم فى هدوء ، ولا تفكر فى أى شىء مطلقاً !

* * *

● « وانبعث صرير المفتاح فى قفل الباب فى تلك اللحظة ، ثم ظهر الحارس .. وإذا بالشاب يقول لى فجأة ، وفى صوت حاد ، حازم ، آمر : « تعالى ! » .

وأحسست بأصابعه الحديدية تطرق معصمى بقوة ، فجزعت .. بل بلغ من فزعى أن تيبست مفاصلى ، وكأنما مستنى صاعقة ، فلم أعد أحس بأنى فى كامل وعيى !.. وأردت أن أذود عن نفسى ، وأن أتملص وأفلت ، غير أن إرادتى تبددت .. ولعلك تفهم موقفى .. كنت .. لقد خجلت ـ أمام حارس الباب ، الذى كان صبره قد

أوشك أن ينفد ـ من أن أشتبك فى نضال مع شخص غريب .. وهكذا .. وهكذا وجدتنى فجأة فى بهو الفندق .. ووددت أن أتكلم .. أن أقول شيئاً .. ولكن صوتى احتبس فى حلقى .. كانت يده تمسك بذراعى فى قوة وجبروت .. وأحسست ، وأنا فى شبه غيبوبة ، بأنه يجرنى ـ دون أن أفطن إلى ما ينبغى أن أفعل ـ إلى أعلى السلم .. ثم سمعت صرير مفتاح ..

« وفجأة ، انتبهت إلى أننى وحيدة مع ذلك الشباب الغريب ، فى حجرة غريبة ، فى فندق مجهول ، لم أعرف اسمه حتى اليوم !!

* * *



الفصل الرابع

● عادت مسز (س .) إلى التوقف عن الحديث .. ونهضت عن مقعدها فجأة ، وقد أحست بصوتها يعصاها ، فاتجهت إلى النافذة ، وراحت تتطلع خلال زجاجها لبضع دقائق ، وهى صامتة .. أو لعلها لم تكن تتطلع ، وإنما استراحت إذ ألصقت جبهتها بزجاج النافذة البارد !.. الواقع أننى لم أجرؤ على أن أتثبت من هذا تماماً ، إذ آلمنى أن أرقب السيدة العجوز وهى فريسة لانفعالاتها .. ولبثت فى مكانى صامتاً ، لا أسأل ، ولا أحدث صوتاً .. ومكثت أنتظر حتى عادت فى خطى هادئة ، وجلست أمامى ، قائلة :

« حسناً .. لقد فرغت من سرد أفظع ما فى القصة .. وأرجو أن تصدقنى إذا أكدت لك مرة أخرى ، وأقسمت بكل مقدس عندى — بشرفى وبحياة أولادى — أنه لم يكن قد خطر ببالى مطلقاً ، حتى تلك اللحظة ، أى خاطر عن احتمال وقوع أية علاقة بدنية بينى وبين هذا الشاب الغريب ، وإنما كنت — بحق — مسلوبة الإرادة .. لقد انزلقت فجأة من حياتى المستقيمة إلى هذا الموقف — دون ما وعى — كمن تعثرت فى شرك !.. لقد أقسمت لك بأن ألتزم الصدق إزاءك ، وإزاء نفسى .. ومع تمسكى بقسمى أؤكد لك للمرة الثانية أننى لم أكن مدفوعة بشىء — على الإطلاق — سوى الرغبة الجامحة فى أن أسدى عوناً ، فلم يداخلنى أى شعور شخصى .. وأكرر لك مرة أخرى أنى تورطت فى هذه المغامرة المخزية دون ما رغبة أو توقع !

وأرجو أن تعفينى من أن أروى لك ما حدث فى تلك الغرفة .. أبداً لم أنس ، ولن أنسى دقيقة واحدة من دقائق تلك الليلة .. كنت فى صراع مع إنسان ، لكى أنقذ حياته !.. أجل ، وأكرر القول بأن الأمر — فى ذلك الصراع — كان متعلقاً بحياة رجل أو موته .. كانت كل جارحة فى كيانى تشعر بإحساس جازم ، لا يشوبه أدنى شك ، بأن ذلك الرجل .. ذلك الغريب — الذى كان إذ ذاك يقف وإحدى قدميه فى العدم — كان أشبه بالغريق الذى يتشبث بآخر قشة ، فى لهفة الإنسان وانفعاله حين يحس بقبضة الموت !.. كان يتعلق بى فى تشبث المرء الذى يرى الهاوية تحت قدميه .. أما أنا ، فقد استجمعت كل قواى . بل كل ما فى كيانى من طاقة ، لكى أنقذه !

إن المرء لا يعيش ساعة كهذه إلا مرة واحدة فى حياته .. وليس كل امرئ يعيشها ، ولكن واحداً من ملايين الناس هو الذى يقع له هذا !.. وما كنت لأعرف ، قبل هذا الحادث الفظيع — ولو على سبيل الحدس — مدى تلك القوة المستميتة ، ولا ذلك السعار الجامح ، اللذين يستعين بهما رجل تخلت عنه الدنيا .. رجل ضائع ، كى يتشبث بأضأل قطرة حمراء من دم الحياة ، للمرة الأخيرة !.. ولما كنت قد قضيت عشرين عاماً بمنأى عن كل ما فى هذا الوجود من قوى الشر ، فقد شق على إذ ذاك أن أتبين الروعة العجيبة ، الخارقة ، التى تحشد الطبيعة بها — أحياناً — فى بضعة أنفاس لاهثة ، كل ما تملك من حرارة وبرودة ، ومن حياة وموت ، ومن هناءة وشقاء !

كانت تلك الليلة مفعمة بالصراع ، والكلام ، والشهوة ، والغضب والحقد ، والدموع ، والضراعة ، والنشوة ، حتى خيل إلى أن هذه الليلة الواحدة دامت ألف عام !.. فهذان الآدميان — هو وأنا — اللذان ترديا ، وانحدرا معاً إلى قرار الهاوية ، يحمل أحدهما فى أعماقه ثورة الموت ، بينما تجرد الآخر من كل إحساس .. هذان الآدميان اللذان خرجا من هذا الصراع وقد تغيرت معالم كل منهما تغيراً تاماً .. خرج كل منهما مختلفاً ، متبايناً كل التباين عما كان .. خرج بروح جديدة ، ومشاعر جديدة !

على أننى لن أتحدث عن تلك الليلة ، فلست أبغى — ولا أنا راغبة — فى أن أكشف عما جرى فيها ، ولو أنه لابد من أن أذكر شيئاً عن تلك الدقيقة الفذة التى استيقظت فيها ، فى صبيحة اليوم التالى .. فلقد صحوت من نوم عميق ثقيل .. من ظلمة حالكة لم يكن لى بها عهد من قبل ، مطلقاً .. واستغرقت وقتاً طويلا حتى استطعت أن أفتح عينى ، فإذا أول ما أرى سقف غرفة مجهولة يعلونى .. ثم تبينت — بعد مزيد من التأمل — أننى كنت فى مكان غريب ، مجهول منى .. مكان كئيب ، لم أدر أى ذنب رمانى فيه .. وجاهدت — فى البداية — كى أقنع نفسى بأننى فى حلم .. حلم جلى ، واضح ، ساقنى إليه ذلك النوم الثقيل ، الملىء بالرؤى المضطربة .. ولكن ضوء الصباح كان يتجلى خلال النوافذ ، وجلبة الطريق تتناهى إلى سمعى : قرقعة العربات ، وأجراس قاطرات الترام ، وأصوات الناس .. فأدركت أننى لم أكن حالمة ، بل مستيقظة .. ورحت أناضل كى أستعيد شتات ذهنى .. وفيما كنت

ألتفت جانباً ، رأيت — ولن أستطيع أن أصف لك الذعر الذى غشينى إذ ذاك — رأيت رجلا مجهولا ، ينام إلى جوارى فى السرير الواسع .. كان غريباً .. غريباً .. غريباً تماماً ! .. رجلا شبه عار ، لا أعرفه !

« لا .. إننى واثقة من ألا سبيل إلى وصف ذلك الذعر الذى استولى على فى عنف ، حتى جعلنى أتهالك فى الفراش مرة أخرى ، جامدة الحراك .. على أننى لم أصب بإغماء حقيقى أفقدنى الرشد ، وإنما — على النقيض — رأيت كل شىء ينجلى لإدراكى بسرعة البرق .. تبينته ، ولكنى لم أدرك له كنهاً .. فإذا بى أتمنى الموت لفرط اشمئزازى واستحيائى من أن أجد نفسى بغتة ، وفى هذا الوضع ، مع مخلوق غريب عنى تماماً ، وفى فراش غريب ، فى فندق وضيع ، وغرفة تثير الشبهات !.. وما زلت إلى اليوم أذكر أن قلبى كف عن الوجيب وأن أنفاسى احتبست ، وكأنما كنت أبغى بذلك أن أضع نهاية لحياتى ولوعيى بوجه خاص .. ذلك الوعى الذى انجلى بدرجة هائلة ، فأدرك كل شىء .. ولكنه مع ذلك لم يفقه لشىء معنى !

ولست أدرى كم من الوقت قضيته فى هذا الوضع ، وقد تيبست أطرافى جميعاً ، كما تتيبس أجساد الموتى فى أكفانها .. فأغمضت عينى ، وتضرعت إلى كل ما فى السماء من قوى — أياً كانت — ألا يكون كل هذا حقيقة .. ولكن حواسى المرهفة لم تدع لى مجالا للارتياب .. إذ كنت أسمع فى الحجرة المجاورة أشخاصاً يتكلمون ، وماء يجرى ، وخطوات فى الردهة .. كلها علامات تؤكد يقظة حواسى .. وصحة ما وعته .. يا للقسوة !

قلت : إنه ليس فى وسعى أن أحدد مدى الوقت الذى استغرقه هذا الموقف الفظيع .. فإن الزمن — فى موقف كهذا — لا يقاس بثوانى الحياة العادية .. ولكن .. ما لبث أن استحوذ على خوف من نوع آخر .. الخوف الجبار ، البشع ، من أن يستيقظ ذلك الغريب — الذى لم أكن أعرف اسمه — فيخاطبنى !.. وأدركت لفورى أن ليس أمامى سوى مخرج واحد .. ذلك هو أن أرتدى ثيابى وأفر قبل أن يستيقظ ذلك الغريب ، حتى لا يرانى ولا أتحدث إليه !.. كان لابد من أن أنجو بنفسى فى الوقت المناسب ، وأن أنصرف .. أن أنصرف لأسترجع حياتى الأصلية — بأية طريقة — ولأعود إلى الفندق الذى أقيم فيه ، ثم أبارح — فى الحال ، وفى أول قطار — هذه البقعة اللعينة .. أن أهجر هذه البلدة كى لا ألتقى بعد ذلك مطلقاً بذلك الرجل ، فلا أرى عينيه ، ولا أرى فيه شاهداً ، وشريكاً ، وقاضياً يديننى !

وتغلبت هذه الفكرة على الجمود الشارد الذى اعترانى ، فتسللت من الفراش — فى حذر وبحركات اللص الحريص — وتناولت ملابسى بأطراف أناملى ، وأنا أتحرك فى احتراس تام حتى لا أحدث صوتاً .. وارتديت ثيابى فى حذر بالغ ، وأنا أخشى أن يستيقظ بين لحظة وأخرى . وما لبثت أن أصبحت على أهبة الخروج وتحقيق غايتى .. لم تبق سوى قبعتى التى كانت فى الجانب الآخر من الفراش .. وسرت على أطراف أصابع قدمى ، أسعى إليها .. وفى تلك اللحظة ، لم أتمالك من أن ألقى نظرة على وجه ذلك الرجل الذى هوى فى حياتى كحجر انفصل بغتة عن حافة بناء .. ولم أكن أبغى أن ألقى عليه سوى نظرة

واحدة ، ولكن .. حدث إذ ذاك أمر عجيب .. تبينت أن الشاب الغريب النائم ، كان غريباً حقاً بالنسبة لى .. فلم أتعرف فى معالمه لأول وهلة على ذلك الوجه الذى رأيته بالأمس ، إذ تلاشت تلك الأسارير المتوترة ، المتشنجة التى كان الانفعال يمسخها .. وإذا أمامى وجه آخر .. وجه صغير .. وجه صبى يتألق — والحق يقال — بالطهر والسذاجة .. وبدت الشفتان ، اللتان كانتا بالأمس متقلصتين بين النواجذ ، وقد انفرجتا عن ابتسامة حالمة ، عذبة .. وتهدلت على جبينه خصلات ناعمة من شعره الأشقر ، بينما تتابعت أنفاسه فى هدوء — وقد سرت الراحة فى جسده — فكأنها موجات وضاءة تنبعث من صدره ..

ولعلك تذكر ما سبق أن قلته من أننى لم أر أبداً فى حياتى علامات الجشع الضارى ، والانفعال العارم ، تتجلى بمثل تلك القوة وذلك العنف اللذين تجلت بهما على وجه ذلك الشاب الغريب ، حين كان جالساً إلى مائدة الميسر .. أما الآن فأقول لك : إننى لم أر قط على وجه ما — ولا وجوه الأطفال الرضع ، التى تحف بها هالات من الرقة الملائكية — مثل ذلك التعبير الذى نم عن طهر صاف ، وعن نعاس هادئ .. كانت كافة المشاعر ترتسم على ذلك الوجه فى روعة لا نظير لها ، كما لو كان يحظى براحة فردوسية .. بتحرر من جميع الهموم النفسية .. بخلاص وتخفف من المتاعب وأسباب الشقاء !

وما أن تراءى لى فى هذا المظهر الرائع ، حتى انجابت عنى كل رهبة ، وانزاح كل قلق ، كما يتزاح المعطف الأسود الثقيل عن



تبينت أن الشاب الغريب النائم ، كان غريبا حقا بالنسبة لى ..

المنكبين .. ولم أعد أشعر باستحياء .. بل إننى — على العكس — أحسست بالسعادة !.. وفجأة ، بدأت أدرك مغزى هذا الحادث المروع ، غير المفهوم بالنسبة لى .. وشعرت بالزهو والغبطة حين تصورت أنه لولا رعايتى ، لكان هذا الشاب اللطيف الجميل — النائم فى وداعة الأزهار — ملقى إلى جوار صخرة ، محطماً ، غارقاً فى الدماء ، وقد تهشم وجهه ، وجحظت عيناه ، وفارقته الحياة !.. لقد أنقذته !. لقد نجا !.. وبعين الأم — ولست أجد تعبيراً آخر — أخذت أتأمل ذلك المراهق النائم ، الذى رددت إليه حياته ، وعانيت فى سبيل ذلك آلاماً تفوق تلك التى عانيتها وأنا أضع ولدىّ عند مولدهما .. وفى تلك الغرفة القذرة ذات الأثاث القديم ، وفى ذاك الفندق الزرى الذى تباح فيه الخلوات الدنسة ، شعرت فجأة بنفس الشعور الذى يداخلنى وأنا فى الكنيسة .. وهو أمر خليق بأن يثير سخريتك ، ولكننى أحسست فى الواقع بتلك الغبطة التى يبعثها اكتمال معجزة خارقة .. أحسست بالطهر والقداسة !!

وتولدت من أفظع لحظة عشتها فى حياتى ، لحظة أخرى صنو لها.: لحظة هى أعجب اللحظات وأشدها وقعاً على نفسى .. ولست أدرى ، هل بدرت منى ضجة ما كان ينبغى أن أحدثها ، أو أننى تكلمت دون أن أعى أو أفطن .. إذ فتح النائم عينيه فجأة ، فجزعت وتراجعت مأخوذة .. أما هو ، فأخذ يتلفت حوله فى دهشة ، تماماً كما فعلت أنا من قبل ، ولاح كمن يخرج بعناء من هوة عميقة هائلة .. وجاس ببصره فى الغرفة الغريبة — فى جهد غير بسيط — ثم استقرت نظراته علىّ فى

دهشة بالغة .. وقبل أن يتمكن من الكلام أو من استجماع شتات ذهنه كنت قد استعدت رباطة جأشى .. وما كان ينبغى أن أدع له فرصة لينطق بكلمة واحدة ، أو ليوجه أى سؤال ، أو يبدى أية ألفة .. إذ يجب ألا يستعاد شىء من أحداث الأمس ، أو يذكر شىء عن تلك الليلة .. لا إيضاح ، ولا مناقشة !

وقلت له : « يجب أن أنصرف .. أما أنت ، فلتبق هنا .. ارتد ثيابك ، وسأنتظرك عند الظهر أمام (الكازينو) ، حيث أدبر لك كل شىء ... » ؛

« وقبل أن ينبس بكلمة واحدة ، كنت قد لذت بالفرار ، حتى لا أرى تلك الغرفة لحظة أخرى ، واندفعت إلى الخارج — غير ملتفتة يمنة ولا يسرة — مغادرة ذلك النزل الذى لم أعرف اسمه ، ولا اسم الغريب الذى قضيت معه ليلة بين جدرانه !

* * *

الفصل الخامس

● أمسكت مدام (س .) عن متابعة قصتها هنيهة ، ريثما تسترد أنفاسها . فلما عادت إلى الحديث ، لم يكن ثمة أثر للألم أو الانفعال فى صوتها .. كانت كالعربة التى تصعد منحدراً ، فتبذل فى صعودها جهداً مضنياً .. ولكن ما أن تصل إلى القمة حتى تأخذ فى هبوط الجانب الآخر من المنحدر ، وعجلاتها تدور مندفعة فى سهولة وسرعة .. الآن أصبح لها جناحان تحلق بهما فى آفاق قصتها ، ومن ثم استأنفت الرواية متخففة مما كانت تعانى من انفعال :

هكذا عدوت إلى فندقى ، مجتازة الشوارع التى غمرها نور الصباح بعد أن طردت العاصفة جميع الغيوم التى كانت متجمعة فى السماء ، كما انقشعت جميع بواعث الألم عن نفسى .. ولا تنس ما سبق أن قصصته عليك من أننى — منذ وفاة زوجى — أصبحت زاهدة فى الحياة كل الزهد .. فإن ولدى لم يكونا بحاجة إلى ، ولم يكن هناك ثمة ما يعنينى أو يثير اهتمامى .. وكل حياة لا ترمى إلى هدف معين تصبح لغواً باطلا !.. ومن ثم فقد وجدت نفسى — للمرة الأولى ، وعلى غير استعداد — منوطة برسالة : لقد أنقذت رجلا وانتزعته من براثن الفناء باذلة فى سبيل ذلك كل قواى .. ولم يبق إلا أن أتغلب على صعوبة هينة باقية ، كى تكتمل رسالتى ..

وحين بلغت فندقى ، حملق حارس الباب فى مشدوهاً ، وهو يرانى أعود إلى الفندق فى الساعة التاسعة صباحاً .. ولكن نظراته لم تثر فى

نفسى حرجاً ، إذ لم تكن قد تبقت فى أعماقى رواسب من الخزى ، والأسى اللذين خالجانى فى البداية ، وإنما شعرت ببعث مفاجئ يحبب إلى الحياة .. أحسست لوجودى بفائدة ، فبعث هذا الإحساس الجديد الدم حاراً متدفقاً فى عروقى !.. وما أن بلغت غرفتى ، حتى بادرت إلى تغيير ثوب الحداد — دون ما تعمد — واستبدلت به ثوباً أزهى .. وسعيت مسرعة إلى المحطة لأستفسر عن مواعيد سفر القطارات .. فعلت ذلك فى حزم أدهشنى من نفسى ، ثم عمدت إلى إنجاز بعض الأعمال ، وإلى الوفاء ببعض مواعيد ، ولم يتبق لى سوى أن أستوثق من أن ذلك الرجل الذى ألقى به القدر إلىّ ، قد نجا نهائياً من الخطر المحدق به وعاد إلى بلاده !

وكنت — والحق يقال — بحاجة إلى شجاعة كى أستطيع الاقتراب منه .. فإن كل ما وقع فى الليلة السابقة ، تم فى الظلام .. كنا كحجرين ألقى بهما فى دوامة . فاصطدما معاً أثناء سقوطهما !.. لم يكن أحد منا ليعرف وجه الآخر تقريباً .. بل إننى لم أكن واثقة من أن ذلك الأجنبى سيتمكن من معرفتى ، فإن ما حدث أمس كان محض مصادفة .. نشوة عابرة .. نزوة شيطانية استبدت بمخلوقين مشردين . أما اليوم ، فقد كنت مضطرة لأن أظهر أمامه فى مظهر أوضح ، إذ كنت مكرهة على الدنو منه ، ومن ثم فسوف يرى وجهى — كآدمية — فى ضوء النهار الذى لا يشفق ولا يستر !

* * *

● « على أن الأمر تم بسهولة تفوق ما كنت أظن ، فما أن دنوت من

(الكازينو) فى الساعة المتفق عليها ، حتى رأيت شاباً ينهض عن مقعد ، ويعدو نحوى .. وكان الشعور الذى اعتراه إذ فوجئ برؤيتى والحركات التى صدرت عنه عفواً ، تصطبغ بصبغة صبيانية ، ساذجة ، سعيدة معبرة !.. وأقبل نحوى وكأنه يوشك أن يطير ، وفى عينيه وميض ينم عن اغتباط ، وعرفان بالجميل ، واحترام .. فى آن واحد !.. وما أن تطلع إلى فرأى فى عينى ذلك الاضطراب الذى اعترانى إذ واجهته ، حتى أطرق إلى الأرض فى وداعة .. آه !.. عرفان الصنيع !.. ما أندر ما نراه فى الرجال !.. إن أكثر الناس تقديراً للجميل لا يوفقون إلى التعبير عنه كما ينبغى .. فهم يصمتون ، ويرتج عليهم القول ، ويحسون بالخجل ، ويتولاهم رد فعل ينتج عنه ذلك الارتباك الذى يدفعهم إلى إخفاء حقيقة مشاعرهم .. أما هنا ، ولدى هذا المخلوق الذى أضفى عليه الله — المثال الأعظم — جميع الحركات التى تعبر عن مشاعره أدق وأجمل وأرشق تعبير ، فإن عرفانه بالصنيع كان ينبعث دافقاً ، وضاء من كل ذرة فى كيانه !

ومال على يدى ، وانحنى خاشعاً برأسه الصغير الذى يشبه رأس طفل ، وأخذ يلثم أصابع يدى ويلمسها بشفتيه لمساً رقيقاً ، لدقيقة كاملة .. ثم تراجع وسألنى عن صحتى وهو ينظر إلى فى حنان ، وقد تجلى الأدب فى كل كلمة من كلماته ، فلم تنقض بضع دقائق حتى زال عنى كل إحساس بالقلق أو الخوف !.. وكأنما انعكست حالتى المعنوية المبتهجة على الطبيعة المحيطة بنا ، فخلعت عليها إشراقاً ، وسناء ، وهدوءاً .. فإذا البحر — الذى كان فى الليلة الماضية ثائراً — قد غدا

وادعاً ، ساكناً ، صافياً ، حتى لقد كان بوسعنا أن نرى من مكاننا كل حجر تحت المياه الضحلة عند الشاطئ .. أما (الكازينو) – تلك البؤرة الجهنمية – فقد علا شاهقاً نحو السماء الصافية الزرقاء .. واستحال (الكشك) – الذى احتمينا بمظلته من المطر المتدفق ؛ وكل منا ملتصق بالآخر – إلى متجر زاخر بكميات كبيرة من الأزهار البيضاء ، والحمراء ، وذات الألوان المتعددة .. تناثرت هنا وهناك دون ما ترتيب .. كما كان يضم طاقات كبيرة من الورد والأغصان الخضراء ، وقد تولت البيع فتاة صغيرة فى مرولة زاهية اللون ..

ودعوت الشاب الغريب إلى الغداء فى مطعم صغير .. وهناك ، روى لى قصة مغامرته المفجعة ، فكانت بمثابة تأكيد لما ساورنى نحوه حين رأيته يجلس إلى المائدة الخضراء ، ويداه ترتعشان وتضطربان فى انفعال قوى ..

« كان ينتمى إلى أسرة عريقة المحتد فى بولندا النمسوية ، ويتأهب للانخراط فى السلك السياسى بعد أن أنهى دراسته فى (فيينا) بتفوق منقطع النظير ، إذ كان الأول فى امتحاناته التى اجتازها فى الشهر الماضى .. وكان يقيم عند عم له كان ضابطاً من ضباط القيادة .. وقد رأى عمه أن يحتفل بنجاحه فاصطحبه فى عربة إلى حديقة الملاهى ، وساحة سباق الخيل ، وحالف الحظ عمه فى المراهنة على الجياد ، فكسب ثلاث مرات متوالية .. وتسلم الاثنان حزمة كبيرة من أوراق النقد التى ربحها العم ، ثم تناولا عشاءهما فى مطعم فخم ..

وأرسل إليه أبوه – فى اليوم التالى – مكافأة جزاء نجاحه .. مبلغاً

من المال يوازى مرتب شهر للدبلوماسى المرتقب !.. وكان هذا المبلغ يبدو له – منذ يومين فقط – ثروة ضخمة .. أما بعد السهولة التى رآها فى الربح عن طريق المقامرة ، فقد بدا المبلغ تافهاً ، ضئيلا .. لذلك لم يكد يفرغ من الغداء – فى اليوم التالى – حتى توجه إلى ميدان السباق ، واندفع يراهن فى تهور .. وشاء له حسن الحظ – أو لعله سوء الحظ – أن يغادر ساحة السباق بعد الشوط الأخير ، وقد ربح ثلاثة أضعاف ما كان معه !

ومنذ ذلك اليوم استبد به سعار المقامرة ، تارة فى سباق الخيل ، وأخرى فى المقاهى ، وأحياناً فى المنتديات .. واستولى على وقته ، ودراساته ، وأعصابه ، وموارده .. فغدا عاجزاً عن التفكير المطمئن والنوم الهادئ .. كما أصبح أكثر عجزاً عن كبح جماح نفسه .. حتى لقد حدث أن عاد ذات ليلة إلى بيته بعد أن فقد كل ما كان يملك ، فى أحد المنتديات .. وفيما كان يخلع ثيابه ، عثر على ورقة مالية مجعدة ، منسية فى أحد جيوب صديريه ، فلم يقو على مقاومة نزوته ، ومن ثم عاد يرتدى ثيابه من جديد ، وانطلق يجوس خلال الشوارع ، ذات اليمين وذات اليسار ، حتى عثر فى أحد المقاهى على لاعب عابر من لاعبى « الدومينو » ، ظل يلاعبه حتى مطلع الفجر !!

* * *

● وتطوعت أخته – التى كانت متزوجة – بمساعدته يوماً ، فدفعت عنه الديون التى تراكمت عليه للمرابين الذين كانوا قد تهافتوا على إقراضه ، اطمئناناً إلى أنه وارث اسم كبير .. وحالفه الحظ وربحاً

من الزمن ، ولكن النحس لم يلبث أن لازمه باستمرار .. وكان كلما ازدادت خسائره وعجزه عن سدادها ، تورط فى تعهدات لا سبيل له إلى الوفاء بها ، ووعود لا حيلة له فى البر بها ، فلم يزده هذا إلا جرياً وراء كسب كبير ينقذ به الموقف .. وكان قد رهن ساعته وملابسه منذ وقت طويل ، فانتهى به الأمر إلى الإقدام على عمل منكر ، إذ سرق من زوجة عمه زرين كبيرين مرصعين بالأحجار الكريمة ، كانت تحتفظ بهما فى خزانتها ، ولا تستخدمهما فى زينتها إلا نادراً .. ورهن أحدهما لقاء مبلغ ضخم لعب به ، فربح أربعة أمثاله فى نفس الليلة .. وبدلا من أن ينسحب من اللعب قانعاً ، أقدم على المجازفة بكل ماربح .. فخسر !

ولم تكن السرقة قد اكتشفت بعد ، حين اعتزم الرحيل ، فرهن الزر الثانى ، ويمم لتوه شطر (مونت كارلو) ، أملا فى أن يربح فى « الروليت » الثروة التى كان يحلم بها ! ولكن الأمر انتهى به — هناك ، وفى نفس يوم وصوله — إلى أن يبيع حقيبة ثيابه ، وثيابه .. وأخيراً مظلته ! .. ولم يبق معه إلا مسدسه الذى كان يحتوى على أربع رصاصات ، وصليب صغير مرصع بالأحجار الكريمة ، كان هدية قدمتها له — عند تعميده — « إشبينته » ، وهى أميرة (......) . وكان يحرص على هذا الصليب ، لكنه ما لبث أن باعه بعد الظهر بخمسين فرنكاً ، لا لغرض سوى أن يحاول — فى الليلة ذاتها — أن يتذوق للمرة الأخيرة تلك اللذة الجامعة التى يستشعرها وهو يقامر .. وكان فى هذه المرة يقامر على حياة .. أو موت !

روى لى الشاب هذا وقد تركزت فى كيانه فتنة أخاذة كانت تبعث حيوية فى الكائنات ! .. وكنت أصغى إليه متأثرة ، مضطربة ، مأخوذة بقصته المثيرة . إلا أنه لم يدر بخلدى لحظة واحدة أن وجودى على مائدة واحدة مع رجل — كان فى الواقع لصاً برغم جميع الاعتبارات — يعتبر أمراً مخجلا ولو أن إنساناً ذكر لى فى اليوم السابق — ولو عرضاً — أننى ، وأنا السيدة التى لا غبار على ماضيها ، والتى تتلقى من المجتمع احتراماً تقليدياً كاملا ، قد أجلس يوماً فى غير كلفة إلى جوار شاب غريب عنى تماماً ، يكاد يعادل ابنى فى العمر ، فضلا عن أنه سرق أحجاراً كريمة .. أقول .. لو حدث أن ذكر لى أحد أن هذا قد يصادفنى ، لاعتبرته مخبولا يهذى !

ومع ذلك ، فلم أشعر نحو الشاب — ولو للحظة واحدة — بنفور أو استنكار ، وهو يروى لى قصته . فقد كان يسردها ببساطة وتدفق ، حتى ليخيل لسامعه أن الفعلة التى ارتكبها إنما جاءت نتيجة إصابته بالحمى أكثر مما هى جريمة فاضحة .. ثم إن شخصاً مثلى ، واجه فى الليلة السابقة أحداثاً غير متوقعة تدفقت عليه كالشلال ، كانت كلمة « مستحيل » قد فقدت فى نظره — فجأة — معناها .. وقد كان مااكتسبته خلال الساعات العشرين الأخيرة من اختبارات ، فى صميم حقائق الحياة ، يفوق كثيراً كل ما اكتسبت فى الأربعين عاماً التى قضيتها فى حياة متحفظة !

على أن شيئاً ما فى اعترافاته أخافنى .. شيئاً تمثل فى هذا البريق المحموم الذى كان ينبعث من عينيه ، فتنتفض له جميع عضلات وجهه ،

كأن بها مساً كهربائياً ! .. وكان مجرد السرد كافياً لاستثارته — كلما تحدث عن تعلقه باللعب — فإذا ملامح وجهه تفصح ، فى وضوح فظيع ، عن الفرح والألم اللذين كانا يتعاقبان فى أطواء نفسه .. وكانت يداه — اليدان البديعتان ، العصبيتان ، الرشيقتا الحركة — تتحولان خلال ذلك ، وعلى الرغم منه ، إلى مخلوقين وحشيين ، مجنونين ، جامحين .. تماماً كما كانتا تبدوان على مائدة اللعب . وكنت أرقبهما — خلال انهماكه فى رواية القصة — وهما ترتجفان فجأة ، وتلتويان ، وتتلقصان فى انقباض يعقبه انبساط ، ثم تنقض الواحدة منهما على الأخرى من جديد .. وفى اللحظة التى اعترف فيها بسرقة الزرين ، أخذت يداه تتحركان بشكل جعلنى أنتفض جزعاً ، إذ راحتا تقلدان فى حركات وثابة ، سريعة ، حركات اللصوص ، حتى لقد رأيت أمامى كيف اندفعت أصابعه فى جشع جنونى نحو الحلية — الزر — وواريتها بقوة فى قبضة اليد !.. وعرفت — وقد استحوذ علىّ فزع غامض — أن انفعالات ذلك الرجل كانت تسرى فى كل قطرة من دمه مسرى السم الزعاف . وكان أشد ما استثارنى وأفزعنى — فى قصته — هو أن تكون لدى هذا الشاب الصافى النفس ، المرح ، مثل هذه النزعة الجنونية !

وشعرت بأن أول واجب علىّ ، هو أن أقنع — فى ود وصداقة — ذلك الشاب الذى ألقته المصادفات فى حمايتى ، بأن يغادر (مونت كارلو) فى الحال ، لما فيها من إغراء شديد الخطورة .. كان لابد من أن يسافر — فى نفس اليوم — عائداً إلى أسرته ، قبل أن تكتشف سرقة الزرين ويتهدم مستقبله إلى الأبد . ووعدته بأن أمده بالمال اللازم لرحلته ،

ولتخليص الحليتين من الرهن ، على شريطة أن يغادر المدينة فى اليوم ذاته ، وأن يقسم بشرفه ألا يمس بعد اليوم ورقة من أوراق اللعب ، ولا أن يشترك بعد اليوم فى لعبة من ألعاب الميسر !

* * *

● ولن أنسى — ما حييت — اعترافه بجميلى .. هذا الاعتراف الذى بدأ هادئاً ، ثم أخذ يذكو شيئاً فشيئاً ، فى نفس ذلك الرجل المضيع .. لن أنسى قط الطريقة التى كان يتلقف بها كلامى وأنا أعده بالمساعدة :. فقد مد يديه فجأة إلى المائدة يمسك بيدى ، فى حركة ستبقى دوماً محفورة فى نفسى .. حركة تنم عن عبادة وتقديس لشخصى ! .. وترقرقت الدموع فى عينيه الصافيتين اللتين كانتا — حتى ذاك الوقت — شاردتين .. واستولت على جسده رعدة عصبية من الانفعال والسعادة ..

ولقد حاولت عدة مرات أن أصف لك التعبير المنقطع النظير الذى تجلى على وجهه وتصرفاته .. ولكن ليس فى مقدورى أن أرسم لك صورة حقيقية لتلك الحركة التى صدرت منه ، والتى كانت تنم عن سعادة مومضة فى بريق يخطف البصر .. سعادة لايرى الإنسان لها مثيلا .. سعادة لا تقارن إلا بذلك الطيف الأبيض الذى يخيل للحالم أنه لمحه فى نهاية حلم رأى نفسه فيه أمام وجه ملاك يتوارى .. ولكن ، لماذا أخفى الحقيقة ؟ .. إننى لم أستطع مقاومة مافى ذلك المنظر من روعة .. إن العرفان بالجميل يبعث على السعادة ، فهو تعبير يندر رؤيته متجسماً ! .. والرقة تملأ النفس إشراقاً .. وقد كان مثل هذا الشعور — بالنسبة لى — أنا الرزينة ، الرصينة — شيئاً جديداً ، عذباً ، يبعث فى النفس راحة ..

وتراءت لى الطبيعة — بعد مطر أمس الدافق — وكأن يداً سحرية قد فتحت أكمامها ، كما تفتحت لى نفس ذاك الشباب الذى كان فى اليوم السابق مرتجفاً ، مهدماً ! .

وحين غادرنا المطعم ، كان البحر الهادئ يتألق فى روعة ، وقد صبغته زرقة اتصلت عند أطرافه الشاسعة بزرقة السماء ، لايشوبها سوى نقط سوداء تمثل الطيور المحلقة فى عنان السماء .. ولعلك تعرف روعة مناظر الطبيعة فى (الريفييرا) .. إنها دائماً تملأ النفس شعوراً بالجمال ولكنه شعور غير مستساغ .. إنها كالبطاقة المصورة ، تبدو ألوانها الثقيلة للعين ، دائماً ، فى ميوعة الحسناء التى يغالبها النعاس .. فهى تستلقى خاملة ، تجتذب الأنظار دون ما قصد منها ، ويسودها — فى وحدتها المدللة — طابع شرقى مثير !

على أن الحرارة قد تدب فى هذا الجمال — فى أحوال نادرة — فتكشف بجلاء وقوة عن ألوانه الزاهية ، الأخاذة ، البراقة ، فلا تشعر إلا وهو يسكب فى أحاسيسك بهاءه المنمق !

* * *

● وكان ذلك اليوم من الأيام المفعمة بالأحاسيس المرهفة ، كما يحدث عادة عقب القلق الطاغى الذى يستولى على المرء فى ليلة عاصفة ! .. وكان الشارع الذى غسلته مياه الأمطار يلمع فى بهاء ، وقد اصطبغت السماء بأرجوانية الشفق .. وحيثما قلبت الطرف فى الطبيعة الخضراء ، المنداة بالمطر ، رأيت طاقات من الورد الزاهى ذى الألوان المشرقة .. وتبدت الجبال أكثر وضوحاً ، وقد زادها الجو الصافى السابح فى

أشعة الشمس اقتراباً ، فكأنها تجمعت وتقدمت قدر المستطاع من المدينة البهيجة .. كانت الطبيعة تفرض عليك ، مع كل نظرة ، مزيداً من إغرائها المثير ، فتستحوذ على قلبك ، على الرغم منك .

وقلت للشاب : « لنستقل عربة تنطلق بنا فى نزهة على الكورنيش ! »

فأومأ الشاب برأسه ، وقد بدا أن جمال الطبيعة استغرقه .. فما كان قد رأى — منذ وصوله — سوى قاعة اللعب فى « الكازينو » .. تلك القاعة ذات الجو الثقيل ، المشحون ، الذى تخالطه رائحة العرق ، والتى تشيع فيها ضوضاء أولئك الآدميين ذوى الوجوه العابسة ، المكفهرة .. لم يكن قد رأى منذ وصوله سوى تلك القاعة ، وذلك البحر القاتم ، العكر ، الثائر ، الذى تراءى له بالأمس .. أما الآن ، فقد كان يترامى أمامنا الشاطئ الطويل المنبسط ، الغارق فى أشعة الشمس .. وكانت العين تنتقل من أفق إلى أفق ، فى ابتهاج وغبطة ..

وانطلقت بنا العربة البطيئة — إذ لم تكن السيارات قد ظهرت بعد — فى الطريق البديع ، مارة بعدد كبير من (الفيلات) ، وبجماعات زاخرة من الناس .. وكلما مررنا ببيت — أو (فيلا) مستلقية فى أحضان الظلال الوارفة — شعرنا ، مائة مرة ، بتلك الرغبة الخفية التى توقظها هذه المناظر فى النفس .. ألا ما أجمل الحياة هناك .. فى دعة ، ورضى ، ونأى عن الناس !

أفكانت هناك سعادة تفوق سعادتى فى تلك الساعة ؟.. كان إلى جوارى — فى العربة — شاب ، كانت مخالب القدر والموت مطبقة عليه بالأمس ، فأصبح اليوم محوطاً بهالات من أشعة الشمس الساطعة ، وبدا

كأنه استرد من عمره بضع سنوات ، أو كأنه ارتد صبياً جميلا يلعب ، وتفيض عيناه بوميض متألق ، وباحترام مهذب فى وقت واحد ! .. لم أشعر قط بمثل تلك السعادة التى داخلتنى وهو يضفى على احترامه الفياض ، ويبدى مثل تلك اليقظة التى كانت تدفعه – إذا ما رأى الجواد عاجزاً عن أن يصعد منحدراً – إلى أن يقفز فى خفة ، ويدفع العربة من خلف .. وكنت لا أكاد أنطق باسم زهرة ، أو أشير بيدى إلى وردة – فى الطريق – حتى يبادر باقتطافها وتقديمها لى .. ووقع بصره على ضفدع صغير ، طوحت به الأنواء فى الليلة السالفة وسط الحشائش الخضراء ، فتناوله بحذر ، ونحاه عن طريق العربة حتى لاتسحقه .. وهو – فى هذه الأثناء – يروى لى أقاصيص مسلية ، طريفة ، فى لباقة بارعة ..

وخيل إلى أن ضحكته كانت وسيلة يشغل بها نفسه عن تصرفات أخرى ، إذ كان فى بعض الأوقات لا يتمالك أن يغنى ، أو أن يقفز ، أو أن يقدم على تصرف أحمق يثير الضحك .. وكانت تصرفاته الفجائية هذه ، تطفح بالغبطة والحبور !

وبينما كانت العربة تجتاز بنا – فى تمهلها – مرتفعاً صغيراً ، إذا به يرفع قبعته فجأة ، فدهشت .. ترى منذا الذى خصه بالتحية وهو غريب وسط أغراب ؟ .. وإذ سألته ، تضرجت وجنتاه ، وقال – وكأنه يعتذر عن تصرفه – إننا قد مررنا فى طريقنا بكنيسة ، وإن القوم فى بولندا درجوا – كما درجت كل البلاد المتمسكة بالمذهب

الكاثوليكى – على رفع القبعات عن الرءوس أمام الكنائس والمعابد ! .. وهزنى هذا الاحترام التقى الذى أبداه إزاء الأماكن المقدسة ، وتذكرت ذلك الصليب الذى حدثنى عنه ، فسألته عما إذا كان مؤمناً .. وإذ ذاك سرت فى وجهه حمرة خفيفة ، واعترف لى فى شىء من الخجل بأنه يتمنى أن يتناول القربان المقدس ، فصحت فى الحوذى : « قف ! » .. وأسرعت إلى مغادرة العربة ، فتبعنى فى دهشة ، وهو يقول : « إلى أين سنذهب ؟ » ، فأجبت فى اقتضاب : « تعال معى ! » .

واتجهت به صوب الكنيسة .. كانت من معابد الريف الصغيرة ، وقد شيدت من الطوب ، وطليت جدرانها الداخلية بالجير ، فبدت قاتمة .. وكان الباب مفتوحاً ، ينساب منه شعاع مخروطى الشكل ، أصفر اللون ، يشق الظلام ويحيط المذبح الصغير بهالة زرقاء .. وكانت ثمة شمعتان ترسلان نوراً باهتاً خلال تلك العتمة المشبعة بعبير البخور المحترق ..

ودخلنا ، فرفع قبعته ، وغمس يده فى وعاء الماء المقدس ، ورسم إشارة الصليب ، وثنى ركبته .. وما أن انتصب معتدلا ، حتى أمسكت بذراعه ، وقلت له فى حزم : « تقدم إلى المذبح ، أو إلى أية صورة من هذه الصور المقدسة ، وردد خلفى هذا القسم الذى سأتلوه عليك ! » .. فتطلع إلىّ فى ذهول مشوب بشىء من الرهبة ! .. ولكنه لم يكد يدرك مقصدى حتى دنا من فجوة قام فيها تمثال ، فرسم إشارة الصليب ، وركع فى خشوع .. وإذ ذاك قلت وأنا ارتجف لفرط التأثر : « ردد بعدى ما سوف أقول .. أقسم » ، فقال : « أقسم ! » ، فمضيت :

« إنى لن أشترك مطلقاً فى أية لعبة من ألعاب القمار ، أياً كان نوعها ، ولن أعرض حياتى وشرفى لأخطار هذه النزوة .. » !

فكرر أقوالى وهو ينتفض .. كررها بصوت واضح دوى صداه فى الفراغ الواسع المحيط بنا .. وأعقبت ذلك لحظة خيم فيها على المكان صمت شامل ، حتى لقد كنا نسمع حفيف الأشجار التى كان الهواء يداعب أوراقها فى الخارج .. وفجأة ، انحنى خاشعاً كأنه مذنب أثقلته الخطيئة ، وانطلق ــ فى نوبة من التقوى العميقة لم أعهدها منه ــ ينطق بكلمات سريعة ، متماسكة ، باللغة البولندية التى لم أكن أعرفها .. ولعلها كانت صلاة حارة .. صلاة شكر وندم ، إذ كان أثناء التمتمة يحنى رأسه فى ورع على حاجز الهيكل ، وهو يردد الكلمات الغريبة بحرارة .. ولاحظت بينها كلمة معينة ، تتكرر باستمرار ، وفى حماسة غريبة .. ما سمعت يوماً من قبل ــ ولا فيما بعد ــ صلاة تتلى فى أية كنيسة من كنائس العالم بمثل هذا الورع ! .. كانت يداه تتشبثان بالحاجز الخشبى للهيكل فى قوة ، وجسده ينتفض ، كما لو كانت فى أعماقه عاصفة هوجاء ، أخذت تدفعه ــ فى بعض الأحيان ــ إلى الوقوف فجأة ، ثم لا تلبث أن ترده إلى ركوعه ، فى استغراق عميق ، لم يعد يرى أو يسمع شيئاً خلاله ! .. كأنما كانت كل جارحة فى نفسه قد غابت فى عالم آخر .. فى مطهر .. أو كأنما صعد كل حس فيه إلى ملكوت من القداسة ، بقفزة واحدة !!

وما لبث أن نهض متباطئاً ــ فى النهاية ــ فرسم إشارة الصليب مرة أخرى ، وتلفت حوله بعناء ، وقد ارتجفت ركبتاه ، وشحب وجهه

كإنسان استنزفت قواه عن آخرها .. ولكن ، ما أن وقع بصره علىّ ، حتى أومضت عيناه ، وارتسمت على وجهه المنحنى ابتسامة صافية أضاءت أساريره ، ثم انحنى أمامى انحناءة كبيرة ــ على الطريقة السلافية ــ وتناول يدى باحترام ، فلثمها بأطراف شفتيه فى توقير ، وقال : « لقد أرسلك الله لى ، ولهذا شكرته على صنيعه ! » .

« ولم أدر ماذا أقول ، ولكنى تمنيت إذ ذاك لو أن الأرغن أرسل أنغامه فجأة من أعلى الشرفة الصغيرة ، إذ أيقنت بأننى أفلحت فى كل شىء .. وأنقذت هذا الرجل إلى الأبد ! » .

* * *

● وبارحنا الكنيسة لنعود إلى النور المشرق الزاهى ، الذى امتاز به ذلك اليوم من أيام شهر مايو . ما رأيت العالم من قبل فى مثل هــذا الجمال ! .. وظللنا ساعتين والعربة تخطر بنا على مهل ، حتى بلغنا قمة الجبل ، حيث كان الطريق الممهد يتيح لنا ــ فى كل منعطف ــ منظراً جديداً . ولكننا لم ننبس ببنت شفة .. فإن كل قول كان خليقاً بأن يبدو ركيكاً وفارغاً ، بعد ذلك الخشوع الذى ملك المشاعر .. وكنت أجدنى مضطرة إلى أن أشيح بوجهى فى ارتباك ، إذا التقى بصره ببصرى ! .. كان شعورى ــ إذ رأيت أن معجزتى قد تمت ــ أقوى مما احتمل !

وعدنا إلى (مونت كارلو) فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر .. وكنت على موعد ــ لا سبيل للتخلف عنه ــ مع بعض الأقارب .. والحق أنى كنت أصبو إلى فترة من الهدوء ، أخفف فيها من عواطفى

التى طغت فى تلك اللحظات :. فقد كانت سعادتى أكثر مما أحتمل ، ومن ثم أحسست بأننى فى حاجة إلى أن أنفس بعض النشوة والانفعال البالغين اللذين استحوذا على كيانى بقوة لم أعرف لها فى حياتى كلها مثيلا !.. لذلك طلبت من الشاب – الذى أحطته برعايتى – أن يصحبنى إلى الفندق لبرهة وجيزة .. وفى حجرتى ، أعطيته المبلغ اللازم لنفقات رحلته ، ولتخليص الحلية المسروقة من الرهن ، واتفقنا على أن يتجه إلى المحطة ، فيبتاع تذكرة السفر ، بينما أفى بالموعد الذى كنت مرتبطة به ، ثم نعود فنلتقى فى الساعة السابعة مساء ، لنقضى فى المحطة نصف الساعة السابق على موعد تحرك القطار الذى يقله إلى وطنه ، عن طريق (جنوا) . ولكن حين أردت أن أقدم له الورقات المالية الخمس ، اكتست شفتاه بصفرة غريبة ، وهتف : « لا .. لا نقود !» : ونطق بهذه العبارة متلعثماً ، بينما كانت أصابعه المرتعشة ، ترتد إلى الوراء بانفعال واضطراب ، وهو يكرر : « لا نقود :. لا نقود .. لا أستطيع أن أرى نقوداً ! »

وأخذ يردد هذه العبارة وقد بدا كأن الخوف والاشمئزاز قد استوليا على كيانه .. غير أننى هدأت من روعه قائلة : إن هذا لم يكن أكثر من قرض ، وأن بوسعه أن يكتب لى إيصالا بالمبلغ ، إذا كان يحس بأى حرج ، فقال : « نعم .. نعم .. إيصال ! » :. تمتم بهذه العبارة وهو يشيح ببصره عنى ، ثم فرك أوراق النقد كأنها شىء لزج تتسخ أصابعه من لمسه ، ودسها فى جيبه دون أن ينظر إليها .. ثم كتب على قصاصة من الورق بضع كلمات بخط متعجل :. وعندما رفع

رأسه ، كان جبينه مندى بعرق كثيف ، كما لو كانت نفسه مسرحاً لشعور يكافح للانطلاق .. وما أن تناولت الورقة منه ، حتى استولت على كيانه رجفة ، ثم جثا فجأة – وإذ ذاك تراجعت مذعورة على الرغم منى – فقبل طرف ثوبى :. كانت حركة تجل عن الوصف . وبعث انفعاله المنقطع النظير رعشة أخذت تتنقل فى أوصالى ، ثم استبدت بجسمى قشعريرة غريبة ، وتملكنى الاضطراب ، فلم أملك سوى أن أتمتم بهذه الكلمات : « أشكر لك هذا العرفان البالغ بالجميل .. ولكن عفواً .. لنفترق الآن !.. ولنلتق فى الساعة السابعة – مساء – فى فناء المحطة ، لنتبادل الوداع :. »

ورمقنى وفى عينيه بريق حنون ، فظننت أنه يريد أن يقول شيئاً .. وخيل إلى أنه يريد الاقتراب منى ، ولكنه انحنى فجأة انحناءة كبيرة.. جداً :: وغادر المكان ! »

* * *



الفصل السادس

● توقفت مسز (س .) — مرة أخرى — عن متابعة قصتها ونهضت إلى النافذة ، فسرحت نظرها خلالها إلى الخارج .. وبقيت فى وقفتها فترة طويلة بلا حراك، ثم لاحظت أن ثمة رجفة قد اعترتها وهى توليني ظهرها .. وفجأة ، عادت فى رزانة .. وصدرت من يديها — اللتين كانتا ساكنتين حتى تلك اللحظة — حركة عنيفة ، حاسمة ، وكأنهما تقطعان شيئاً ما ، ثم نظرت إلى بحدة — بل فى شىء من الجرأة — وهى تعاود الحديث قائلة :

« لقد وعدتك بأن أكون غاية فى الصراحة .. ولكن تبينت الآن أن هذا الوعد كان ضرورياً ، لأننى أدرك الآن — وأنا أكافح مع نفسى لأصف لك ، للمرة الأولى ، تلك الساعة بتسلسل منتظم .. وأنا أبحث عن الكلمات الدقيقة التى أعبر بها عن شعور كان حتى ذلك الوقت منطوياً ، ومضطرباً ، فى نفسى — أدرك الآن بجلاء أموراً كثيرة لم أكن أدركها ، أو — بالأحرى — لم أكن أود أن أدركها من قبل .. لهذا كله أحب أن أقول لك — ولنفسى أيضاً — الحقيقة ، فى شجاعة وعزم ... » .

وبعد ، ففى تلك الساعة التى غادر الشاب فيها غرفتى وتركنى وحدى ، شعرت ، وأنا فى شبه غيبوبة شاملة ، بضربة قوية تصيب قلبى .. كأنما طعننى شىء ما فخلف ألماً قاتلا .. ولم أدر — أو لعلنى

أبيت أن أدرى — كيف كانت التصرفات المشبعة بالود والاحترام — التى أبداها الشاب نحوى — طعنة أصابتنى فى الصميم .. على أننى اليوم ، وأنا أناضل لأنتزع أحداث الماضى من قرارة نفسى فى نظام وعزم ، كما لو كان هذا الماضى غريباً عنى .. اليوم ، وقد أصبح من المتعذر — بعد حضورك إلى هنا — أن أخفى الحقائق ، أو أن ألتمس عذراً لتبرير عاطفة مخزية .. اليوم ، أرانى أدرك باعث ذلك الألم ، فى وضوح تام .. كان مبعث ألمى إذ ذاك هو : خيبة الأمل .. الخيبة التى اعترتنى وأنا أرى ذلك الشاب ينصرف فى هدوء وانصياع ، دون أية محاولة للاحتفاظ بى ، أو البقاء معى .. أن أراه يطيع — فى استكانة وتوقير — أول طلب أناشده به أن يرحل .. بدلا من أن .. يحاول اجتذابى إليه بقوة !.. أن أراه يجلنى ويوقرنى كقديسة ظهرت له فى طريقه .. وأن أتبين أنه .. أنه لم يشعر بوجودى كامرأة !!

كان هذا مخيباً لآمالى .. خيبة لم أجهر بها لنفسى إذ ذاك ، ولا فيما بعد ، ولكننى شعرت بها .. فإن شعور المرأة يلم بكل شىء دون إفصاح ودون وعى لحقيقته تماماً .. أما الآن ، فلم أعد عاجزة عن فهم نفسى : لو أن ذلك الرجل تشبث بى وسألنى أن أتبعه ، لذهبت معه إلى آخر أطراف العالم، وللطخت اسمى ولقب ولدى دون أن أكترث بكلام الناس أو أصغى إلى ضميرى ! .. كنت أهرب معه كما هربت (هنرييت) هذه مع الشاب الفرنسى الذى لم تكن تعرفه حتى مساء الليلة السابقة على هربهما .. ما كنت إذ ذاك لأسأله إلى أين أذهب ، ولا إلى متى أبقى .. ما كنت لألقى نظرة واحدة إلى الوراء .. إلى حياتى

الماضية ، وإنما كنت أضحى لهذا الرجل بمالى ، واسمى ، وثروتى ، وشرفى .. بل كنت أستجدى من أجله ، ولا أتعفف عن أخس دناءة فى العالم يدفعنى إلى ارتكابها .. كنت أضرب عرض الحائط بكل ما يسميه الرجال عفافاً ووقاراً ! !

كنت على استعداد لأن أفعل كل هذا ، لو أنه نطق بكلمة واحدة أو خطا خطوة واحدة ، أو حاول أن يأخذنى معه .. فقد كنت فى تلك اللحظة فاقدة العقل ، متعلقة به بكل ما فى كيانى !.. ولكن ، وكما قلت لك ، لم يلق هذا المخلوق العجيب نظرة واحدة على .. على المرأة الكامنة فى داخلى !.. لكم كنت أتحرق شوقاً إلى أن أفرط فى نفسى ، وأن أفرط فى نفسى إلى أقصى حد !.. على أنى لم أشعر بهذا إلا حين خلوت إلى نفسى ، بعد لحظة واحدة من ذلك الموقف الذى كان وجهه الملائكى يتألق خلاله بما كان يسرى فى نفسه من انفعالات .. واستولى هذا الشعور على نفسى .. بل انقض على كيانى ، وراح ينبض فى فضاء القلب المهجور !

« ونهضت بعناء .. وكنت على موعد بدا لى فى تلك اللحظة بغيضاً .. وخيل إلى أن خوذة حديدية ثقيلة قد هبطت على رأسى وراحت تضغط على جبينى بكل ثقلها ، حتى كدت أترنح .. كانت أفكارى مشتتة ، متخاذلة .. تماماً كخطواتى حين يممت أخيراً صوب الفندق الذى ينزل فيه أقاربى !.. وهناك جلست مكتئبة وسط أناس يتجاذبون أطراف الحديث فى مرح .. كنت أشعر بجزع كلما رفعت عينى عفواً إلى تلك الوجوه الجامدة ، التى كانت تبدو أمامى كما لو كانت ملفوفة بالأقنعة

إذا ما قورنت بوجه ذلك الشاب الموفور الحرارة .. كان طيفه ومرأى تلك الوجوه أضواء وظلالا تتناوب الظهور والاختفاء فى تعاقب ، وقد اكتنفتها الغيوم .. لكم خيل إلى أننى وسط أموات ، وأن تلك الجماعة من الناس كانت مجردة من الحياة !

« وفيما كنت أضع السكر فى القدح ، وأنطق ببضع كلمات بذهن شارد ، كان ذلك الوجه — الذى أصبح التأمل فيه مبعث فرح جامح لروحى ! — يطفو من أغوار نفسى ، كأنه مسوق بدفعة قوية من دمى المشتعل !.. هذا الوجه الذى — ويا لهول الفكرة ! — سوف أراه للمرة الأخيرة بعد ساعة أو اثنتين !.. ولابد أن زفرة واهنة ، أو أنة خافتة ، انطلقت من صدرى على الرغم منى ، إذ اقتربت منى ابنة عم زوجى فجأة ، وسألتنى إن كنت مريضة أو أستشعر تعباً ، لا سيما وقد رأتنى شاحبة ، قلقة ، إلى حد بعيد .. وبادرت أنا إلى استغلال فرصة هذا السؤال ، لأزعم أنى أعانى صداعاً ، ومن ثم استأذنت فى الانصراف ، دون أن أشعر أحداً بما كان بى .. وما أن نهضت حتى أسرعت عائدة إلى الفندق ولذت بحجرتى لأخلو إلى نفسى . وعلى الفور شعرت بالفراغ والوحدة ، وأحسست بالرغبة فى الوجود على مقربة من ذلك الشاب — الذى سأتركه اليوم إلى الأبد — تطبق على بقسوة رهيبة ! وأخذت أذرع الحجرة ، وأفتح الأدراج بدون ما سبب لذلك .. وأغير ثيابى ، وأبدل الأشرطة التى تزينها ، كى أبرر وقوفى أمام المرآة ، وأنا أسائل نفسى ! إذ أرقبها بعين فاحصة — عما

إذا كنت أعجز حقاً ، وأنا فى هذه الزينة ، عن أن أجتذب انتباه ذلك الشاب ؟!

* * *

● وفجأة ، فطنت إلى حقيقة نفسى .. كنت مستعدة لأن أقدم على كل شىء حتى لا أحرم من ذلك الشاب ! .. وفى لحظة واحدة ، أفعمت بفورة عارمة .. واستحالت الرغبة التى كانت تعتمل فى نفسى إلى عزم وإصرار .. وعلى الفور ، أسرعت باحثة عن حارس الفندق ، وأعلنته بعزمى على السفر فى ذلك اليوم بقطار المساء .. أصبح لابد من عمل سريع .. ودققت الجرس لأستدعى الخادم كى تساعدنى فى إعداد حقائبى ، إذ كان الوقت ضيقاً .. وأسرعنا معاً فى تكديس الحقائب بالملابس والحاجيات الصغيرة ، وأنا أتمثل فى خيالى المفاجأة المقبلة ، والصورة التى ستتم عليها .. أتصور أننى حضرت متظاهرة بالرغبة فى مرافقته إلى داخل القطار .. وهو يمد إلى يده بتحية الوداع الأخيرة .. ثم الدهشة التى ستتولاه بعد ذلك عندما يرانى وقد احتللت مكانى فى عربة القطار فجأة ، لأتبعه وأظل معه تلك الليلة ، والليلة التالية ، وأى عدد من الليالى يروق له أن أقضيها معه !

وسرت فى دمائى غبطة نشوانة ، حتى لقد كنت أنطلق أحياناً ، وعلى حين غرة ، فى قهقهة عالية ، وأنا ألقى بثيابى فى الحقائب ، الأمر الذى أدهش الخادم إلى أقصى حد .. كنت أشعر بأن عقلى لم يكن مستقراً فى موضعه !.. فلما جاء الحمال لينقل حقائبى ، نظرت إليه فى دهشة ، إذ كان من العسير على أن أفكر فى أشياء واقعية ، بينما كانت

تطفح روحى بالغبطة الجامحة النشوانة !.. وكان الوقت قد أزف ، إذ أشرفت الساعة على السابعة ، ولم يبق على موعد تحرك القطار أكثر من أربعين دقيقة .. وكان عزائى الوحيد — فى هذه الفورة — أننى لم أكن ذاهبة إلى وداع يتلوه فراق ، ما دمت قد عقدت العزم على مرافقته فى سفره ، والبقاء معه ما سمح لى بالبقاء !

وأخذ الحمال ينقل حقائبى ، بينما أسرعت أنا إلى إدارة الفندق لأدفع ما كان على من حساب .. وفى اللحظة التى أعاد إلى الرجل باقى النقود وتأهبت للانصراف ، شعرت بيد تمس كتفى برفق ، فقفزت جزعاً .. كانت ابنة عم زوجى قد شغلت بذلك التعب الذى زعمت أنه ألم — حين كنت فى زيارتها — فجاءت تطمئن على .. وأظلمت الدنيا فى عينى .. لم أدر ماذا أصنع إزاءها !.. كانت كل ثانية أمكثها معناها تأخير لا يمكن تداركه . ولكن الأدب اقتضانى أن أصغى إليها ، ولو لدقيقة واحدة .

أما هى ، فقد قالت فى إصرار : « يجب أن تلزمى الفراش ، فأنت محمومة ، ما فى ذلك شك ! » .. وكان هذا جائزاً ، إذ كنت أشعر بنبض عنيف قاس ، فى صدغى .. وكانت تطفو أمام عينى أحياناً تلك الظلال الزرقاء المنذرة بقرب الإغماء .. وأخذت أعترض ، وأتظاهر بالشكر والتقدير لنصحها ، بينما كانت كل كلمة تكوينى .. بل لقد وددت لو استطعت أن أركل بقدمى هذا النصح الذى جاء فى وقت من أبعد الأوقات ملاءمة .. ولكن قريبتى السخيفة بقيت وبقيت ، وظلت أمامى باستمرار !.. وقدمت إلى ماء (الكولونيا) .. بل إنها حرصت

على أن تتولى بنفسها ترطيب صدغى بهذا الماء ، وأنا أعد الدقائق ، وقد اتجه فكرى كله إلى ذلك الشاب .. وبينما كنت أبحث عن حجة أتهرب بها من هذه الرعاية المضنية ، أخذ قلقى يزداد ، فكان ارتيابها فى أمرى يتضاعف ، حتى لقد عنفت معى وهى تسعى لحملى على أن آوى إلى غرفتى ، لألزم الفراش ..

وكنت لا أكف — خلال نصائحها — عن التطلع إلى عقربى الساعة .. كان عقرب الدقائق يسعى حثيثاً إلى منتصف القرص .. كانت الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين ، بينما القطار يبرح المحطة فى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين !.. وبحركة مباغتة ، وفى عدم اكتراث لا يصدر إلا عن يائسة ، مددت يدى إلى ابنة عم زوجى قائلة دون ما إيضاح : « وداعاً .. لابد من الرحيل ! » .. وأسرعت صوب الباب غير حافلة بالدهشة التى رمقتنى بها ، بل دون أن ألتفت إليها .. وبينما كان الخدم يحملقون فى استغراب ، انطلقت أعدو فى الشارع شطر المحطة !

وأدركت من الإشارات التى كان يستحثنى بها الحمال — عن بعد — أن القطار على وشك التحرك ، ومن ثم اندفعت فى جنون أعمى نحو باب المحطة المفضى إلى الرصيف .. وإذا بمراقب الباب يستوقفنى .. كنت قد نسيت أن أبتاع تذكرة .. وفيما كنت أحاول إقناعه — فى شىء من الحدة — بأن يخلى سبيلى لأتمكن من اللحاق بالقطار ، إذا بالقطار يتحرك .. وحملقت — وكل فرائصى ترتجف — آملة أن أحظى من إحدى النوافذ بنظرة ، أو إيماءة ، أو تحية .. على الأقل !.. ولكن



بل انها حرصت على أن تتولى بنفسها ترطيب صدغى بهذا الماء ، وانا أعد الدقائق ، وقد اتجه فكرى كله الى ذلك الشاب

القطار لم يلبث أن ازداد سرعة ، فأصبح من العسير أن ألمح الوجه المنشود !.. وتلاحقت عربات القطار فى سرعة ، وإن هى إلا دقيقة حتى كان ما بقى ظاهراً لعينى المعتمتين .. مجرد غمام داكن !

وكان من الطبيعى أن أظل فى وقفتى هذه جامدة كالتمثال .. ولا يعلم إلا الله كم بقيت على هذه الحال .. فقد حاول الحمال عبثاً أن يخاطبنى ، حتى اضطر إلى أن يمس ذراعى منبهاً ، فانتفضت مذعورة.. وإذ ذاك ، سألنى : هل يعيد الحقائب إلى الفندق .. واحتجت إلى بضع لحظات كى أستعيد رباطة جأشى ، ورأيت أن عودتى إلى الفندق مستحيلة بعد أن بارحته على تلك الصورة المستهجنة ، وفى مثل تلك العجلة .. لم يكن بوسعى أن أعود إلى ذلك الفندق ، ولا كنت راغبة فى العودة إليه !.. وفى غمرة الارتباك الشديد الذى اعترانى ، أمرته بأن يودع الحقائب (قسم الأمانات) ..

* * *

● وظللت فترة فى فناء المحطة ، وسط أناس لا تنقطع ضوضاؤهم ، يروحون ويجيئون متدافعين .. ثم أخذ عددهم يقل رويداً ، وإذ ذاك بدأت أستجمع شتات ذهنى لأفكر بهدوء فى الوسائل التى أتخفف بها من هذا السخط الجامح المؤلم ، والأسى ، واليأس ، التى اجتاحتنى فى إلحاح ممض .. فقد كنت — ولست أرى داعياً لتجنب الحقيقة — أشعر بكيانى كله يتمزق فى قسوة أثيمة لا ترحم ؛ كلما فكرت فى أن حرمانى من ذلك اللقاء الرائع كان نتيجة خطأ منى .. كان ذنبى !.. ولقد

أوشكت أن أصرخ لفرط الألم الذى أحدثه هذا النصل الحاد المشحوذ، وهو ينفذ فى أعماقى !

ولا يعرف الثورات العاطفية المفاجئة — التى تحدث فى لحظات استثنائية ، والتى تشبه انهيار جبال الثلج ،أو هبوب العواصف الهوجاء — قدر أولئك الذين لم يألفوا الانفعال .. ذلك لأن القوى العاطفية تندفع فجأة — فى تلك اللحظات — متدفقة من أغوار النفس .. وما سبق لى أن شعرت من قبل بمثل هذه المفاجأة ، ولا بمثل هذا الغضب الجامح الذى استولى على فى تلك اللحظة ، إذ لمست عجزى .. فبينما كنت متأهبة للقيام بأشد الأفعال نزقاً ورعونة .. بل بينما كنت متأهبة لأن أطوح بجميع ما ادخرت فى حياتى المنتظمة المستقيمة من رزانة ، ولأن أطلق العنان لجميع القوى التى كانت مكبوتة حتى ذاك الوقت ، إذا بى أجد نفسى فجأة أمام سياج جامد ، سخيف ، ذهبت محاولاتى لتسلقه أدراج الرياح !

ولم يكن ما فعلته بعد ذلك سوى إمعان فى السخف .. كان جنوناً ، بل طيشاً أخجل من أن أرويه لك ، ولكنى عاهدتك وعاهدت نفسى على ألا أخفى شيئاً .. لقد رحت أجد فى البحث عنه .. أو — بمعنى آخر — حاولت أن أستعيد كل لحظة قضيتها معه .. وشعرت بقوة قاهرة تجذبنى إلى جميع الأماكن التى ارتدناها بالأمس معاً ، فاتجهت إلى المتنزه ، حيث المقعد الذى جررته منه .. وإلى غرفة المقامرة حيث رأيته للمرة الأولى .. بل لقد ذهبت إلى ذلك الفندق الوضيع .. كل ذلك لكى أستعيد الماضى معه ، ولو لمرة واحدة أخرى .. وفى اليوم

التالى ، راق لى أن أستقل عربة أنطلق بها فى نفس الطريق الذى سلكناه معاً – على (الكورنيش) – حتى تبعث فى نفسى كل كلمة ، وكل حركة ، مرة أخرى .. أجل ، لقد بلغ اضطراب عقلى حد الجنون .. بل حد العبث الصبيانى !

ولكن ، ثق أن هذه الأحداث انقضت علىّ انقضاض الصاعقة ، فلم أعد أشعر بغير ضربة قاسية .. ضربة فذة ، أذهلتنى .. على أنه حين فارقنى هذا الذهول ، شعرت برغبة فى أن أعيش من جديد ، كى أستمتع بتلك المشاعر الضالة ، أرشفها قطرة قطرة ، بتلك الطريقة السحرية التى نلجأ إليها لخداع أنفسنا ، والتى نسميها : الذكرى !.. والواقع أن ثمة أموراً لا تحتمل الجدل ، فإما أن يفهمها المرء أو لا يفهمها .. وربما احتاج المرء إلى قلب متأجج كى يدركها !

لهذا سعيت أولا إلى قاعة المقامرة باحثة عن المائدة التى كان يجلس إليها ، لأعيد النظر إليها ، ولأتصور يديه بين الأيدى المجتمعة عليها . ودخلت القاعة ، وأخذت أبحث عن المائدة التى رأيته عندها للمرة الأولى ، حتى استطعت أن أهتدى إليها . كانت المائدة اليسرى فى الحجرة الثانية .. وكانت كل حركة من حركاته ما تزال واضحة المعالم فى ذاكرتى ، ومن ثم كان بوسعى أن أهتدى إلى مكانه تماماً ، وأنا مغمضة العينين ، مبسوطة اليدين ، وكأننى أسير أثناء نومى !.. هكذا كنت حين دلفت إلى الحجرة . وجست ببصرى خلال الجمع الصاخب ، وإذ ذاك .. وقع أمر غريب ، فذ .. فهناك ، وفى نفس المكان ، وجدته .. جالساً !.. وخيل إلى أنه وهم من وحى الحمى التى

كانت تتملكنى .. ولكنه كان هو بلحمه ودمه .. هو .. هو بنفسه !.. هو ، كما تمثلته منذ لحظة فى خيالى ، وكما كان بالأمس تماماً ، وقد علقت نظراته بالكرة ، وجمد شاحباً كالموتى .. هو .. هو نفسه ، ما فى ذلك أدنى شك !

وكدت أصرخ لفرط ما انتابنى من فزع ، ولكنى كبحت جماح أعصابى إزاء هذا المنظر الذى يودى بالعقل ، وأغمضت عينى ، مرددة لنفسى : « إنك لمجنونة .. إنك تحلمين .. بل أنت محمومة .. مستحيل.. إنك تهذين .. لقد رحل عن هنا بالقطار منذ نصف ساعة ! » .. ثم فتحت عينى من جديد ، فوقعتا على نفس المنظر الرهيب الذى ألمنا به منذ لحظة .. كان يجلس إلى المائدة بلحمه وشحمه ، دون أدنى شك !. وكان فى وسعى أن أتعرف على يديه ، بين ملايين الأيدى .. لا . ما كنت بحالمة .. إنه هو نفسه !.. إذن ، فهو لم يسافر كما وعدنى .. لقد مكث المعتوه ، وجاء إلى هنا – إلى المائدة الخضراء – بالنقود التى منحتها له كى يعود بها إلى بلاده .. لقد أنساه سعار اللعب نفسه تماماً ، فجاء يقامر بتلك النقود على مائدة اللعب ، فى الوقت الذى كان اليأس من العثور عليه يدمى قلبى !

وبقفزة واحدة اندفعت إلى الأمام ، وقد أعمى عينى غضب أهوج بعث فى نفسى ثورة جامحة ، فتملكتنى رغبة ضارية فى أن أهوى بقبضتى على وجه ذلك الحانث الذى بدد ما أودعته فيه من ثقة ، وخان شعورى وإخلاصى فى خسة وضيعة !.. ولكنى كظمت غيظى مرة أخرى ، ودنوت ببطء متعمد – لا أدرى أية قوة أتاحت لى ! – حتى

بلغت المائدة ، فى مواجهته تماماً . ووقفت فى مكان أفسحه لى رجل مهذب .. ولم يعد يفصلنى عنه سوى مترين هما عرض الرقعة الخضراء ومن ثم كان بوسعى أن أرقب وجهه بسهولة ، كما لو كنت أجلس فى مقصورة عالية بأحد المسارح !.. وتأملت وجهه ، فإذا هذا الوجه الذى رأيته منذ ساعتين يتألق بأضواء العرفان بالجميل ، وتحيط به هالة من بهاء قدسى ، قد غدا فريسة مرتعدة لنيران النزوة الجهنمية !. ويداه .. اليدان اللتان رأيتهما — بعد ظهر اليوم نفسه : — تتشبثان بسياج المذبح ، وصاحبهما يقسم بأقدس الإيمان .. لقد عادتا تتوتران وهما تنقضان على النقود المتناثرة حولها ، كوحشين كاسرين .. فقد كان رابحاً ، ولابد أن ربحه كان كبيراً ، وكبيراً جداً .. إذ كانت الأضواء تنعكس على كومة غير منسقة — أمامه — من (الفيشات) ، والعملة الذهبية ، والأوراق المالية .. خليط تناثر أمامه فى غير انتظام وكانت أصابعه المتوترة ، المرتجفة ، تجوس خلال هذا الخليط ، وتغوص فى غبطة نشوانة . ورأيت يديه تمسكان بأوراق النقد المختلفة تطويانها وترتبانها ، ثم تعودان فتتحسسان فى شغف قطع النقود المعدنية وما لبثتا أن أمسكتا بحفنة منها ، فطوحتا بها إلى أحد مربعات (الروليت). وسرعان ما بدأت طاقتا أنفه تختلجان فى رجفة متقطعة !.. واجتذب نداء مراقب اللعب عينيه — اللتين كانتا تومضان فى جشع — عن كومة النقود ، فتحولتا تراقبان الكرة فى حركتها الجنونية . وخيل إلىّ أن نفسه توشك أن تنطلق من كيانه ، وهو متكئ بمرفقيه على الرقعة الخضراء ، فكأنهما سمرا إليها !.. كانت حاله — وجنون المقامرة

يعصف به — أدعى فى رأيى إلى الجزع من حاله بالأمس ، إذ كانت كل حركة من حركاته تقتل فى نفسى الصورة الوضاءة التى كانت تتألق فى أعماق نفسى الساذجة ، وكأنها أقيمت على قاعدة من ذهب !

* * *

● وهكذا كنا ، لا يفصل بين أحدنا والآخر سوى مترين . ورحت أنعم النظر فيه ، وهو لا يفطن إلى وجودى . فما كان ليرفع عينيه إلى أو إلى أى شخص آخر .. إذ كان بصره متعلقاً بالنقود وحدها ، وهو يتململ قلقاً ، وينظر بين الفينة والفينة إلى دوران الكرة . كانت الرقعة الخضراء المستديرة تستولى على جميع حواسه التى مضت تتعقب اللعب لاهثة .. كأنما ذاب العالم بأسره ، والإنسانية جمعاء ، فى هذه الرقعة من القماش الأخضر ، المبسوطة أمامه !.. وأيقنت أننى قد أبقى فى مكانى ذاك ، ساعات وساعات ، دون أن يخامره أى شعور بوجودى .. ولكنى لم أعد أقوى على ضبط أعصابى ، فدرت حول المائدة — بعزم مباغت — ووقفت خلفه ، ثم مسست كتفه بيدى فى شدة ، وتذبذبت نظراته لحظة ، ثم أخذ يتفرس فى وجهى بحدقتيه اللتين لاحتا ككرتين من زجاج ، كمن يحدق فى شخص لا يعرفه !.. كان كالمخمور الذى يجد الإنسان عناء فى هزه كى يفيق من غيبوبته ، فتظل أبخرة الخمر ترين على عينيه !.. وأخيراً ، لاح أنه عرفنى ، إذ انفرج فمه فى اختلاج عصبى ، وتأملنى بنظرة تنم عن السعادة ، ثم تمتم فى صوت واهن ، وفى ألفة جمعت بين شرود الذهن وغموض القصد : « إن الحال تسير كما ينبغى .. لقد شعرت بذلك ، بمجرد دخولك ، وبمجرد أن رأيته هناك .. لقد أحسست بذلك فى الحال ! »

ولم أفقه لقوله معنى .. كل ما أدركته هو أن اللعب أثمله ، وأنه نسى كل شىء .. نسى قسمه ، ووعده ، والعالم بأسره .. وأنا ! .. ولكن بريق الدهشة الذى فاض من عينيه حين رآنى ، كان مغرياً ، برغم تعاسة حاله وتسلط الشيطان على زمامه ، ومن ثم وجدتنى أهتم بقوله — على الرغم منى — وأسأله فى جد عمن كان يعنيه بكلمة « رأيته » ! .. فأجابنى وهو يميل نحوى ، حتى لا يسمع أحد سره السحرى : « أقصد ذاك القائد الروسى المسن ، ذا الذراع الواحدة .. ذاك الذى يجلس هناك ، وخلفه تابع خاص .. إنه يربح دائماً .. لقد لاحظت ذلك أمس . فأدركت أن له ولابد طريقة خاصة ، ومن ثم رحت ألعب مثله تماماً .. ولقد كان أمس — كما هو الليلة — دائم الربح . بيد أننى أخطأت بالأمس حين ظللت ألعب بعد انصرافه .. كان هذا ذنبى .. إنه ولابد قد ربح بالأمس عشرين ألفاً من الفرنكات .. وها هوذا اليوم يربح فى كل مرة .. وأنا الآن أضع النقود ، حيث يضع نقوده .. والآن .. » .

وقطع حديثه فجأة ، حين صاح مراقب اللعب بصوته الجهورى : « ابدأوا اللعب » .. والتفت الشاب فى تؤدة إلى جانبه ، وهو يثبت عينيه على مقعد الرجل الروسى ذى اللحية البيضاء ، فإذا الرجل الهادئ ، الوقور ، يضع فى حذر قطعة ذهبية على المربع الرابع ، ويمكث لحظة متردداً ، ثم يضع قطعة أخرى . وفى الحال ، غاصت يدا الشاب المرتجفتان — اللتان كانتا أمامى — فى كومة النقود ، ووضعتا حفنة من القطع الذهبية على نفس المربع . وعندما صاح المراقب بعد دقيقة ، قائلا : « صفر » ، وامتدت مجرفته تحصد كل ما كان على المائدة

بحركة واحدة ، حدق الشاب مذهولا ، كما لو كان ضياع كل هذه النقود معجزة من المعجزات ! .. وقد يخطر ببالك أنه التفت نحوى .. لا ، لقد نسينى تماماً .. تلاشيت من اعتباره ، ولم يبق لى فى حياته وجود ، إذ تركزت كل حواسه المتوترة على القائد الروسى الذى أمسك بقطعتين من النقود فى يده ، فى غير تحمس ، وكأنه يفكر فى اختيار الرقم الذى يضعهما عليه ..

وليس بوسعى أن أصف لك ما انتابنى من مرارة ويأس .. ولكنك تستطيع أن تتصور ما أحسست به نحو رجل بذلت كل ما فى وسعى لأعيد إليه حياته كلها ، فإذا أثرى فى نفسه لا يزيد على أثر ذبابة يطردها بيد متثاقلة ، وفى ضجر ! .. وعادت نوبة الغيظ المستعر تتملكنى ، فضغطت ذراعه بعنف شديد جعله ينتصب فجأة واقفاً .. وقلت له فى صوت منخفض ، ولهجة آمرة : « انصرف لفورك عن اللعب .. تذكر القسم الذى أقسمته اليوم فى الكنيسة ، أيها الحانث التعس ! .. » فحدق فى وقد هزته كلماتى . وامتقع وجهه ، وبدت فى عينيه — فجأة — ذلة الكلب المضروب ! .. وارتجفت شفتاه ، وكأنما تذكر الماضى كله ، على حين غرة ! .. وكان الناظر إليه يخاله مشمئزاً من نفسه ! .. وما لبث أن قال متلعثماً : « أجل .. نعم .. آه ! يا إلهى ! .. يا إلهى .. أجل .. سأنصرف .. ألا اغفرى لى ! » .

« وشرعت يداه تجمعان النقود بعجلة وتحمس فى البداية ، ولكن حركاتهما لم تلبث أن تثاقلت شيئاً فشيئاً ، وكأنما جثمت عليهما قوة عاقتهما عن المضى . وعاد بصره يتجه إلى القائد الروسى ، الذى اختار

رقمه . وعلى الفور ، ألقى الشاب — فى عجلة — بخمس قطع ذهبية على نفس المربع ، وهو يقول : « لحظة أخرى .. لن ألعب سوى هذه المرة فقط .. أقسم لك إنى سأنصرف بعدها .. لن ألعب سوى هذه المرة فقط .. لن ألعب سوى .. » .. وتلاشى صوته ، إذ بدأت الكرة تدور ، فحملته معها فى دورانها ! .. لقد أفلت المعتوه منى ثانية ، وأفلت من نفسه ، منطلقاً مع الكرة فى دورانها ، وهى تقفز وتثب حتى استقرت فى فجوة مصقولة ..

وصاح مراقب اللعب معلناً رقماً ، وامتدت مجرفته إلى القطع الذهبية الخمس .. فقد خسر الشاب .. بيد أنه لم يلتفت إلىّ .. فقد نسينى كما نسى القسم الذى قطعه على نفسه ، وكما نسى الكلام الذى لم تنقض عليه سوى دقيقة واحدة .. وعادت يده تغوص — بانفعال — فى كومة النقود المتناقصة ، وبصره مسدد تماماً إلى الرجل المواجه له .. الرجل الذى كان يجلب له الحظ ، ويفعل فى إرادته فعل المغناطيس !

* * *

● « وعيل صبرى ، فهززته مرة أخرى ، ولكن فى عنف أشد ، وقلت : « انهض لفورك .. وفى هذه اللحظة . لقد قلت إن هذا هو الدور الأخير » ! .. وعندئذ ، وقع ما لم يكن فى الحسبان ، إذ التفت نحوى — ولم يكن الوجه المتطلع إلىّ فى هذه المرة وجه الرجل الوديع ، المضطرب ، وإنما كان وجهاً ثائراً .. وجه إنسان استبد به الغضب ، فأخذت عيناه ترسلان الشرر ، وشفتاه ترتعشان لفرط الحنق — وصاح بى فى جحود : « دعينى وشأنى ! .. اغربى عن وجهى ، فإنك تجلبين

لى النحس ! :: إننى أخسر دائماً حين تكونين هنا :: هذا ما حدث بالأمس ، وها هو ذا يتكرر اليوم .. ألا انصرفى من هنا ! » .

واستولى علىّ الذهول لحظة ، ولكنى أمام هذا النزق ، شعرت بغضبى يحتدم ، فقلت أخاطبه : « أأنا التى أجلب لك النحس ؟ .. أفلم تقسم أيها الكاذب ، اللص ؟ ! » .. ولم أزد على هذه العبارة ، إذ وثب كالمسعور من مكانه ، ودفعنى — غير مبال بالحاضرين ، الذين نهضوا واقفين — ثم صاح بصوت مرتفع فى قحة : « اغربى عن وجهى ! .: لست تحت وصايتك .. هاك .. هاك ! .. إليك نقودك ! .. والآن ، دعينى وشأنى ! » .. وقذفنى ببضع ورقات مالية من فئة المائة فرنك ، بينما كان ينطق بهذه العبارات بصوت مرتفع جداً ، وكأنه مجنون ، غير حافل بمئات الناس الذين كانوا يحيطون به ! .. وأخذ الجميع يتطلعون إليه ، متهامسين ، متغامزين ، متضاحكين .. بل إن كثيرين ممن كانوا فى الغرفة المجاورة أقبلوا بدافع الفضول ، فخيل إلى أننى قد جردت من ثيابى ، ووقفت عارية أمام هذا الحشد المتطفل !

وصاح مراقب اللعب فى صوت جهورى ، آمر ، وهو يدق المائدة بمجرفته : « صمتاً يا سيدتى ، من فضلك ! » .. كان يوجه هذه الكلمات المنكودة إلىّ .. أنا ! .. فشعرت باستحياء مما أصابنى من هوان ، وجللنى الخزى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ، إذ رأيتنى نهباً لهمهمة الفضوليين وهمساتهم ، كما لو كنت فتاة من بائعات الهوى ، ألقى فى وجهها بالأجر ! .. وراحت مائة عين ، بل مائتان ، تتفرس فى وجهى ! .. و .. وانتحيت جانباً ؛ وقد انحنى ظهرى تحت طوفان

الهوان والخزى ، حتى إذا أشحت بوجهى إلى الناحية الأخرى ، تجنباً لنظرات الناس ، إذا بى أمام عينين زائغتين لفرط الذهول .. كانت ابنة عم زوجى أمامى تتطلع إلىّ مشدوهة ، وقد فغرت فاها ، ورفعت يدها بتأثير الذعر الذى استولى عليها !

وكأنما كان وجودها سوطاً ألهبنى ، إذ أسرعت أغادر القاعة ، قبل أن تتحرك وتفيق من دهشتها . كانت لدى بقية من قوة مكنتنى من أن أمضى مباشرة إلى المقعد الذى كان فى حديقة الفندق .. المقعد الذى كان يجلس عليه ذلك الأحمق مهدماً بالأمس ! .. وتهالكت على خشبه اليابس ، القاسى .. خائرة ، مهينة ، محطمة .. تماماً كما كان هو !

* * *

● لقد حدث هذا منذ أربع وعشرين سنة ، ومع ذلك ، فإن الدم لايزال يجمد فى عروقى كلما تذكرت تلك اللحظة ، وقد ألهبتنى إهانته لى بمشهد من ألف غريب ! .. إن الحيرة ما تزال تتملكنى ، كلما عاودنى التفكير فى أمر تلك المادة الرخوة ، التعسة ، الهيابة ، التى يتألف منها ما نسميه بـ « النفس » ، و « العقل » ، و « الشعور » ، و « الألم » .. إذ كيف تعجز هذه كلها — وهى فى أقصى درجات احتدامها — عن أن تحطم الجسد الذى يتألم ، واللحم الذى يتعذب ؟ ! .. كيف يستطيع الإنسان أن يعيش — بعد مثل تلك الساعات — لمجرد أن الدم مستمر فى جريانه ، فلا يموت ويتحطم كما يحدث للشجرة خلال العاصفة ؟ !

ذلك لأننى لم أشعر بوطأة الألم سوى لحظة قصيرة .. اللحظة التى تلقيت فيها الصفعة .. وعندما تهالكت على المقعد ، مضعضعة الحس ،

متهدجة الأنفاس ، أكاد أختنق ، شعرت بطعم الموت ينتشر فى فمى ! .. ولكن الألم — بجميع أنواعه — ضعيف هياب ، كما قلت .. فهو يتقهقر أمام الرغبة فى الحياة ، تلك الرغبة التى ترسخ فى أجسادنا بقوة تفوق ما يجتاح عقولنا من قوى راغبة فى الموت !

وكان من الأمور التى لم أوفق إلى تفسيرها لنفسى ، أننى — بعد تلك الصدمة التى ضعضعت مشاعرى — استطعت أن أرتد إلى صوابى ، وإن لم أدر فى الواقع ما الذى كان ينبغى أن أفعل .. وتذكرت فجأة أن حقائبى فى المحطة ، فاستبدت بى فكرة ملحة فى الرحيل .. الرحيل .. الرحيل من هنا .. الرحيل وحسب ، بعيداً عن هذا « الكازينو » اللعين .. عن هذه البؤرة الجهنمية ! .. وبادرت راكضة إلى المحطة ، لا ألوى على شىء ، وسألت عن موعد أول قطار متجه إلى باريس .. وما أن علمت أن موعده فى الساعة العاشرة ، حتى بادرت إلى سحب متاعى ..

الساعة العاشرة ! .. أى بعد أربع وعشرين ساعة — تماماً — من ذلك اللقاء البغيض .. أربع وعشرون ساعة كانت زاخرة بالعواصف الهوجاء ، وبالعواطف التى بلغت من الغرابة حداً أحدث فى نفسى جرحاً باقياً إلى الأبد !

على أننى — فى البداية — لم أشعر إلا بكلمة واحدة راحت تتردد فى نفسى ، فى تواتر مستمر : الرحيل ! الرحيل ! الرحيل ! .. كانت عروقى لا تفتأ تنبض بهذه الكلمة ، فترددها جنبات رأسى : الرحيل !

الرحيل ! الرحيل ! .. بعيداً عن هذه المدينة .. بعيداً عن نفسى .. إلى وطنى ، وإلى أهلى ، وإلى حياتى السابقة .. حياتى الأصلية !

وقضيت ليلتى فى قطار باريس . ومن العاصمة ، رحت أتنقل من محطة إلى أخرى ، ثم يممت شطر (بولونى) ، ومن (بولونى) إلى (دوفر) ، ومن (دوفر) إلى (لندن) ، ومن (لندن) إلى حيث كان ابنى يقيم فى الريف الإنجليزى . كل ذلك فى سرعة الطير ، دون ما تفكير — إذ لم أفكر فى شىء ما على الإطلاق لثمان وأربعين ساعة — بل ودون نوم ، ودون كلام ، ودون طعام ! .. وكانت عجلات القطار خلال هذه الساعات الثمانى والأربعين ، لاتنفك تردد : الرحيل ! الرحيل ! الرحيل !

وما أن دخلت بيت ابنى فى الريف — أخيراً ، وعلى غير انتظار — حتى انتاب الجميع جزع ، إذ كان فى كيانى ، ونظرات عينى ، شىء يفضح مافى سريرتى ولابد ! .. وتقدم ابنى منى ليقبلنى ، فتراجعت مجفلة ! .. لم أطق أن أراه يقبل الشفتين اللتين اعتبرتهما مدنستين ! .. ورفضت الإجابة على أى سؤال ، وإنما طلبت أن يعد لى الحمام ، إذ شعرت بحاجة إلى أن أطهر جسمى ، لامن وعثاء السفر ، ولكن من كل ما بدا لى عالقاً به من نزوة ذلك الشاب المعتوه .. الخسيس ! .. ثم تحاملت على نفسى حتى بلغت مخدعى ، فاستغرقت فى النوم اثنتى عشرة ، أو أربع عشرة ساعة . وكان نوماً عميقاً ، لم أشعر خلاله بشىء على الإطلاق ، وكأننى كنت من حجر .. أبداً لم أنم مثله من قبل ، ولا فيما بعد ! .. لقد أدركت منه معنى الرقدة فى التابوت .. معنى الموت للإنسان !

وانتاب القلق أهلى ، إذ حسبونى مريضة . على أن عطفهم لم يفلح إلا فى إيقاظ الألم ، إذ شعرت بخزى ، وبأننى غير أهل لاحترامهم ، ولا لإكبارهم لى ! .. وكنت مضطرة إلى أن أشدّد الرقابة على نفسى ، حتى لا أصيح فجأة ، أكاشفهم بمدى خيانتى لعهدهم جميعاً ، وكيف نسيتهم ، وكدت أتخلى عنهم ، بدافع نزوة مجنونة ، جامحة !

* * *

● ورحلت بعد فترة إلى قرية فرنسية صغيرة ، وقع اختيارى عليها بمحض المصادفة ، دون أن أعرف فيها إنساناً . فقد كانت تلاحقنى فكرة ملحة ، ملحفة ، بأن فى وسع الناس جميعاً أن يلمحوا على مظهرى — لأول وهلة — ذلك العار الذى أصابنى ، وذلك التغير الذى طرأ على ، إذ تغلغل فى أعماق الشعور بخيانتى وقذارتى ! .. وكنت إذا ما استيقظت فى الصباح ، شعرت بخوف طاغ من أن أفتح عينى ، وأنا فى سريرى .. فقد كانت ذكرى تلك الليلة تدهمنى ، فأتذكر كيف استيقظت ذات يوم فوجدت نفسى إلى جوار رجل غريب عنى ، ونصف عار ! .. وكان الإحساس الذى داخلنى فى المرة الأولى لايلبث أن يعاودنى .. الإحساس بالرغبة فى الموت ، فى التو واللحظة !

على أن للوقت سلطاناً كبيراً ، برغم كل شىء . والعمر يستهلك كافة المشاعر ، بشكل عجيب ! .. فكلما تقدمت الأعوام بالمرء ، أحس بأنه يزداد اقترابا من الموت الذى يلقى على الطريق ظله القاتم ، ومن ثم تفقد الأشياء بهجتها فى نظر المرء ، على مر السنين ، فلا تحدث عين التأثير الذى كانت تحدثه فى أعماق النفس فى مقتبل العمر ، بل إنها

تفقد قوتها وبأسها ! .. وهكذا أخذت أفيق رويداً من الصدمة التى أصابتنى ، حتى إذا قدر لى – بعد سنوات – أن ألتقى بالملحق التجارى بالمفوضية النمسوية – وكان شاباً بولندى الأصل – وجدتنى أسأله عن أسرة ذلك الشاب الذى شاطرته الفراش ذات ليلة ، فأجابنى بأن أحد أفراد الأسرة انتحر منذ عشر سنوات ، فى (مونت كارلو) ! !

وتلقيت النبأ دون مادهشة ، ودون أن يثير فى نفسى أى ألم ، بل لعلنى أحسست براحة لسماعه .. فليس من داع لإنكار الأنانية ! .. إذ أن موت ذاك الشاب قضى على كل احتمال للقائه مرة أخرى ، وبذلك لم يعد ثمة شاهد على ذنبى سوى ذكرياتى الخاصة ! .. وهكذا أصبحت منذ ذلك الحين أكثر طمأنينة .. فليست الشيخوخة فى حقيقة أمرها سوى المرحلة التى يجب أن نحيا فيها بلا خوف من الماضى !

« لعلك تفهم الآن سر رغبتى المفاجئة فى أن أقص عليك حياتى الماضية .. فعندما سمعتك تدافع عن مدام (هنرييت) وتصر فى ثبات على أن أربعاً وعشرين ساعة تستطيع أن تغير حياة أية امرأة : تغييراً كاملا ، شاملا ، أحسست بأننى المعنية بهذا الكلام ! .. وشعرت بأننى مدينة لك بالشكر ، إذ رأيت نفسى لأول مرة – فى الواقع – أقف خلف رجل يدافع عنى . لهذا فكرت فى أننى قد أفضفض عن نفسى بالاعتراف ، فينزاح عنى الحمل الثقيل الذى يرزح ماضى حياتى تحته ! .. أجل ، ينزاح الذنب الذى يلاحق حياتى دون ما هوادة .. وبذلك ، قد يغدو فى وسعى أن أعود غداً إلى قاعة اللعب – التى التقيت

فيها يوماً بالنصيب الذى أراده لى القدر – دون أن أشعر بحقد على ذلك الشاب ، ولا على نفسى !

أجل ، خطر لى أن الاعتراف كفيل بأن يزحزح الصخرة الجاثمة على صدرى ، فتسقط بكل ثقلها على الماضى وتدفع به إلى ما يشبه الجب .. وهناك ، تظل قابعة فوقه ، تحول بينه وبين اليقظة ، على الدوام !

« كانت سعادة – بالنسبة لى – أن تمكنت من أن أروى لك كل هذا .. لقد نفست الكرب عن نفسى ، وأوشكت أن أهنأ .. وانى لأشكرك ! » :

* * *

● ونهضت واقفاً إذ ذاك ، وقد أدركت أنها فرغت من قصتها . وحاولت فى حرج أن أسرى عنها . وبدا كأنها قرأت ما جال بخاطرى ، فبادرت قائلة : « لا ، أرجو ألا تتكلم .. لا أريد أن تجاملنى . أو تعقب بقول .. ألا شكراً لك إذ أصغيت لى .. وفى رعاية الله ! » .

وكانت واقفة أمامى ، وقد بسطت راحتها لتودعنى .. وتطلعت دون ما تعمد إلى وجهها ، فإذا أسارير هذه المرأة العجوز – التى كانت تقف أمامى فى استحياء يمازجه بعض الحرج – تثير العطف فى قلبى .. ولست أدرى ما الذى بعث فجأة حمرة منفعلة ، كست ذلك الوجه حتى منابت الشعر الأبيض .. أهو صدى العاطفة الخابية ، أم هو الارتباك ؟ ..

ما كان أشبهها إذ ذاك بفتاة تضطرب في خفر من ذكرياتها ، وتشعر باستحياء من اعترافها !

وأحسست بانفعال ساورني – على الرغم مني – وبرغبة طاغية في أن أصارحها بما أكنه لها من إجلال .. ولكن الكلمات احتبست في حلقي الجاف ، فلم أملك سوى أن أنحني أمامها في احترام بالغ ، وأن أقبل في توقير يدها المتغضنة ، التي سرت فيها رجفة خفيفة ، فبدت كأوراق الشجر .. في الخريف !

* * *

[تمت بحمد الله]

٢ – الأم العاشقة

ستيفان زفايج



الفصل الأول

● انبعث من القطار صفير أجش عندما وصل إلى محطة (سيمرنج)[١] ولم تمض دقيقة حتى كانت عربات القطار السوداء واقفة تحت ضوء السماء المائل إلى لون الفضة .. ولفظت العربات خليطاً من الأشخاص وابتلعت خليطاً آخر . وتصاعدت أصوات منفعلة هنا وهناك ، ثم أرسلت القاطرة صفيرها مرة أخرى ، وجذبت العربات الداكنة تباعاً فى جلبة ، وما لبثت أن غابت بها فى مدخل النفق . ثم عاد الهدوء يسيطر على المكان المترامى الأطراف ؛ وقد انجلى مرآه بعد أن خلصت الريح جوه من الدخان .

وكان بين المسافرين الذين هبطوا من القطار ، شاب لفت الأنظار إليه بلباسه الذى كان ينم عن ذوق سليم ، وبرشاقة مشيته غير المتكلفة. وأسرع هذا الشاب — مستبقاً غيره — فاستقل عربة إلى الفندق . وانطلق الجوادان يصعدان الطريق الجبلى فى غير عجلة .. وكان الهواء مشبعاً بنسائم الربيع ، بينما سبحت فى السماء سحب بيضاء — لا يرى لها مثيل إلا فى شهرى مايو ويونيه — وقد راحت تتسابق وتتلاحق ، كأنها رهط من الرفاق تراه أبداً فتياً طائراً .. فهى تركض لاعبة فى القبة الزرقاء ، ثم تختفى فجأة خلف الجبال الشامخة ، وهى تتعانق ثم تفترق ، وهى حيناً مطوية كالمناديل وحيناً منشورة كالعصائب ، ثم لا تلبث — فى النهاية — أن تلوذ بقمم التلال ، فتتوجها بقبعات بيضاء ! ..

(١) (سيمرنج) المصيف الجبلى لمدينة (فيينا) عاصمة النمسا.

وسرت فى الريح العالية حركة مضطربة عنيفة ، ارتجفت لها الأشجار التى كانت ما تزال مبللة بالمطر ، فنفضت – فى ارتجافها – عن نفسها قطرات لا حصر لها ، راحت تتناثر كالشرر اللامع . وكان يبدو فى بعض الأحيان أن عبير الجليد يجتذب من أعالى الجبال لفحات رطبة ، فكان المرء يستشعر فى الهواء الذى يتنفسه نسيماً عليلا ، وإن كان لاذعاً فى الوقت نفسه .. كان كل شىء فى الهواء وفوق الأرض فى حركة ، وفى غليان وخفة !.. وإذ فرغ الجوادان من الطريق الصاعد ، انطلقا فى جرى سهل خفيف ، ووقع سنابكهما يسمع على بعد :

* * *

● وكان أول ما فعله الشاب إذ بلغ الفندق ، أن اطلع على قائمة أسماء النزلاء . وما أن فرغ من قراءتها حتى شعر بخيبة أمل ، وتساءل لتوه فى قلق : « فيم إذن أنا هنا ؟.. إن وجودى فى الجبل وحيداً ، دون صحبة ، لأسوأ من وجودى فى المكتب .. لابد أنى حضرت قبل الوقت الملائم أو بعده .. إن الحظ دائماً يجانبنى فى إجازاتى .. لست أعرف اسماً واحداً بين هؤلاء النزلاء .. لو كانت هناك بعض النساء – على الأقل – لكان ثمة احتمال فى الاستمتاع بشىء من اللهو .. ولو كان لهواً بريئاً !.. حتى لا ينقضى هذا الأسبوع فى كآبة مريرة ! »

كان ذلك الشاب (بارونا) من أولئك النبلاء النمسويين الذين أصابوا بعض الجاه فى المناصب الحكومية ، إذ كان موظفاً فى إحدى الوزارات .. وما كان ثمة داع يدعوه إلى هذه الإجازة ، سوى أن

جميع زملائه كانوا قد حصلوا فى هذا الفصل الربيعى على عطلات لمدة أسبوع ، فلم يشأ أن يتنزل للحكومة عن حقه فى عطلة مشابهة !.. ومع أن النزعة الفردية لم تكن تعوزه ، إلى حد ما ، إلا أنه كان اجتماعياً بفطرته ، وكان لهذا مرغوباً ، ومرموقاً فى كافة الأوساط ، كما كان يشعر تماماً بأنه عاجز عن احتمال العزلة ، والبقاء وحيداً مع نفسه ، فكان يتجنب – ما استطاع – مثل هذه اللحظات ، لأنه لم يكن راغباً بحال فى أن يستزيد معرفة بذاته !.. كان يعرف أنه فى حاجة إلى الاتصال بالناس ، لكى يصقل مداركه ، ولكى يذكى فى قلبه الدفء والنزوات .. وكان يؤمن بأنه لو ترك لنفسه – وحيداً – لفقد قيمته وحيويته ، كعود الثقاب إذا أقصى عن علبته !

ومضى يذرع الردهة الخالية من الناس فى ضيق واستياء ، وهو يقلب الصحف بين يديه حيناً دون ما غاية ، أو يعزف على (بيانو) قاعة الجلوس لحناً من ألحان (الفالس) ، دون أن توفق أصابعه إلى إخراج النغم الصحيح .. وما لبث – أخيراً – أن جلس فى أحد الأركان وقد استولى عليه الضجر ، وراح يتأمل الظلمة وهى تهبط وئيدة ، والضباب وهو يتصاعد من أشجار الصنوبر فى شكل بخار سنجابى .. وهكذا قضى ساعة ملولا ، متوتر الأعصاب .. ثم دلف إلى قاعة الطعام :

ولم يكن قد شغل من موائد قاعة الطعام سوى عدد قليل ، فألقى عليها نظرة عاجلة ، ولكن ، لا جدوى .. لم يكن يعرف أحداً ألبتة ، اللهم إلا .. آه ، هذا الشخص الجالس هناك ، ورد إذ ذاك تحيته فى

غير اكتراث) .. إنه رجل ممن يعيشون لمزاجهم !.. وهـذا أيضاً وجه من الوجوه التى عرفها بالمصادفة العابرة ! .. وفيما عدا ذلك لم تكن ثمـة امرأة يمكن أن يؤمل فى أن تكون له معهـا .. ولو مغامرة عابرة !.. ومن ثم بدأ صبره ينفد !

وكان البارون من الرجال الذين يدينون بالكثير من التوفيق لوسامة وجوههم ، والذين هم فى كل لحظـة على أهبة لقاء جـديد ، وتجربة غرامية جديدة .. أولئك الذين أوتوا استعداداً لأن يغوصوا — فى كل وقت — فى مجاهل أية مغامرة ، والذين لا يفاجأون بشيء ما ، لأنهم يحسبون لكل شيء حساباً ، وهم يمضون فى الحياة ملتمسين الصيد فى كل آن .. أولئك الذين لا تفلت منهم فرصة واحدة ، لأن نظرتهم الأولى تنفذ فاحصة إلى أعمـاق الإحساس الجنسى فى قلب كل امرأة ، دون أن يفرقوا بين زوجة صديقهم والخادم التى تفتح لهم الباب !

وعندما يطلقون — فى النمسا — اسم (صيادى النساء) على هـذا الصنف من الرجال ، فى ازدراء مصطنع ، فإنهم يفعلون ذلك دون إدراك لما ينطوى عليه هذا التعبير من حقائق إيجابية. إذ أن كل غرائز الصيد من تشمم ، واهتياج ، وجبروت عقلى ، تتفاعل فى أسلوب هؤلاء الرجال المتربصين دوماً لاقتناص الفرص !.. إن الشهوة تتملكهم فى كل وقت .. شهوة ليست من شهوة المحب فى شيء ، وإنمـا هى شهوة المقامر .. الشهوة الهادئة ، الرزينة ، التى تزن الأمور وتدفع فى الوقت ذاته إلى الخطر ! ومن هؤلاء الرجال من أوتوا صلابة غير مألوفة ، تظل تلازمهم حتى بعد أن يتجاوزوا سن الشباب .. فهم

يقضون كل حياتهم فى ارتقاب المغامرة الأبدية ، ويتجزأ يومهم إلى عديد من الحوادث الحسية التافهة .. نظرة عابرة ، أو ابتسامة خفية ، أو لمسة بالركبة أثناء الجلوس وجهاً لوجه .. كما تنقسم سنتهم إلى عديد من أمثال هذا اليوم .. فالحادث الحسى — عندهم — هو النبع الخالد الذى لا ينضب معينه .. ينهلون منه وتلتهب به حياتهم !

* * *

● هـكذا تبين البارون لفوره إن لم تكن هناك امرأة !.. ولا حتى زميلة .. فتناول صحيفة ، وترك بصره يتسلل فى ضيق بين سطورها ، ولكن أفكاره كانت مشلولة ، تتخبط مع الكلمات كالرجل الثمل . وفجأة سمع خلفه حفيف ثوب ، وصوتاً يشوبه شيء من الغضب ، يقول بالفرنسية فى لهجة واهنة : « كفى يا إدجار .. صه ! » . وحف ثوب من الحرير بطرف المائدة التى كان يجلس إليها .. ولمح امرأة بديعة القوام ، وفى أعقابها طفل صغير شاحب ، فى لباس من المخمل الأسود ، تطلع إليه بفضـول . وجلس القادمان متقابلين إلى مائـدة كانت محجوزة لهما .. وكان الطفل يحاول أن يلتزم هدوءاً يتعارض مع القلق الذى كان يتبدى فى عينيه السوداوين .. أما السيدة — وما كان البارون ليهتم بسواها !— فكانت ترتدى ثياباً يتجلى فيها الحرص على الأناقة . وكانت — فوق هذا — من طراز يحبه كثيراً .. من أولئك اليهوديات الممتلئات الأجسام فى غير بدانة ، وقد أوشكت أن تتجاوز مرحلة النضج . وكانت تبدو مرهفة الأعصاب ، ولكنها تحاول إخفاء انفعالها وراء مظهر آس مثير !

ولم يستطع البارون – فى البداية – أن يرى عينيها، ولكنه أعجب بتقوس حاجبيها اللذين استدارا فى رفق ، وتماسا مساً خفيفاً فوق أنف صغير ، مما نم فى صراحة عن عنصرها اليهودى ، وإن أضفى – بجلال مظهره – على المنظر الجانبى لوجهها (البروفيل) رواء يجتذب النظر ! : أما شعرها فكان – ككل ما فى هذا الجسم من مفاتن الأنوثة – ذا بهاء ملحوظ . وكان إحساسها بأنها موضع الإعجاب البالغ يثير فى نفسها زهواً يضفى على جمالها كبرياء ضافية !

وطلبت المرأة الطعام بصوت خافت ، ثم نبهت الطفل – مرة أخرى – إلى التزام الهدوء ، إذ كان يعبث بشوكته محدثاً بعض الجلبة .. حدث كل هذا فى غير اكتراث ظاهر منها بنظرات البارون الفاحصة والحذرة .. بل لقد تظاهرت بأنها لم تفطن إلى وجوده ، وإن كان انتباهها إلى نظراته اليقظة هو الذى حملها – فى الواقع – على هذا التحفظ الذى نم عن اهتمام !

وفجأة ، أشرق وجه البارون بعد طول عبوس وتجهم ، فنشطت أعصابه الهاجعة ، وتبددت عن جبينه التجاعيد التى رسمها التبرم ، واستقامت عضلاته ، فاعتدل قوامه ، وشع الضوء فى عينيه . والواقع أنه كان يشبه إلى حد ما أولئك النساء اللائى يحتجن إلى وجود رجل بجانبهن ، ليبرزن كل ما فى كيانهن من قدرة وسلطان !.. كان يفتقر إلى حافز حسى لكى يبدى كل ما أوتى من طاقة ونشاط .. لقد تشمم الصائد رائحة الصيد، فتحفزت عيناه وراحتا تتصديان لنظرات المرأة .. وقدر لهذه النظرات أن تلتقى – بين حين وآخر – بنظراته ، فى لقاءات

كطرفة العين ، وهى تومض فى اضطراب وتردد ، دون أن توحى إليه قط بجواب واضح !.. وخيل إليه أنه لمح على شفتيها وميض ابتسامة توشك أن تشرق .. بيد أن هذا كله لم يكن سوى حدس غير مؤكد . وكانت الحيرة التى يخلقها هذا الإبهام هى التى تستفزه وتستحثه .. وما كان ثمة ما يوحى بالأمل ، اللهم إلا تلك الطريقة التى كانت المرأة لا تفتأ توجه بها نظراتها نحوه ، إذ كانت تنم عن مقاومة وعن حيرة فى آن واحد !.. كذلك التمس الأمل فى الطابع الذى كان يطبع حديثها المصطنع مع الطفل : وكان هذا الحديث خليقاً بأن يسمع دون ما ريب فلقد لاح له أن التحفظ المتكلف الذى استدعاه اصطناع الهدوء ، كان يكشف عن بداية قلق وضيق .. وكان هو الآخر منفعلا .. لقد بدأ الصيد !.. ومن ثم تلكأ فى عشائه ليطيل بقاءه ، وظل طوال نصف ساعة لا يحول نظره عن المرأة ، حتى لكأنه يرسم فى مخيلته كل قسمة من قسمات وجهها ، ويلمس خفية كل جزء من جسمها المتفتح للحياة !

وكانت الظلمة الكثيفة قد هبطت فى الخارج ، وأخذت الأشجار ترتجف – كأنها أطفال استولى عليهم الوجل – كلما مدت نحوها السحب المثقلة بالمطر أيديها القاتمة .. وما لبثت الظلمة أن أخذت تغزو القاعة شيئاً فشيئاً .. وبدا على الرجال ضيق متزايد من جراء الصمت .. وغدا حديث الأم مع طفلها أكثر تكلفاً ، حتى أدرك البارون أنه يوشك أن ينتهى .. وحينئذ قرر القيام بمحاولة ، فنهض – وكان أول من نهض من القوم – واتجه فى خطوات وئيدة نحو الباب . وفى اللحظة التى حاذى فيها السيدة ، تعمد أن يوجه بصره إلى الردهة .. وفجأة

التفت خلفه كما لو كان قد نسى شيئاً .. وإذ ذاك لمحها تتأمله بعينين مفعمتين بالاهتمام !

وانتظر فى الردهة ، فما لبثت أن أقبلت ممسكة بيد طفلها :. وقلبت – فى طريقها – بعض المجلات التى كانت على منضدة فى صدر القاعة وعرضت على الطفل بعض الصور ، واتجه البارون صوب المنضدة ، وكأنه يريد أن يتناول إحدى المجلات ، وهو – فى الحقيقة – يبغى أن ينفذ إلى أعماق عينيها ، ولعله طمع فى أن يجاذبها الحديث .. ولكنها أدارت ظهرها – إذ رأته مقبلا – وربتت كتف ابنها قائلة له بالفرنسية : « هيا ، يا إدجار ، إلى الفراش ! » .: ومضت غير عابئة بشىء ، فشعر البارون بشىء من خيبة الأمل وهو يراها تنصرف :: فقد حسب أنه لن يلبث أن يتعرف بها فى ليلته تلك ، ولكن هذه الطريقة المباغتة – التى سلكتها فى الانصراف – أيقظته من أحلامه وأوهامه ، ومع كل ذلك فإن هذا التمنع كان ينطوى على لذة ، كما أن الحيرة والغموض اللذين أحاطا بالبارون ، أذكيا شوقه .. فقد أحس بأنه عثر – أخيراً – على (زميل) ينازله ، وأن بوسعه الآن أن يبدأ المغامرة !

* * *

الفصل الثانى

● ما أن ولج البارون القاعة ، فى اليوم التالى ، حتى رأى ابن الحسناء المجهولة يتحدث بصوت مرتفع مع الغلامين المنوط بهما خدمة المصعد ويريهما صوراً فى كتاب من كتب (كارل ماى) .. ولم تكن أمه هناك ، ولعلها كانت ما تزال مشغولة بزينتها !.. وإذ ذاك فقط ، أخذ البارون يتأمل الطفل للمرة الأولى .. كان حدثاً خجولا ، عصبياً ، ناقص النمو ، يناهز الإثنى عشر عاماً ، بليد الحركة ، ذا عينين سوداوين غائرتين .. وكان – ككثير من الأحداث فى هذه السن – يبدو كمن مسه شىء أفزعه .. وكأنه اختطف فجأة أثناء نومه ليوضع فى وسط غريب عنه ! .. ولم يخل وجهه من جمال ، وإن لم يكن قد استكمل قسمات محددة بعد ، ولا ارتسمت عليه من آثار النضال بين الطفولة والرجولة سوى الطلائع الأولى .. كان كل شىء فيه أشبه بالعجينة التى دفعت إلى الفرن دون أن تتخذ أى شكل معين واضح ، ولا أية خطوط تميزها .. فضلا عن أنه كان فى تلك السن المتقلبة ، التى لا ينعم فيها الأحداث بملابس تلائمهم تماماً ، فالأكمام والسراويل فضفاضة ، تزيد سعتها عما يلزم للأطراف الهزيلة كى تتحرك .. وهى أيضاً السن التى لا يكون فيها لدى الصبية من الغرور ما يحفزهم على العناية بمظهرهم الخارجى !

وكان سلوك الغلام فى تنقله هنا وهناك – دون أن يدرى ماذا يصنع – يثير الإشفاق .. كان الجميع يضيقون به فى الواقع : فهو

حيناً يضايق البواب بأسئلته فيبعده عنه ، وحيناً آخر يضايق القادمين والخارجين ، عند باب الفندق .. ومن الجلي أنه كان يفتقد وجود صديق معه !.. ومن ثم كانت حاجته الصبيانية للثرثرة تدفعه إلى التقرب من الخدم ، فكانوا يجيبون على أسئلته ، كلما اتسع وقتهم للإجابة ، ولكنهم لا يلبثون أن يقطعوا الحديث عندما يظهر أحد الكبار أو عندما يقتضيهم العمل تركه .. وأخذ البارون يراقب — فى ابتسام واهتمام — ما كان يحدث لهذا الغلام البائس ، الذى كان يدفعه الفضول إلى كل شيء ، والذى كان كل إنسان يتهرب منه فى عداء !

والتقى بصر البارون بنظرة من نظرات الغلام الفضولية ، ذات لحظة ، ولكن العينين السوداوين ارتدتا فى خوف ووجل — فور شعورهما بأنهما ضبطتا متلبستين بالتطلع المتسكع — وتوارتا تحت الجفنين المغمضين .. وراق للبارون ذلك الأمر .. إذ بدا يهتم بهذا الغلام الذى كان الخوف هو الذى أحاله بلا شك إلى ما هو عليه من حياء وخجل ، ثم ساءل نفسه : « ألا يمكن أن يكون هذا الصبي وسيطاً سريعاً بينه وبين السيدة الغريبة ؟.. مهما يكن من أمر ، فعلى المرء دائماً أن يحاول ! » .: ومن ثم لجأ — وهو يتظاهر بأنه غير متعمد — إلى تعقب الغلام الذى اندفع نحو الباب وأخذ يداعب جواداً أبيض ، ويتحسس أنفه الوردى فى تعطشه الصبيانى إلى الحنان .. إلى أن أبعده الحوذى — بدوره — فى غلظة ، دون أن يدع له فى الواقع فرصة .. وأخذ الصغير يتسكع هنا وهناك — فى ضيق وارتباك — وقد غاض البشر من عينيه ، وبدا عليه شيء من الكآبة ..

وسأله البارون فى لهجة اصطنع فيها المرح قدر ما استطاع : « هل أنت مسرور هنا يا فتى ؟ »

واحمر وجه الغلام حتى غدا فى لون الجمر ، وحدق فيه بقلق ، وقد بدا عليه الخوف ، ثم ضم يديه إلى جسمه : وأدار رأسه يمنة ويسرة فى ارتباك . كانت هذه أول مرة يحادثه فيها شخص غريب .. وأخيراً قال : « نعم .. أشكرك » .. وكان هذا جل ما استطاع أن يحمل نفسه على قوله .. بل إن الكلمة الأخيرة لم تنطلق من فمه إلا بعناء !

وقال البارون ضاحكاً : « يدهشنى قولك ، فإن هذا المكان كئيب لا سيما بالنسبة لرجل صغير مثلك .. فماذا تفعل طوال نهارك ؟ »

وكان الغلام ما يزال مضطرباً ، حتى لقد عجز عن أن يجد جواباً حاضراً .. أمن الممكن حقاً أن يكون هذا السيد الأنيق — الذى لا يعرفه — راغباً فى أن يتحدث إليه ، وهو الذى لا يهتم به أحد ؟.. وبعثت هذه الفكرة فى نفسه خجلا وزهواً فى آن واحد .. وتمالك نفسه فى عناء ، لكى يجيب قائلا : « إننى أقرأ .. كما أننا كثيراً ما نتمشى متريضين .: وأحياناً أخرج وأمى فى عربة للنزهة .. إننى هنا لأسترد قواى ، فقد كنت مريضاً . وقال الطبيب أن لابد لى من أن أبقى طويلا جالساً تحت أشعة الشمس ! »

قال الغلام هذه الكلمات الأخيرة وقد بدأ يشعر بثقة فى نفسه .. فإن الصغار يعتزون دائماً بالمرض ، إذ يدركون أن الخطر يرفع من قيمتهم فى أنظار أهلهم .. وقال البارون معلقاً على عبارة الصبى :

— نعم .. إن الشمس مفيدة لك ، ولن تلبث أن تكسبك سمرة عما

قريب .. على أنك لا يجب أن تظل جالساً تحتها طوال النهار .. فمن فتى مثلك يجب أن يجرى ، وأن يفيض بالنشاط ، وأن يرتكب بعض السخافات أيضاً !.. يبدو لى أنك أكثر رزانة مما يجب .. إنك بكتابك الكبير ، السميك — الذى تتأبطه — تشبه المومياء . وإننى لأذكر كيف كنت شيطاناً فى مثل سنك !.. وكنت أعود إلى المنزل فى كل مساء ممزق السراويل .. لا يجب أن يغلو الإنسان فى التعقل !

واضطر الصبى إلى الابتسام رغماً عنه ، وسرعان ما تلاشى خوفه.. وود أن يجيب بشىء ، ولكن هذا بدا — فى نظره — مجانبة للآداب ، واندفاعاً لا يليق فى حضرة هـذا السيد الجميل ، الغريب عنه ، الذى يحادثه بمثل هذه اللهجة الودية .. ما سبق له قط أن تبسط مع غريب بهذا القدر .. وأحس بالحيرة تداخله ، فإن السعادة والخجل أفعما نفسه باضطراب بالغ .. وود لو طال الحديث ، ولكنه لم يجد شيئاً يقوله .. ولحسن الحظ أقبل فى ذلك الوقت كلب الفندق الأصفر الكبير — وهو كلب من نوع (سان برنارد) — وأخذ يتشمم الشاب والطفل ، مستسلماً لمداعبتهما ، راضياً بها .. فقال البارون : « أتحب الكلاب ؟ »

— آه !.. نعم ، كثيراً .. إن لدى جدتى كلباً فى دارها ببادن — على مقربة من فينا — وعندما نقيم فى هذه (الفيلا) يلازمنى الكلب طوال النهار .. ولكن هذا لا يكون إلا فى الصيف فقط ..

— ونحن أيضاً عندنا فى ضيعتنا أكثر من أربعة وعشرين كلباً على ما أذكر .. سأعطيك واحداً منها .. كلباً أشقر ذا أذنين بيضاوين، صغير السن جداً .. فهل تحب هذا ؟

فاحمر وجه الصبى من الفرح ، وقال على الفور ، فى لهجة من يتحرق شوقاً : « بلا شك ! » .. ثم طرأت على باله فكرة أضفت على ملامحه جواً من الفضول وشبه الخوف ، فأردف قائلا : « ولكن (ماما) لن تسمح بهذا ، فهى تقول إنها لا تريد كلاباً فى البيت ، لأنها تسبب كثيراً من المضايقات ! »

وابتسم البارون ، إذ تحول الحديث — أخيراً — إلى الأم ، وقال : « وهل أمك قاسية إلى هذا الحد ؟ »

فتريث الصبى لحظة مفكراً ، وتطلع إلى السيد وكأنه يتساءل عما إذا كان له أن يثق بهـذا الشخص الغريب ، ثم أجاب فى حذر : « لا .. ليست أمى قاسية ، بل إنها تسمح لى بكل شىء الآن ، لأنى مريض .. ولعلها تسمح لى كذلك بأن يكون لى كلب »

— هل ترى أن أطلب منها أن تأذن لك ؟

فهتف الصبى وقد استخفه الفرح : « آه ، نعم .. أرجوك .. لسوف توافق أمى فى هذه الحال بلا شك .. وما شكله ؟.. إنه أبيض الأذنين .. أليس كذلك ؟.. هل يعرف كيف يلتقط الأشياء ويحضرها إذا قذفت بها أمامه ؟ »

— نعم . إنه يستطيع أن يفعل كل شىء !

وابتسم البارون على الرغم منه ، إذ رأى الجذوة التى أذكاها تتألق فى عينى الغلام .. لقد تم الآن قهر الخجل الذى كان يستولى عليه فى البداية ، فتفجر الانفعال الذى كان يكتمه الخوف .. وإذا الطفل الخجول ، المضطرب ، ينقلب فى لحظات إلى غلام يطفح بالحيوية

الدافقة : فلم يتمالك البارون أن قال لنفسه : « آه !.. ليت أمه على شاكلته !.. ليتها تخفى وراء تحفظها مشاعر مشبوبة كهذه ! »

وانطلق الغلام يمطره بأسئلته : « ما اسم الكلب ؟ » .. قال البارون : « كارو » .. فهتف الطفل مغتبطاً : « كارو ! »

وأخذ يضحك طرباً على الرغم من نفسه ، وقد تملكته النشوة لهذا الحادث الذى لم يكن يرتقبه .. فها هو ذا يشهد شخصاً يوليه الاهتمام ويتودد إليه .. ودهش البارون — من ناحيته — لنجاحه السريع ، فقرر أن « يطرق الحديد وهو ساخن ! » .. ودعا الصبى إلى نزهة قصيرة فى صحبته ، فكاد المسكين يجن بهذه الدعوة ، إذ كان قد قضى الأسابيع يتحرق شوقاً إلى أن يكون له صاحب .. وراح يبوح لصديقه الجديد — فى سذاجة — بكل ما كان هذا يسعى إلى معرفته ، عن طريق الأسئلة الصغيرة التى حرص على أن يلقيها عرضاً ، وكأنها بنت ساعتها . ومن ثم لم يمض وقت طويل ، حتى كان (البارون) قد عرف كل شىء عن أسرة (إدجار) .. عرف أن الصبى هو الابن الوحيد لمحام فى (فيينا) ينتمى إلى الطبقة الموسرة من يهود النمسا .. وعرف كذلك أن الأم ليست مغتبطة بإقامتها فى (سيمرنج) ، وأنها كانت تشكو افتقارها إلى صحبة محببة حولها .. وعندئذ سأله عما إذا كانت أمه تحب أباه كثيراً ؟.. فأجابه الغلام بأن ليس كل شىء بينهما على وفاق تام !

وخجل من نفسه ، أو كاد يخجل ، لانتزاعه كل هذه الأسرار العائلية من الغلام ، بتلك السهولة .. والواقع أن (إدجار) كان مزهواً للغاية ، إذ رأى حديثه جديراً باهتمام أحد الكبار ، فلم يكتم عن صديقه

الجديد شيئاً .. كان قلبه الصغير يخفق كبرياء وتيهاً .. كلما فكر فى أن الملأ يرونه فى صحبة حميمة مع أحد الكبار ، إذ كان البارون يضع ذراعه على كتفه ، وهما يسيران معاً .. وشيئاً فشيئاً نسى (إدجار) أنه لم يكن سوى غلام ، فانطلق فى الكلام بدون تحفظ ، كما لو كان يتحدث إلى صبى فى مثل سنه !

ولقد أثبت الحديث أن (إدجار) كان على جانب كبير من الذكاء .. بل إن عقله كان يسبق سنه — بعض الشىء — كأكثر الصبية الذين تنتابهم الأمراض والعلل ، والذين يعاشرون الكبار ويقتصرون على مجتمعهم زمناً طويلا .. وكانت عواطفه — حباً كانت أو بغضاً — تستعر إلى درجة غير عادية .. إذ لم يبد عليه قط أى ميل للقصد أو الاعتدال ، بل كان إذا تكلم عن شخص ، أو عن شىء ، اندفع فى إظهار حبه له بتحمس عارم ، أو فى إظهار كراهيته بشكل عنيف فيتجهم وجهه ويتجلى على أساريره الشر .. كان ثمة شىء من الضراوة والتهور يصبغ حديثه بصبغة من التطرف والتعصب ، لعلها كانت من آثار المرض الذى شفى منه أخيراً .. وماكان نزقه وتطرفه سوى انزعاج مكبوت إزاء عواطفه الجامحة التى كان يلاقى فى كبحها عناء ، أى عناء !

* * *

● ولم ينقض نصف ساعة ، حتى كان البارون قد سيطر تماماً على هذا القلب المتأجج ، المضطرب .. فليس أسهل من خداع طفل من أولئك السذج الذين قلما يسعى أحد إلى التودد إليهم .. لم يكن على البارون سوى أن يذكر ماضيه هو ، ليتبين أنه كان من الطبيعى جداً

ألا يرى الصبي فيه سوى رفيق .. فلم يلبث الغلام ، بعد دقائق ، أن فقد الإحساس بالفارق الذى كان يفصل بين عمريهما ، وغدا سعيداً إذ عثر – فجأة ، وفى هذا المكان المنعزل – على صديق ، وأى صديق !.. لقد نسى إلى جواره صبية (فيينا) جميعاً ، بأصواتهم الرفيعة الحادة ، وثرثرتهم الجوفاء .. كانت هذه الساعة الفريدة كافية لكى تنسيه حتى صورتهم وذكراهم !.. واتجه بكل عواطفه الدافقة نحو هذا الصديق الجديد .. صديقه الكبير .. وانتشى قلبه زهواً عندما دعاه هذا الصديق – وهما يهمان بالافتراق – إلى العودة فى صباح اليوم التالى ، ثم وهو يلوح له بيده من بعيد ، تماماً كما يفعل الأخ حين يودع أخاه .. ولعل هذه اللحظة كانت أسعد اللحظات فى حياة (إدجار) !

وابتسم البارون وهو يرقب الغلام يعدو ذاهباً .. فقد اطمأن إلى أنه وجد الوسيط المنشود .. كان يوقن من أن الصبي سيقص كل شيء على أمه ، وأنه سوف يعيد على سمعها كل كلمة .. وحينئذ تذكر البارون فى غبطة أنه تحدث كثيراً مع (إدجار) عن « أمه الحسناء » ، وأنه أطرى فى لباقة تلك السيدة !.. وبدا له جلياً أن الوسيط الصغير لن يقعد عن أن يربط بين صديقه وأمه ، ومن ثم لم يعد البارون بحاجة إلى أن يسعى إلى الحسناء المجهولة .. إنه يستطيع الآن أن يخلد إلى الأحلام ، وأن يتسلى بتأمل المناظر الطبيعية ، وهو مطمئن إلى أن يدى الصبي بدأتا تبنيان – فى حمية وحماس – معبراً يقوده إلى قلب .. الأم !

* * *

الفصل الثالث

● كانت الخطة – كما تبين (البارون) بعد ساعة واحدة – رائعة ، إذ نجحت حتى فى أدق تفصيلاتها . فقد تعمد أن يدخل قاعة الطعام – عند العشاء – متأخراً ، فبادر (إدجار) قافزاً عن مقعده ، وحياه بحرارة والسعادة تشع من عينيه .. ثم شد كم ثوب أمه ، وتحدث إليها فى حماس ، وهو يشير إلى (البارون) بحركات لاحظها الجميع !.. وارتبكت السيدة ، واحمر وجهها ، ووبخت طفلها على هذا النزق .. ولكنها – برغم كل هذا – لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر صوب الجهة التى أشار إليها الصبي ، إرضاء له . وانتهز (البارون) الفرصة على الفور ، فأحنى رأسه باحترام .. وهكذا تم التعارف ، إذ اضطرت السيدة إلى رد التحية ، وإن حرصت بعد هذا على أن تستبقى وجهها مائلا نحو صفحة الطعام ، متجنبة فى حرص – طوال العشاء – الالتفات نحو (البارون) . أما (إدجار) فكان على النقيض منها ، إذ كانت عيناه تتجهان بلا انقطاع نحو صديقه !.. بل لقد حاول مرة أن يخاطبه ، برغم ما كان يفصل بينهما من مسافة . بيد أن أمه لم ترض عن هذا التصرف المعيب ، فلامته عليه بشدة . وما أن انتهى العشاء حتى طلبت إليه أن يذهب إلى فراشه ، ولكن همساً ملحاً دار بينهما ، انتهى إلى السماح له بالذهاب لتحية صديقه . وإذ ذاك لاطفه (البارون) لبضع دقائق بكلمات لمعت لها عينا الصبي مرة أخرى .

واستدار البارون – على حين غرة – نحو المائدة الأخرى بحركة



وتحدث اليها فى حماس ، وهو يشير الى (البارون) بحركات لاحظها الجميع ! .. وارتبكت السيدة ، واحمر وجهها ..

بارعة ، فهنأ جارته – التى تولاها شىء من الارتباك – بأن أوتيت ابناً على جانب كبير من الذكاء واليقظة ، مطرياً الصباح الجميل الذى قضاه معه . وكان (إدجار) واقفاً يستمع ، وقد احمر وجهه غبطة وفخراً ؛ وأخذ (البارون) يستفسر عن صحة الصبى بعدد من الأسئلة ، اضطرت الأم إلى أن تجيب عليها . وهكذا انتهيا إلى حديث طويل . أنصت إليه الغلام فى اغتباط ، وإن التزم نوعاً من الاحترام !

وحين قدم (البارون) نفسه إلى السيدة ، خيل إليه أن رنين لقبه أحدث صدى فى نفسها ، إذ عاملته بلباقة بالغة ، برغم تحفظها ! .. وما لبثت أن استأذنت فى الانصراف مبكرة ، متعللة بصحة الصبى السيئة . ولكن (إدجار) عارض ملحاً ، وقال إنه ليس متعباً !.. كان على استعداد للبقاء طوال الليل ، ولكن الأم كانت قد مدت يدها للبارون الذى قبلها باحترام !

ولم ينعم (إدجار) فى تلك الليلة بنوم طيب . فقد عصف بنفسه خليط مضطرب من السعادة واليأس الصبيانيين ، إذ اعترض حياته حدث جديد كل الجدة . فلقد ساهم – للمرة الأولى – فى مصير الأشخاص الكبار . ومن ثم خيل إليه أنه كبر دفعة واحدة !.. ولم يكن قد حظى بصديق فى أى وقت من الأوقات ، إذ نشأ فى عزلة ، وتناوبته الأمراض .. كما لم يكن هناك من يشبع حاجته إلى العطف والحنان ، اللهم إلا أبويه – اللذين قلما كانا يحفلان به – والخدم ! .. على أن الناس دائماً يسيئون تقدير قوة الحب ، إذ يقيسونه بموضوعه ، وليس بالحالة النفسية التى تسبقه ، والتى تتمثل فى تلك الفترة الموحشة

المظلمة ، التى تخلقها العزلة وخيبة الأمل ، والتى تلاحظ فى كافة ما يعرض للقلب من أحداث كبار !.. فقد كان لدى الصبى فيض من الإحساس المعطل ، والمتحفز — فى الوقت ذاته — للانطلاق ، فلما ظهر أول مخلوق شعر بأنه جدير به ، انطلق دافقاً ..

وأحس (إدجار) — فى ظلام المخدع — بنشوة من السعادة تمازجها حيرة .. كان يريد أن يضحك ، ولكنه كان مضطراً إلى البكاء . فقد أحب (البارون) كما لم يحب صديقاً من قبل.. بل كما لم يحب أباه أو أمه.. كانت كل العواطف التى استشعرها فى سنيه الخاليات قد تركزت فى صورة هذا الرجل الذى كان يجهل اسمه منذ ساعات قلائل !.. على أنه كان — برغم هذا — على جانب من الذكاء يجنبه تهيب المجهول ، ويقيه الاستهانة بهذه الصداقة الجديدة .. لم يكن يثير اضطرابه سوى شعوره بتفاهة قدره وخمول ذكره ، فكان يسائل نفسه : « أجدير أنا بصداقته ، وأنا بعد غلام لم يجاوز الإثنى عشر عاماً .. ولم أبدأ بعد تعليمى ، وما زلت مضطراً إلى أن أذهب للنوم قبل الآخرين ، فى كل مساء ؟! » .. هكذا كان يفكر فى ألم : « ماذا يمكن أن أكون عنده .. وماذا يمكننى أن أعطيه ؟! »

وكان يشقيه عجزه المؤلم عن أن يعبر بطريقة ما عن تعلقه بصديقه . فقد كان أول ما يفعله عادة إذا ما اكتسب صديقاً أن يقتسم معه كنوز قمطره ، من طوابع بريد وأحجار التلوين .. تلك الممتلكات البسيطة التى تعرفها الطفولة . ولكن هذه الأشياء — التى كان يعتز بها حتى الأمس — أصبحت تبدو له مجردة من كل قيمة ، بل تافهة ومضحكة !..

ثم كيف يمكنه تقديم مثل هذه التوافه إلى صديقه الجديد ، الذى لا يسمح لنفسه بأن يخاطبه بضمير المفرد اقتداء به ؟.. أية وسيلة لديه يعبر له بها عن مشاعره ؟! .. وأخذ يزداد شعوراً بالألم لكونه صغيراً ، لكونه شيئاً لما يكتمل بعد .. غلاماً فى الثانية عشرة !.. إنه ناقم — كما لم ينقم فى أى وقت — على حداثة سنه ، ويود ، كما لم يود من قبل ، لو أنه صحا فى الصباح التالى كامل الرجولة ، قوياً ، كما كان يرى نفسه فى أحلامه !

على أن هذه الأفكار القلقة سرعان ما اقترنت بأولى الأحلام الملونة التى يتميز بها عالم النضج الجديد . ونام (إدجار) أخيراً ، وعلى شفتيه ابتسامة . بيد أن ذكر موعد الغد أقض مضجعه ، فاستيقظ فى السابعة من الصباح التالى ، وهو يخشى أن يصل متأخراً . وارتدى ملابسه على عجل ، ثم ذهب ليعانق أمه المندهشة ، التى لم تكن فى العادة تستطيع حمله على مغادرة فراشه إلا بمشقة !.. وقبل أن تتمكن من سؤاله ، كان قد أسرع إلى السلم .. وظل يروح ويجىء — نافد الصبر — حتى الساعة التاسعة ، ناسياً فطوره ، غير حافل إلا بأن يجنب صديقه مشقة الانتظار .

* * *

● وقدم البارون — أخيراً — فى التاسعة والنصف ، فى خطى وئيدة غير مكترث بشىء . كان قد نسى الوعد منذ وقت طويل : ولكنه إذ رأى الصبى يعدو نحوه ، ابتسم — على الرغم منه — لهذه اللهفة الزائدة ، وأبدى استعداده للوفاء بما وعد ، فأمسك بذراع الغلام

وأخذ يتمشى معه ، وإن أبى فى حزم مترفق أن ينطلقا على الفور إلى النزهة الموعودة !.. كان يبدو أنه ينتظر شيئاً ما ، أو هذا هو – فى القليل – ما نمت عنه نظراته التى كانت ترقب الباب فى شىء من القلق . وفجأة ، مال بجسمه إلى الأمام .. كانت أم (إدجار) قد أقبلت ، فردت تحية (البارون) ، واتجهت نحو الصديقين . وابتسمت فى رضى حين علمت بأمر النزهة التى كان الغلام قد أخفى نبأها عنها ، وكأنها سر ثمين جداً .: وقبلت – بعد تردد قليل – دعوة (البارون) لمصاحبتهما فيها !

وسرعان ما عبس وجه (إدجار) ، وعض شفتيه .. لكم ضايقه أن تصل أمه فى هذه اللحظة بالذات !.. إنه وحده الذى كان موعوداً بهذه النزهة .. وإذا كان قد عرّف أمه بصديقه ، فلم يكن هذا سوى نوع من المجاملة لها ، لا رغبة فى إشراك أمه فى صداقته !.. واستيقظ فى نفسه شعور يشبه الغيرة ، حين لاحظ تلطف (البارون) مع أمه !.. وأخذ ثلاثتهم طريقهم إلى النزهة . وما لبث اعتداد الغلام بقيمته وبنفوذه المفاجئ أن تضاعف عندما رأى الاهتمام البادى نحوه من (البارون) ومن أمه .. فقد كان (إدجار) موضوع حديثهما ، طيلة الوقت تقريباً . وكانت أمه تتكلم فى شىء من الخبث عن شحوب الصغير وعصبيته ، بينما كان (البارون) يعارض مبتسماً ، ويسرف فى الثناء على (صديقه) كما كان يدعوه . وكان (إدجار) مغتبطاً أشد الاغتباط ، إذ أصبحت له حقوق لم يكن معترفاً بها – من قبل – خلال طفولته .. أصبح من المباح له أن يتكلم ، فلم يعد السكوت مفروضاً عليه ، وإنما صار فى

استطاعته أن يعبر عن رغبات كانت حتى الآن تقابل أسوأ مقابلة .. فلا غرابة إذا نما فى نفسه الشعور الوهمى بأنه من الكبار .. لم تعد الطفولة عنده – فى أحلام يقظته – سوى شىء مضى .. شىء أشبه بثوب يتخلص منه الإنسان ، إذا ما أضحى ضيقاً جداً !

وعند تناول الغداء ، لبى البارون دعوة أم (إدجار) – التى ازداد تلطفها – فجلس إلى مائدتها .. لم تعد صلتهما مجرد تجاور فى الموائد ، بل أصبحا يجلسان وجهاً لوجه .. واستحال التعارف صداقة . واكتمل الثالوث . وأخذت أصوات المرأة والرجل والصبى تمتزج فى انسجام تام !

* * *

الفصل الرابع

● بدا للصائد المتعجل أن الوقت قد حان للانقضاض على صيده :: فما كان ليقنع بتلاشى الكلفة بين أفراد هذا الثالوث .. حقيقة أن الحديث على هذا النحو بين ثلاثتهم كان أمراً محبباً لديه ، ولكنه لم يكن يرمى إلى الحديث فحسب !.. كان يعرف أن الأمور الدنيوية إذا اقترنت بالحيل والمناورات الغرامية تؤخر تفتح أكمام الهوى بين الرجل والمرأة ، وتجرد الكلمات من حرارتها ، والهجوم من لهيبه :: كان لابد من تفادى أن يشغل الحديث هذه المرأة عن حقيقة مقصد (البارون) .. المقصد الذى أيقن من أنها فهمته !

وكان الراجح تماماً ، عنده ، أن لهفته إليها لن تبقى طويلاً بغير

ثمرة . وكانت هى تجتاز تلك الفترة الحاسمة من الحياة ، التى يساور فيها الندم قلب المرأة ، لبقائها وفية لزوجها الذى لم تحبه — فى الحقيقة — مطلقاً !.. تلك الفترة التى تبدأ فيها شمس جمالها فى الجنوح إلى المغيب ، منذرة بأنه لم يعد لها سوى فرصة أخيرة للاختيار :. فترة الصراع بين الأمومة والأنوثة .. هذه الفترة التى توافى المرأة بعد أن تكون قد خالت أن الحياة استقرت نهائياً ومنذ زمن طويل ، فإذا التفكير فى متعها يعاودها من جديد . وللمرة الأخيرة ، تتردد الإرادة بين الشهوة وبين الرضى والاستكانة إلى الأبد !.. وتضطر المرأة فى هذه الحقبة من حياتها إلى أن تتخذ أخطر قرار .. فإما أن تحيا حياتها الخاصة كامرأة وإما أن تحيا فى أبنائها كأم !

وكان (البارون) خبيراً بهذه الأمور ، ومن ثم خيل إليه أنه يلحظ عند صاحبته هذا التردد الخطر بين حب الحياة وبين التضحية . كانت دائماً تغفل — أثناء الحديث — الكلام عن زوجها ، الذى كان ، على ما يبدو ، غارقاً فى مشاغله الخارجية .. ولم تكن فى أعماق كيانها شديدة التعلق بابنها !.. كانت عيناه السوداوان تخفيان ضيقاً ، تفصح عنه كآبة تكدر صفو شعورها !.: وقرر البارون أن يشرع فى العمل على الفور ، ولكن مع تجنب كل مظهر ينم عن التسرع .. وكما يلقى الصائد بالطعم إلى صيده ليستثير شهيته ويستدرجه ، شاء (البارون) أن يقابل هذه الصداقة الجديدة بفتور ظاهرى :: ود أن يكون هو المطلوب ، فى حين أنه الطالب !.. فقد عقد العزم على إذلال هذه الكبرياء ، وعلى إبراز الفارق بين مركزه الاجتماعى ومركزها :. كانت تسيطر

عليه فكرة غزو هذا الجسم الجميل ، الممتلئ ، المتفتح كالزهرة ، بوسيلة واحدة هى : إبداء كبريائه ، مستعيناً على ذلك بما لاسمه من مكانة ارستقراطية مرموقة ، وبفتور واضح فى مظهره !

وما لبثت حمية اللعبة أن استولت على رأسه ، ففرض على نفسه التزام الحذر . ومن ثم لزم غرفته بعد الغداء ، وقد استمرأ الشعور بأن هناك من كان ينتظره ويأسف لغيابه . ولكن هذا الغياب المتعمد لم يثر اهتمام الشخص المقصود بالذات ، إذ أن السيدة لم تكن لتفطن إليه !.: ولكنه كان مبعث ألم قاس للصبى البائس .. فقد أحس (إدجار) طوال الأمسية بأنه منبوذ ، أو مهمل تماماً .. وقضى ساعات طويلة ينتظر صديقه فى وفاء الأطفال . وكان يخال أن الانصراف ، أو الانشغال بأى عمل ، لا يتفق وواجب الصداقة ، ومن ثم أخذ يسير متثاقلا فى الردهات على غير هدى ، وكلما مضى الوقت ازداد ضيقه !.. وكان القلق يحمله على التفكير فى كل احتمال .. فتصور أن صديقه ربما تعرض لحادث ، أو أن هفوة غير مقصودة بدرت منه فأغضبت الصديق .. بل إنه أوشك على البكاء لنفاد صبره ، وشدة حزنه !

* * *

● وعندما قدم البارون فى المساء — لتناول العشاء — ظفر باستقبال رائع . فقد جرى (إدجار) نحوه ، غير عابئ بأوامر أمه — التى نهته ، بصوت مرتفع — ولا بدهشة النزلاء الآخرين . وطوق الصبى صدر صديقه بذراعيه الواهنتين فى لهفة ، وهو يصيح فى انفعال : « أين أنت ؟.. أين كنت ؟.. لقد بحثنا عنك فى كل مكان !! » .

واحمر وجه أمه ، إذ أقحمها فى الأمر بهذا الشكل المعيب ، فقالت له فى غلظة ، بالفرنسية : «كن عاقلا يا (إدجار) .. اجلس ! » .. وكانت تخاطبه بالفرنسية دائماً برغم أنها لم تكن تملك ناصية هذه اللغة تماماً ، برغم أنها كانت سريعة الارتباك ، إذا اضطرت إلى الحديث عن تفصيلات على شىء من الدقة !.. وانصاع (إدجار) للأمر ، ولكنه لم يكف عن توجيه الأسئلة للبارون ، فقالت الأم لصغيرها معاتبة : « لا تنس أن للسيد أن يفعل ما يشاء .. وربما كانت صحبتنا تضايقه !» .

وهكذا كشفت — فى غير حذر — عما فى صدرها . وأحس البارون باغتباط ، إذ سلكت نفسها — بهذا العتاب — فى صحبته ، ومن ثم انقلب العتاب الموجه للطفل إلى مجاملة موجهة للرجل . وعلى الفور ، استيقظت غريزة الصائد الكامنة فى نفسه ، وتملكته نشوة وتحفز لما أصاب من توفيق سريع فى رسم الخطة الصحيحة ، ولشعوره بأن الصيد غدا قريباً جداً من مرمى بندقيته !.. فأبرقت عيناه ، وجرى الدم خفيفاً فى عروقه ، وتدفقت الكلمات من شفتيه دون أن يعرف كيف كانت تتدفق !.. كان — ككل رجل مشغوف بالعلاقات الغرامية — لا يدرك أنه ما يكاد يروق فى عينى امرأة ، حتى تتأجج مشاعره .. فهو — فى هذا — يشبه الممثل : لا يلتهب إلا عندما يرى جمهور النظارة خاضعاً لسحره ، منصاعاً لسيطرته !.. وكان يجيد سرد القصص المليئة بالصور الخلابة .. فأخذ ، فى ذلك المساء ، يروى قصصاً عن رحلات قام بها للصيد والقنص فى الهند ، بدعوة من صديق له من الطبقة الاستقراطية الإنجليزية . وكان يقبل خلال الحديث

على احتساء كئوس الشمبانيا التى راح يطلبها — بين آن وآخر — احتفاء بالصداقة الجديدة ، مما جعله يتجاوز فى الحديث كل ما كان يرتقب من إمتاع !.. والواقع أنه كان بارعاً فى انتقاء هذا الموضوع مادة لحديثه ، إذ كان المجال فيه واسعاً للخيال ، كما أنه كان — بما فيه من تجارب خارقة ، وصور نادرة — مثيراً بطبيعته للمرأة . ومع ذلك ، فقد كان (إدجار) أكثر من أمه تأثراً وانبهاراً بهذه القصص ، وقد تجلى اغتباطه بها فى بريق عينيه .. إذ نسى الطعام والشراب ، وأخذ يحدق فى وجه الراوية ، وكأنه يقتنص الكلمات من شفتيه !.. فما كان يحلم يوماً بأنه سيرى رجلا عاش فى تلك الأحداث الجسام التى اعتاد أن يقرأ عنها فى الكتب : صيد النمور ، وقصص الرجال ذوى الوجوه البرونزية ، وعجلات (جيدجرنو) — مركبات الحرب لدى الهنود — الرهيبة ، التى تسحق تحتها آلافاً من الآدميين ؟.. لم يكن يصدق — قبل الآن — أن لمثل هؤلاء الأبطال وجوداً حقيقياً ، ولا كان يؤمن أيضاً بوجود تلك البلاد التى يرد ذكرها فى القصص . لذلك أثارت هذه المناسبة فى نفسه اهتماماً شديداً ، فلم يكن فى وسعه أن يحول عينيه عن صديقه ، بل علقت نظراته — وكل إدراكه وحسه — بوجه صديقه ويديه .. هذا الرجل الذى قتل نمراً !.. ولم يكن يجرؤ على توجيه أى سؤال .. وحتى حين استطاع السؤال ، انبعث صوته متهدجاً كالمحموم ! وكان خياله السريع يصور له كل مشهد من القصة السحرية .. كان يتمثل صديقه ممتطياً ظهر الفيل فى هودج أرجوانى ، وإلى يمينه ويساره وجوه برونزية ، فوقها عمائم ضخمة !.. و[illegible] وقد لمعت أنيابه

بغتة ، وهو يقفز خارج الغابة ، ويثب منشباً مخالبه فى خرطوم الفيل !؟ ثم قص البارون شيئاً أدعى إلى الاهتمام ، فتحدث عن الحيلة التى يقتنصون بها الفيلة ، إذ يستدرجون صغارها المرحة إلى حفر ، مستخدمين فى التغرير بها حيوانات مسنة مدربة . وكانت عينا الصبى تتألقان انفعالا ، وهو يتخيل أمامه مدية تلمع وتغوص فى الفريسة !

* * *

● وما لبثت الأم أن قالت : « لقد بلغت الساعة التاسعة .. هيا إلى النوم ! » .. فشحب وجه (إدجار) لهذا الإنذار الذى بدد سحر المناسبة !.. وكم يجد الأطفال فى إرسالهم إلى الفراش عقاباً قاسياً ، إذ يرون فيه إهانة بالغة توجه إليهم أمام الأشخاص الكبار ، كما يرون فيه دليلا على أنهم أضعف وأحط مقاماً من أولئك الكبار !.. ولكم كان أليماً أن تعمد أمه — فى أكثر اللحظات استثارة لمشاعره — إلى حرمانه من معرفة الخاتمة التى انتهت إليها تلك الحوادث الفريدة المشوقة ومن ثم قال لها : « دعينى أستمع لهذه فقط يا ماما .. هذه فقط .. قصة الفيلة .. هذه القصة فقط ! » .. وهم بأن يلحف فى التوسل ، ولكنه سرعان ما تذكر كرامته كشخص من (الكبار) ، فلم يزد على المحاولة ، مقلعاً عن الإلحاح ! على أن أمه أبدت فى ذلك المساء صرامة لم يعهدها الصبى من قبل ، إذ قالت : « قلت : لا .. لقد تأخر الوقت .. اصعد إلى غرفتك ، وكن عاقلا يا إدجار .. سأقص عليك كل القصص التى سأسمعها بحذافيرها » .. وتردد (إدجار). كان من عادة أمه أن تصحبه دائماً إلى الفراش .. ولكنه أراد أن يتفادى الحط

من قدر نفسه أمام صديقه إذا هو بدا فى مظهر المتوسل .. وأوعزت إليه كبرياؤه الناشئة بأن يضفى على هذا الرحيل المحزن شكل الطاعة الاختيارية ، فقال : « أصحيح يا ماما أنك ستقصين على كل شىء ؟.. كل شىء ؟.. قصة الفيلة والقصص الأخرى ؟ »

— أجل يا بنى .. بعد قليل ..

— فى هذه الليلة بالذات ؟

— نعم ، نعم .. أما الآن ، فاذهب إلى فراشك !

وعجب (إدجار) من نفسه ، إذ استطاع أن يمد يده — دون أن يحمر وجهه — ليحيى البارون وأمه ، وهو يخنق تنهداته فى صدره ، حتى لا ينفجر بالبكاء . ووضع البارون أصابعه فى شعر الصبى ملاطفاً وارتسمت ابتسامة مغتصبة على وجه الصغير المغيظ .. ولكنه ما لبث أن هرول نحو الباب .. ولو لم يفعل لشوهدت عبرات سخينة تنساب على خديه !

* * *

● بقيت الأم بعض الوقت فى قاعة الطعام مع البارون ، بعد انصراف ابنها . على أن الرجل لم يعد يتكلم عن الفيلة ، ولا عن الصيد .. وساد حديثهما — منذ مغادرة الغلام القاعة — بعض الاضطراب والضيق .. وأخيراً ، انتقلا إلى الردهة ، وجلسا فى أحد الأركان . وهناك ، لم يلبث (البارون) أن استعاد ثباته وبدا متزايد الحمية ، كما كانت هى أيضاً منتشية بفعل الشمبانيا ، فلم يلبث الحديث أن جنح بهما إلى اتجاه خطر ..

ولم يكن البارون – فى الواقع – بالرجل الذى يوصف بالجمال .. ولكنه كان فى فتوة الشباب ، تبدو عليه سمة الرجولة الكاملة ، ينم عنها وجهه القمحى وشعره القصير .. وأعجبت المرأة – أيما إعجاب – بما كان يستبيحه لنفسه من حركات مرحة ، متحررة ، وشعرت بارتياح لوجوده بقربها ، فلم تعد تتهيب عينيه !.. وشيئاً فشيئاً ، اتسم حديث (البارون) بجرأة اضطربت لها ، كأنما كان فى عباراته شىء يمسك بجسمها ويتحسسه ثم يتركه !.. وداخلها شعور جامح كان يدفع الدم إلى وجنتيها .. ولكنها سرعان ما أخذت تضحك ، غير عابئة بشىء ، وفى مرح كمرح الأطفال . وما كانت تعلم أنها كانت تفصح بهذا المرح ، عن ميلها إلى البارون بصورة صبيانية !.. وكانت أحياناً تهم بصد ما يتجاوز حد اللياقة من الحديث فى صرامة .. ولكن طبيعتها المرحة كانت تغلبها على أمرها ، فتتطلع إلى المزيد منه !.. ثم انتهى بها الأمر إلى محاولة تقليد (البارون) والنسج على منواله !.. ومن ثم أخذت ترد على عباراته بوعود غامضة ، وعيناها تحدقان فيه . وما لبثت أن بدأت تستسلم بكلماتها وحركاتها ، فأخذت تبيح لنفسها الاقتراب منه .. وازداد دنو صوته من سمعها ، وأحست بحرارة أنفاسه تلفح منكبيها . وككل العابثين ، لم يحسا بالوقت ، إذ استغرقتهما حرارة الحديث ، حتى فوجئا ببعض مصابيح الردهة ، تطفأ إيذاناً بانتصاف الليل !

ونهضت إذ ذاك ، مذعورة مما اندفعت إليه ، وأوغلت فيه ، بهذه السهولة !.. حقيقة أن اللعب بالنار لم يكن شيئاً جديداً عليها ،

ولكن عقلها الباطن أخذ يوحى إليها بأنها – فى هذه المرة – قد ذهبت فى الشوط بعيداً . واكتشفت فى جزع ، أنها لم تعد تسيطر على نفسها سيطرة تامة ، وأن شيئاً ينساب فى كيانها ، فينذر بانسياقها نحو صراع عنيف !.. وأحست بدوار ، وكأنها تعيش فى دوامة من الخوف والثمل وحرارة الحديث ، واستولى عليها وجل مبهم ، لم تفقه له معنى .. وجل عرفته من قبل فى لحظات مماثلة ولو أنها لم تعهده بهذه الشدة وذلك العنف !

وقالت وهى تهم بالانصراف : « طابت ليلتك !.. طابت ليلتك !. إلى صباح غد ! » .. ولم تكن تبغى الهرب من البارون بقدر ما كانت تبغى الهرب من خطر هذه اللحظة ، وخطر ذلك الاضطراب الطارئ الغريب الذى ساور نفسها !.. بيد أن (البارون) استبقى – فى إصرار رقيق – اليد التى مدتها له ، وقبلها .. لا مرة واحدة ، كما يقضى بذلك عرف المجاملة ، بل أربع أو خمس مرات ، وشفتاه المرتعشتان توزعان القبلات على أطراف أناملها وعلى رسغها . وتولتها انتفاضة حين لامس شاربه ظهر يدها . وسرت فى جسمها نفحة من دفء ، فخفق قلبها فى عنف ، وأحست كأن رأسها يتقد .. كان ثمة ألم ممض .. ألم لا مبرر له ، يملك عليها مشاعرها ، فجذبت يدها بغتة من قبضته !

وقال البارون متوسلا : « ألا امكثى قليلا ! » .. ولكنها بادرت بالابتعاد فى سرعة كشفت ما كانت تعانيه من اضطراب .. فقد أحست بأنها بلغت درجة الانتشاء التى كان الطرف الآخر يبتغيها !.. وأدركت حقيقة كل ما كان يساورها من انفعال .. كانت تهب

الخوف الملتهب من أن يحتويها الرجل الذى خلفته وراءها بين ذراعيه، بيد أنها لم تكد تبتعد عنه ، حتى أحست بحسرة لأنه لم يضمها فعلا !.. كان من المحتمل أن يحدث فى هذه اللحظة ما كانت تبتغيه — وإن لم تفطن — منذ سنوات .. كان من الممكن أن تقع المغامرة التى كانت جوارحها تهفو إليها .. المغامرة التى تمتزج فيها الأنفاس ، والتى كانت تكبح نفسها عن خوضها حتى الآن .. المغامرة الكبرى ، الخطرة ، لا مجرد التودد العارض والانفعال الوقتى !.. ولكن البارون كان من الاعتزاز بنفسه بحيث لم يشأ أن يتهافت على طلب هذه اللحظة .. فقد كان على ثقة من أنه لن يلبث أن يظفر بهذه المرأة ، فلماذا يتصرف كاللص ، فيقتنصها فى لحظة من لحظات الضعف ، مستعيناً بنشوة الخمر ؟!.. كان صياداً أميناً ، يستمرئ النضال الذى ينتهى باستسلام الفريسة طواعية ، وهى فى كل وعيها ومشاعرها !.. محال أن تفلت منه . كان يعرف أن السم الملتهب أخذ يسرى فى عروقها .

* * *

● ووقفت لحظة فى أعلى السلم ، ويدها تضغط قلبها اللاهث :: كانت أعصابها منهارة . وندت منها زفرة نمت عن ارتياحها — إلى حد ما — لإفلاتها من خطر داهم ، كما نمت فى الوقت نفسه عن بعض الندم !.. ولكن هذا الندم وذاك الخطر ، كانا يساورانها فى غموض مبهم : وأحست بشبه دوار خفيف ، فتحسست طريقها عبر الممر ، وعيناها مغمضتان ، وجسمها يترنح كما لو كانت ثملة ، واتجهت نحو

باب غرفتها .. ولم تتمالك أنفاسها المتهدجة ، إلا عندما أمسكت بمزلاجه البارد .. فقد شعرت إذ ذاك بأنها فى أمان !

ودفعت الباب أمامها فى رفق ، ثم تراجعت مجفلة ، إذ كان فى الغرفة شىء ما أخذ يتحرك فى الظلام . واهتزت أعصابها المهتاجة بشدة ، وهمت بالاستغاثة ، غير أنها سمعت صوتاً مثقلا بالنعاس ، ينبعث واهناً من أعماق الغرفة قائلا : « أهذه أنت يا ماما ؟ »

— بربك قل لى : ماذا تصنع هنا ؟

وأسرعت نحو السرير الذى كان (إدجار) نائماً فيه ، ثم نهض عنه ، عندما أيقظه مقدمها . وظنت الأم — أول الأمر — أنه مريض ، وأنه لجأ إلى مخدعها ينشد إسعافاً لديها .. ولكن (إدجار) قال فى عتب هين ، وهو يغالب النوم: « لقد انتظرتك طويلا، ثم غلبنى النوم !» :

— ولماذا انتظرتنى ؟

— لأجل الفيلة !

— أية فيلة ؟

وفجأة ، أدركت ما كان يعنى .. تذكرت أنها وعدت الصبى بأن تقص له — عندما تعود — كل شىء عن الصيد والمغامرات :: ولهذا تسلل الغلام الساذج الأبله إلى مخدعها وانتظرها ، فى ثقة تامة ، فلما طال غيابها ، غلبه النعاس فنام .. واستشاطت غضباً لهذا التصرف الأحمق ، ولكنها — فى قرارتها — أحست بشىء من السخط على نفسها وبشىء من الخجل الذى يساور من يشعر بذنب ، وحاولت أن تخفف



ولكن (ادجار) قال فى عتب هين ، وهو يغالب النوم :
« لقد انتظرتك طويلا ، ثم غلبنى النوم ! »

من هذا الشعور ، فصاحت فى الصبى : « اذهب فوراً إلى الفراش ، أيها الصغير الوقح ! » :

ونظر إليها (إدجار) دهشاً .. ترى ما الذى أغضبها منه ؟ :: لم يكن قد أتى ذنباً معيباً .. على أن هذه الدهشة ، وما صاحبها من تلكؤ ضاعفا من غضب الأم ، فنهرته صائحة : « اذهب حالا إلى غرفتك ! » .: وكانت غاضبة — فى الواقع — لأنها كانت تعرف أنها المخطئة !

وانصرف (إدجار) دون أن ينبس ببنت شفة . والحق أنه كان متعباً غاية التعب .. وكان فى غفوة النوم ، لا يشعر بغير إحساس غامض أوحى إليه بأن أمه لم تف بوعدها ، وأن سلوكها معه كان جائراً . بيد أنه لم يثر ، إذ تغلب الإعياء على كل شىء فيه ، وإن أبقى على شىء من الاستياء ، جعله يلوم نفسه على انصياعه للنوم ، فى وقت كان ينبغى فيه أن يظل مستيقظاً ، فكان بذلك « كالطفل الرضيع ! » .. وأخذ يردد فى نفسه هذه العبارة مغيظاً .. حتى غشيه النوم من جديد . فقد تولته منذ أمس كراهية نحو .. طفولته !

* * *

الفصل الخامس

● كان نوم البارون فى تلك الليلة مضطرباً .. فإن النوم لا يواتى المرء – عادة – بعد مغامرة غرامية لم تكتمل !.. كانت ليلته قلقة ، حافلة بالرؤى المزعجة ، مما جعله يأسف سريعاً لأنه لم يفد – فى جرأة – من الفرصة التى سنحت له !.. فلما هبط من غرفته فى الصباح التالى ، لم يكن قد تخلص بعد من آثار السهر والقلق ، فبدا متبرماً من نفسه :. وخرج الصبى من ركن كان يختبئ فيه ، وقفز نحوه فأحاطه بذراعيه مغتبطاً ، وأخذ يمطره وابلا من الأسئلة .. كان سعيداً بأن ينفرد مرة أخرى بصديقه الكبير ، لحظة لا تشاركه فيها أمه !.. وأخذ يردد القول بأن البارون كان خايقاً بأن يروى كل شىء له وحده ، لا لأمه :. فإن أمه قد حنثت بوعدها ، ولم تنقل له شيئاً من تلك القصص العجيبة !.: وراح يوجه إلى البارون سيلا من سفاسف الأطفال وثرثرتهم ، حتى ضاق به الرجل الذى لم يقو تماماً على إخفاء ما كان عليه مزاجه من توعك !

وهكذا كان البارون يجيب على أسئلة الصبى عابساً ، مقطب الجبين .. كانت ملاحقة الصبى له ، هذه الملاحقة التى لا تنتهى والتى تنطوى على إيحاء برقابة دائمة :. وهذه الأسئلة الخالية من المعنى :: وهذه اللهفة الثقيلة ، الممضة :. كل هذه الأمور بدأت تضايقه !.: كان قد مل التجوال – هنا وهناك – طوال النهار ، مع غلام فى الثانية عشرة ، وسئم التكلم معه فى سخافات تافهة ، وأصبح يصبو إلى أن يكون

وحده مع الأم :. فبدأ يستشعر الضيق ، ويبديه فى وجه هذا الغلام الغض !.. ولكن لما كان قد أيقظ فضول هذا الصغير وعواطفه ، دون انتباه منه أو حذر ، فقد أضحى من الصعب عليه التماس الوسيلة ليتخلص من ملازمته له !

على أنه لم ير بدأ من تحمله ، ريثما تحين الساعة العاشرة .. فقد كان على موعد مع الأم ، فى تلك الساعة ، لينطلقا فى نزهة !.. ومن ثم ترك الصبى سادراً فى ثرثرته دون أن يلقى إليه بالا ، متشاغلا بقراءة إحدى الصحف ، وإن حرص على أن يوجه إليه بعض كلمات بين آن وآخر ، حتى لا يجرح شعوره . حتى إذا حانت الساعة العاشرة أخيراً ، تظاهر بأنه تذكر فجأة أمراً ما ، ورجا (إدجار) أن يذهب إلى الفندق المجاور ، فيسأل – بالنيابة عنه – عما إذا كان ابن عمه الكونت (جريندهم) قد وصل !

وهرع الصبى الساذج نحو الفندق ، سعيداً بأن يكون فى مقدوره – أخيراً – أن يؤدى خدمة لصديقه ، فخوراً بأن يرتفع إلى مرتبة رسول شخصى له !.. وأخذ يعدو فى جنون ، حتى لقد كان الناس ينظرون إليه دهشين !.. بيد أنه كان حريصاً على أن يثبت للبارون مدى نشاطه وسرعته ، عندما يعهد إليه بمهمة !.. وقيل له فى الفندق: إن الكونت لم يصل بعد ، ولم يعلن الإدارة عن موعد قدومه : وعاد بهذه الإجابة وهو أكثر إسراعاً فى جريه من ذى قبل . ولكن البارون كان قد غادر الردهة . فطرق الصبى باب غرفته ، دون جدوى .. وما لبث أن جرى فى قلق نحو قاعة الجلوس والمقهى ، ثم أسرع إلى

غرفة أمه ليسألها عما ينبغى أن يفعل ، ولكنها لم تكن هناك ، هى الأخرى ! وأخيراً ، سأل البواب ، فى محاولة يائسة ، فعلم منه أنهما خرجا معاً منذ دقائق . وأثار هذا الجواب دهشة الصبى !

* * *

● وانتظر (إدجار) عودتهما نافد الصبر . ولم يساوره – لسذاجته – أى ريب ، بل كان موقناً من أنهما لن يغيبا سوى بضع لحظات ، إذ قدر أن يكون البارون فى حاجة إلى الجواب الذى يحمله له : بيد أن الساعات تتابعت ، دون أن يعودا ، فأخذ القلق يتسرب إليه ؛ والواقع أن الصغير عرف القلق منذ الصباح الذى ظهر فيه ذلك الرجل الغريب الفاتن فى سماء حياته الصغيرة !.. والانفعال ، مهما يكن تافهاً ، يترك فى النفس الغضة – نفس الطفل – أثراً يشبه الحفر على الشمع !.: إذ ما لبثت أن عاودت الصبى تلك الرعشة العصبية التى كانت تهز جفنيه ، وأخذ وجهه يزداد شحوباً .

وظل ينتظر طويلا .. صابراً فى أول الأمر ، ثم مضطرباً أشد الاضطراب ، حتى أوشك فى النهاية أن يجهش بالبكاء !.. على أنه لم يكن حتى ذلك الوقت قد أساء الظن بشىء ، إذ كان – فى ثقته العمياء بصديقه الرائع – لا يرى أكثر من أنه ربما قد أساء السمع ، فراح يتعذب خوفاً من أن يكون قد أخطأ فهم المهمة التى عهد إليه (البارون) بها !

ولكن شد ما كان عجبه حينما رآهما – وقد عادا فى النهاية – يواصلان حديثهما فى مرح ، دون أن يبديا أية دهشة !.: كان يبدو

أنهما لم يأسفا قط لغيابه !.. بل إن البارون لم يسأله قط عن المهمة التى كان قد عهد إليه بها ، وإنما قال له : « لقد سبقناك يا (إدى) – (اسم التدليل لإدجار) – وكنا نحسب أننا سنلقاك فى الطريق ! » .. وإذ خشى الصبى أن يكونا قد بحثا عنه ولم يجداه ، راح يؤكد أنه إنما سار فى الشارع الرئيسى مباشرة ، وأراد أن يعرف فى أى اتجاه ذهبا ، فأسكتته أمه بغتة قائلة له : « كفى . ليس للأولاد أن يثرثروا هكذا » .. واحمر وجه الصبى غضباً . وكانت هذه هى المرة الثانية التى تحاول فيها أمه أن تجرح شعوره أمام صديقه !.. ترى لم تفعل هذا ؟.. لماذا تحاول دائماً أن تظهره بمظهر الأطفال ، مع أنه – كما كان موقناً ! – لم يعد منهم ؟.. لا شك أنها كانت تغار منه على صديقه ، وتحاول أن تحرمه منه !.. أجل ، ومن المؤكد كذلك أنها هى التى قادته فى طريق غير الشارع الرئيسى لكى لا يلتقى به .. ولكنه لن يدعها تسىء إليه ، وسوف ترى ذلك .. سيقاومها ! وعقد إدجار العزم على ألا يبادل أمه كلمة أثناء تناول الطعام ، وأن يوجه الخطاب إلى صديقه وحده !

* * *

● بيد أن الصبى وجد مشقة فى ذلك ، إذ حدث ما لم يكن يتوقعه .. لم ينتبه أحد منهما إلى تحديه الصامت . أجل ، كانا لا يكادان يشعران بوجوده ، هو الذى كان بالأمس محور حديثهما !.. كانا يتحادثان فى منأى عنه ، ويضحكان ، ويتداعبان ، وكأنه تلاشى من وجودهما !.. فتصاعد الدم إلى وجهه ، وأحس بغصة فى حلقه كادت تخنقه .. وأخذ يرتجف فرقاً وهو يذكر عجزه الأليم .. أفحتم عليه إذن أن يبقى أمامهما

جالساً فى هدوء ، ينظر إلى أمه وهى تنتزع منه صديقه .. هذا الشخص الوحيد الذى أحبه ؟.. أو ليس فى وسعه أن يدافع عن نفسه بغير الصمت ؟

وشعر فجأة بحافز يدفعه إلى النهوض ، وإلى أن يدق المائدة بقبضتيه ، لا لشىء إلا لكى ينتبها إلى وجوده ! .. بيد أنه كظم غيظه ، وضبط نفسه ، واكتفى بأن ترك شوكته وسكينه جانباً وتوقف عن الأكل : ومضى وقت طويل دون أن يعير أحدهما هذا الصغير العنيد أى التفات ، ولم تفطن الأم لأمره إلا عندما قدم إليهم آخر ألوان الطعام ، فسألته عما إذا كان يشكو من شىء .. فقال الصبى لنفسه : « هذا فظيع :: إنها لا تفكر دائماً إلا فى أن تطمئن إلى أننى لست مريضاً .. وكل ماعدا هذا يستوى عندها ! » .

وأجاب فى جفاء بأنه لا يحس ميلا للأكل ، فلم تسأله إيضاحاً !.: لم يقو شىء ما على اجتذاب انتباههما إليه .. لا شىء ، على الإطلاق ! .. ولاح أن (البارون) قد نسى وجوده ، إذ لم يوجه إليه الكلام مرة واحدة ! .. وازداد (إدجار) شعوراً بالرغبة فى البكاء ، فلم يجد بداً — فى النهاية — من أن يركن إلى هذه الحيلة من حيل الصغار للتنفيس عن كربهم .. وتناول المنشفة بسرعة يجفف بها الدموع التى انسابت على خديه ورطبت شفتيه ، قبل أن يفطن أحد إليها .:

ولم يتنفس الصعداء ارتياحاً ، إلا بعد أن انتهى الغداء : وكانت أمه قد اقترحت — أثناء الأكل — أن يقوموا بنزهة ، فى عربة ، إلى (ماريا شوتز) ، فعض (إدجار) شفتيه ، إذ سمعها تعلن هذا الاقتراح::

إنها بهذا الأسلوب لم تعد تريد أن تتركه يخلو إلى صديقه لحظة واحدة .: ولكن غضبه اشتد استعاراً فجأة ، حين قالت أمه أثناء مبارحة المائدة : « إنك توشك يا إدجار أن تنسى كل ما تعلمت فى المدرسة .. إنك تحسن صنعاً إذا مكثت — ولو مرة — فى المنزل ، لتراجع دروسك ! » :

وضم قبضتيه الصغيرتين ، مرة أخرى ، فى غيظ .. إنها ما تزال تحاول الحط من قدره أمام البارون ، وتذكير الناس بأنه مازال طفلا ، وبأن عليه أن يذهب إلى المدرسة ، وألا مكان له بين الكبار ، إلا أن يكون ذلك على سبيل التسامح . ولكن تعمدها هذا كان أكثر إساءة فى هذه المرة ، فلم يجب ، وإنما استدار إلى الناحية الأخرى .. فقالت أمه وهى تبتسم : « هل يسوؤك هذا أيضاً ؟ » ، ثم أضافت مخاطبة البارون : « هل يسوؤه حقاً أن ينصرف ساعة للدرس ؟ » .. وإذ سمع الصبى هذا ، أحس كأن شيئاً تجمد وتحجر فى قلبه ، بينما قال البارون — البارون الذى كان يزعم أنه صديقه ! — « لا .. إن ساعة أو ساعتين من الدرس لا يضيرانه فى شىء ! » :

« أهما متفقان فيما بينهما ؟ .. أهما حقاً قد تحالفا ضده ؟ ! » .. واتقد الغضب فى عينى الصبى ، فاندفع يقول بكل ما يتيحه له دلال الطفل المريض من قوة : « لقد أمر أبى بألا أؤدى أى عمل هنا .. أبى يريدنى أن أستريح ! » .: وتشبث — فى يأسه — بسلطة أبيه . وكان فى جوابه ما يشبه التهديد ! .. ومما هو أدعى للدهشة أن لفظ « أبى » أحدث لدى الأم والبارون معاً شعوراً بالاستياء ، فأشاحت الأم ببصرها ، وأخذت تطرق المائدة بأصابعها فى حركة عصبية ، وقد ساد بينهم صمت أليم .

وقال البارون آخر الأمر مصطنعاً الابتسام : « فليكن ما تريد يا إدى ! » .. ثم أردف قائلا : « أنا لست مضطراً إلى أداء امتحان ، فقد رسبت فى جميع المواد منذ زمن بعيد ! » .

ولكن (إدجار) لم يبتسم لهذه الفكاهة ، وإنما ألقى على البارون نظرة ثاقبة ، فاحصة ، وكأنه يريد أن ينفذ إلى قرارة نفسه .. ترى ماذا حدث ؟ .. لقد تغير بينهما شىء ما لم يفهمه الصبى : وشردت عيناه فى قلق ، وتسارعت نبضات قلبه الصغير .. فقد بدأ الشك يساوره ! !

* * *

● « ما الذى غيرهما إلى هذا الحد ؟ ! » .. هكذا أخذ الغلام يفكر فى الأمر طوال الطريق ، وهو جالس فى مواجهتهما داخل العربة .. « لماذا لم يعودا – بالنسبة لى – كما كانا من قبل ؟ ! .. لماذا أصبحت أمى تتفادى نظراتى عندما أوجهها إليها ؟ ! .. لماذا يحاولان دائماً أن يبدوا أمامى مرحين ، لطيفين ؟ ! .. إنهما لم يعودا يخاطبانى كما كان شأنهما معى أمس ، وأول من أمس . بل إننى أكاد أقول إن وجهيهما لم يعودا نفس الوجهين اللذين عهدتهما لهما .. فشفتا أمى – اليوم – شديدتا الاحمرار ، ولابد أنها استعملت طلاء لتكسبهما هذا اللون .. وهو مالم أرها تفعله قط ! .. أما هو – البارون – فقد أضحى عابساً باستمرار وكأننى جرحت شعوره ، فى حين أننى لم أرتكب ما يسوؤهما ، بل لم أنبس بكلمة واحدة يمكن أن تمسهما ! .. لا ، لا يمكن أن أكون أنا السبب فى تغيرهما . هما اللذان تغيرا .. تغير كل منهما بالنسبة للآخر ، حتى ليخيل للمرء أنهما يدبران أمراً لا يجرؤان على البوح به ، ولو فيما

بينهما ! .. لقد أصبحا لا يتكلمان كما كانا يتكلمان أمس ، ولم يعودا يضحكان ، وإنما تملكهما ضيق ووجوم ! .. لابد أنهما يخفيان سراً لا يريدان أن أعرفه .. ولكن ، لابد لى من أن أعرفه .. بل لعلنى أعرفه .. لعله ذلك السر الذى تغلق الأبواب فى وجهى دونه دائماً .. هذا السر الذى تبحثه الكتب ، وتشرحه « الأوبريت » عندما يغنى الرجل والمرأة وجهاً لوجه ، وقد بسطا أذرعهما ، وعندما يتعانقان ويتباعدان ! .. لابد أنه من نوع ما حدث للمعلمة التى كانت تلقننى اللغة الفرنسية ، والتى كان سلوكها مع أبى شائناً ، مما أدى إلى فصلها فيما بعد ! .. هذه الأمور جميعاً تتشابك .. إنى لأحس بهذا السر ، وإن لم أدر كنه هذا الإحساس .. لكم أتوق إلى معرفة هذا السر ! .. لكم أتوق إلى أن أمسك بيدى ذلك المفتاح الذى يفتح أمامى كل الأبواب ! .. لكم أتوق إلى اليوم الذى أشب فيه عن الطوق فلا أعود طفلا يخفون عنه كل شىء .. ولا يعود ثمة تغرير أوخداع ! .. يجب أن أعمل الآن ، وإلا فلن أعرف .. إلى الأبد ! .. لسوف أنتزع منهما هذا السر الخطير !

وتجعدت أساريره ، فبدا الغلام الهزيل ، الذى لم يجاوز الثانية عشرة ، كشيخ طاعن فى السن ، وهو ماض على هذا النحو فى تفكير جدى دون أن يلقى نظرة واحدة على المشهد الذى كان ينبسط حوله فى ألوان زاهية : الجبال وقد اكتست بخضرة غاباتها ، والأودية تبتسم للربيع الذى تأخر عن موعده . لم يحفل مطلقاً بغير الوجهين المقابلين له ، فوق مقعد العربة ، وكأنه كان يسعى إلى اصطياد السر المختبىء فى أعماق عيونهما ، كما يفعل صائد السمك حين يلقى بالشص فى الماء !

على أنه لايشحذ العقل مثل الشك الملتهب ، وليس أدعى لتفتح الذهن الذى لم يستكمل نضوجه ، من غوامض تثير هواجسه !.: ولا يفصل — أحياناً — بين النشء وبين ما نسميه عالم الحقيقة والواقع سوى معبر صغير يجتازونه بدفعة من يد القدر ، فإذا الباب مفتوح أمامهم على مصراعيه !

● ووجد (إدجار) نفسه بغتة أقرب ما يكون إلى (المجهول !) :: إلى السر الخطير ، منه فى أى وقت آخر . كان يحسه — هنا — أمامه ، ومع ذلك كان بعيداً عن متناوله مستعصياً على وعيه : ولكنه برغم هذا كله كان جد قريب منه ! .. وأثاره هذا الإحساس الذى خلع عليه وقاراً ضافياً ، مباغتاً ، فقد أدرك ، دون أن يفطن ، أنه قد بلغ نهاية طفولته !

وكان صاحبا السر الجالسان فى مواجهته ، يحسان بمقاومة صامتة لا قدرة لهما على معرفة كنهها ، وما خطر ببالهما أنها كانت صادرة عن الغلام ، وإن خيل إليهما أن العربة تضيق بثلاثتهم ! .. وأخذت العينان اللتان كانا يريانهما أمامهما ، والحرارة القاتمة التى تنبعث من أغوارهما ، تثير فى نفسيهما اضطراباً وضيقاً ، فلم يجرؤا على الحديث إلا لماماً :: ولماماً كانا يتبادلان النظرات !.. لم يعودا يهتديان إلى طريق ذلك الحديث المرح ، الذى اعتادا تبادله كثيراً من قبل . كانا قد أوغلا فى طريق الأسرار المحرقة ، حيث الكلمات المثيرة ، التى تفعل فعل الغزل الخليع واللمسات الخفية — مجتمعين ! .. وكانا كلما هما بالعودة إلى

الحديث ، اصطدما — فى كل مرة — بهدوء الغلام المصر على صمته فى عناد !

وكان هذا الصمت ثقيلا على نفس الأم بنوع خاص ، فأخذت ترمق الصبى من ركن عينيها فى حذر .. واكتشفت من مسلكه — إذ زم شفتيه — شبهاً بينه وبين زوجها عندما يكون منفعلا أو مغضباً ! :. وشق على نفسها أن تضطر إلى تذكر هذا الرجل ، فى نفس اللحظة التى تجمعها فيها والبارون مغامرة غرامية ! .. كان الغلام ، بعينيه المكتئبتين الفاحصتين ، وبالتربص البادى على جبينه الشاحب ، يبدو لها كشبح عهد إليه أن يراقب ضميرها ، ولهذا لم تعد تطيق وجوده معها ، فى تلك العربة الضيقة ، حيث لا تفصله عنها سوى عشر بوصات !

والتقى بصرها ببصر (إدجار) لحظة ، فخفض كل منهما عينيه ، إذ أدركا أن كلا منهما كان يرقب الآخر خلسة . ولقد كان كل منهما — إلى هذه اللحظة — يثق بالآخر ثقة عمياء ، أما الآن فقد أصاب علاقتهما شىء من التغيير ، إذ شرع كلاهما يرقب الآخر ، ويفصل مصيره عن مصيره ، وفى قلب كل منهما نحو صاحبه بغض خفى ، كان من الجدة والغرابة بحيث لم يجسرا على إظهاره أو الإفصاح عنه !

وتنفس ثلاثتهم الصعداء عندما وقفت العربة عند باب الفندق عائدة بهم إليه . كانت نزهة جانبها الحظ .. ولقد أحسوا جميعاً بذلك ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على الجهر به !.. ونزل (إدجار) من العربة قبل الآخرين ، وتعللت أمه بأنها تعانى صداعاً ، ثم أسرعت بالصعود إلى غرفتها ، إذ كانت متعبة ، وتتوق إلى أن تخلو إلى نفسها . ودفع

البارون أجر الحوذى ، ثم ألقى نظرة على ساعته ، واتجه نحو الردهة غير حافل بالغلام الذى ظل واقفاً .. بل لقد مر أمامه بقامته الممشوقة ، وخطواته الرشيقة — التى بلغ من إعجاب الصبى بها أن حاول بالأمس تقليدها — فسار فى طريقه لا يلوى على شىء ؟. كان واضحاً أنه قد نسيه ، فتركه فى هذا المكان مع الحوذى والخيل كما لو كان غريباً عنه !

* * *

● وأحس (إدجار) كأن شيئاً تحطم فى كيانه ، حين رأى صديقه يفعل هذا .. صديقه الذى أحبه إلى درجة العبادة ، برغم كل شىء ! .. ودب اليأس فى قلبه عندما ابتعد البارون عنه مسرعاً ، دون أن يحف به طرف معطفه ، ودون أن ينبس بكلمة واحدة له ، هو الذى لم يرتكب خطأ ما ! .. ولم يقو على الاحتفاظ بثباته الذى أشقاه كثيراً أن يحتفظ به حتى الآن ! .. وسقط عن منكبيه الواهنين ثقل الكرامة المصطنعة ، فعاد طفلا .. طفلا صغيراً ، تافهاً ، كما كان بالأمس ، وكما كان دائماً من قبل . وجرى خلف البارون ، على الرغم منه ، بخطى سريعة مضطربة ، ووقف أمامه وهو يهم بصعود السلم ، ثم قال له بصوت مختنق وهو يحبس عبراته بمشقة : « ماذا ارتكبت فى حقك حتى أنك لم تعد تعيرنى أى التفات ؟ ! .: لماذا تغيرت معاملتك لى ؟ .: وماما أيضاً ! .. لماذا تريدان دائماً إقصائى عنكما ؟ هل أضايقكما ؟ هل صدر منى ما يعيب ؟ ! » .

وارتجف البارون .: فقد كان فى صوت الصبى شىء أخجله ، وحمله على أن يتلطف إليه : وداخله إشفاق على الغلام البرىء ، فقال :

« إنك أحمق صغير يا (إدى) .. لقد كنت اليوم عكر المزاج ، وهذا كل مافى الأمر ، على أنك صبى جميل ، وأنا أحبك كثيراً ! » .

قال البارون هذا وهو يجذب شعر الصبى ملاطفاً ، وقد حول نظره عنه بعض الشىء ، ليتفادى منظر عينيه الواسعتين ، المغرورقتين ، المتوسلتين ! .. وبدت له المهزلة التى كان يمثلها ، شاقة . فقد أخجله — فى الواقع — أن يعبث بحب هذا الصغير له ، على هذا النحو غير اللائق ، وآلمه سماع هذا الصوت الصبيانى الذى تخنقه العبرات ، فقال فى عطف : « اذهب إلى غرفتك يا « إدى » ، وسيصفو الجو بيننا هذا المساء ، كما سترى ! » .. فقال الصبى : « ولكنك لن تدع أمى ترسلنى إلى الفراش مبكراً .. أليس كذلك ؟ » .. فأجاب البارون مبتسماً : « بلى لن أدعها يا (إدى) فاطمئن ! .. اصعد الآن إلى غرفتك ، أما أنا فينبغى أن أبدل ثيابى استعداداً للعشاء ! » .

وذهب (إدجار) مغتبطاً أشد الاغتباط . ولكن قلبه سرعان ما عاد إلى خفقانه العنيف .. فقد زاد عمره منذ أمس عدة سنوات ، ونزل على صدره الصغير ضيف غريب ، هو : الشك !

وأخذ الصبى ينتظر لحظة الاختبار الحاسم . وكان ثلاثتهم جالسين حول المائدة حين دقت الساعة التاسعة . ولما لم ترسله أمه إلى الفراش ، ساوره القلق . ترى لماذا سمحت له اليوم بالذات بأن يبقى إلى هذا الوقت وهى التى تتمسك بعاداتها بكل دقة ؟!.. أيكون البارون قد وشى بما دار بينهما من حديث ، وأبلغها رغبته ؟!.. واستولى عليه ندم

لاذع لأنه أفضى لصديقه بكل ما كان فى قلبه ، بصراحة وثقة ! ..
ولكن حين دقت الساعة العاشرة ، استأذنت أمه — فجأة — فى الانصراف ومن عجب أن (البارون) لم يبد أية دهشة لانصرافها المبكر ، ولم يحاول أن يستبقيها كما كان يفعل دائماً . واشتد وجيب قلب الطفل بين جنبيه عنفاً !

وتظاهر إدجار بأنه لم يلاحظ شيئاً ، فتبع أمه بغير معارضة .. ولكن عينيه زاغتا بغتة ، إذ فاجأ أمه وهى تلقى إلى البارون نظرة باسمة من خلفه .. نظرة الشريك فى مؤامرة تتصل بسر ما . لقد خانه البارون ، إذن .. وهذا هو الذى جعلهما يفترقان فى وقت مبكر : كان هدفهما اليوم أن ينام الغلام مطمئناً هادئ البال حتى لا يضايقهما غداً .. وتمتم (إدجار) بصوت خفيض : « يا للنذل ! » .. فسألته أمه : « ماذا تقول ؟ » .. وأجاب وهو يعض على شفتيه : « لا شىء ! » .

لقد أصبح له — هو الآخر — سر .. وكان سره هو : « الكراهية » .. كراهية لا حد لها .. يكنها لهما .. معاً !

* * *

الفصل السادس

● لم يعد إدجار نهباً للقلق ، إذ غشيه — أخيراً — شعور وليد ، واضح المعالم .. شعور سافر بالبغض والعداء ! .. وبات يستشعر — وقد أيقن أنهما يضيقان به — متعة بالغة فى وجوده بجانبهما ! .. بات يجد لذة فى مضايقتهما ، وفى مواجهتهما بكل مافى عدائه المركز من شدة . وكان البارون أول من تعرض لهذه الروح الجديدة . فعندما تعطف على إدجار — حين هبط فى الصباح التالى — بتحية ودية ، لم يتطلع الصبى إليه ، ولم يترك مقعده ، بل اقتصر على رد التحية بفتور . وعندما سأله البارون عما إذا كانت أمه قد هبطت إلى الطابق الأرضى ، أجاب فى اقتضاب وهو ينظر إلى صحيفة كان يقرؤها : « لا أعرف ! » .

واستبدت بالبارون الدهشة : ما معنى هذا ؟ .. وهتف قائلا : « إنك لم تحظ الليلة بنوم مريح يا إدجار .. أليس كذلك ؟ » .. وحسب أن مثل هذه العبارة اللطيفة ، كفيلة بأن تعيد الأمور إلى نصابها ، كما كان العهد دائماً .. بيد أن (إدجار) أجاب فى اقتضاب : « لا ! » .. عاد إلى الاستغراق فى قراءة الصحيفة . وقال البارون وهو يهز كتفيه مبتعداً عنه : « يا لك من غبى ! » .. ثم مضى فى سبيله .

كانت هذه بداية المعركة ! .. فلقد أبدى (إدجار) لأمه بعد ذلك تأدباً فاتراً .. فرفض فى هدوء أن يذهب إلى ساحة « التنس » ، عندما حاولت — عبثاً — أن ترسله إلى هناك . ونمت ابتسامته الصفراء وانقباض شفتيه ، عن أنه لم يعد يرتضى أن يخدعه أحد . وما لبث أن قال فى حياء

مصطنع ، وهو يحدق فى عينى أمه : « أفضل أن أذهب للنزهة معكما ! » .: فاستاءت أمه كل الاستياء من هذا الجواب ، وبدا عليها الارتباك ، فتظاهرت بأنها تبحث عن شىء ما ثم قالت أخيراً : « انتظرنى هنا حتى أتناول فطورى » !

وانتظر (إدجار) .. بيد أن شكوكه كانت ساهرة ، يقظة ، إذ غدا يستشعر فى قرارة نفسه شبهات تدفعه إلى تمحيص كل كلمة ينطق بها هذان الشريكان ، للبحث عما تنطوى عليه من نوايا خفية أو عدائية ! .. وكانت هذه الشكوك تمنحه — فى بعض الأحيان — نظرة ثاقبة تهديه إلى الصواب فيما يتخذ من قرارات .. ومن ثم فإنه لم يشأ أن ينتظر فى الردهة ، كما طلبت إليه أمه — وإنما آثر أن يقف فى الطريق ، فى موقع يستطيع منه أن يرقب كافة أبواب الفندق ، لا الباب الرئيسى للخروج وحده ! .. فلقد أحس بأن ثمة خدعة تدبر ، ومن ثم عقد العزم على ألا يتركه « غريميه » يفلتان ! .. واختبأ خلف كومة من الخشب — فى الطريق — على غرار الطريقة التى قرأعنها فى قصص الهنود ! .. وضحك راضياً عن خطته ، حين أبصر بأمه تخرج بالفعل من الباب الجانبى ، بعد نحو نصف ساعة ، ممسكة طاقة من الورد الجميل ، والبارون الخائن فى أعقابها !

وكان الاثنان فى غاية المرح . لاشك فى أنهما كانا سعيدين بإفلاتهما منه ، وإفلات سرهما أيضاً ! .. كانت الضحكات تتخلل حديثهما ، وهما يتأهبان للانطلاق فى طريق الغابة . وحانت اللحظة المنتظرة ، فغادر (إدجار) مخبأه ، واتجه نحوهما فى هدوء ، كما لو كانت المصادفة

وحدها هى التى قادته إلى هذا المكان . وأخذ يستمتع ، وفى تمهل ، بما أحدثته المفاجأة فى نفسيهما ! .. وكان الشريكان قد انزعجا بالفعل ، وأخذا يتبادلان نظرات مذهولة . وما لبث الصبى أن تقدم متثاقل الخطى ، محاولا أن يبدو طبيعياً ، ودون أن يحول عنهما عينيه اللتين كانتا تلمعان ببريق ساخر . وقالت أمه أخيراً : « أأنت هنا يا إدى ؟ .. لقد بحثنا عنك فى الفندق ! » .. فقال الصبى فى نفسه : « يا للكذب الفاضح ! » .. على أن شفتيه لم تتحركا ، فقد كانتا مغلقتين على سر كراهيته !

وكان ثلاثتهم مترددين ، وهم يرقبون بعضهم بعضاً خلسة . على أن المرأة المستاءة لم تلبث أن قالت بصوت هادئ ، وهى تعبث بأوراق زهرة من أزهارها الجميلة : « هيا نتمشى ! » .. وسرت فى طاقتى أنفها رجفة خفيفة ، وهى ظاهرة كانت تنم لديها عن غضب مكبوت . وظل (إدجار) يحملق فى الهواء ، كما لو لم تكن هذه الكلمات موجهة إليه . ولم يتحرك من مكانه إلا حين شرع الآخران فى السير ، فانضم إليهما . وحاول البارون أن يغريه على العدول عن متابعتهما ، فقال له : « ستجرى اليوم مباراة فى « التنس » .. أفلا تحب أن تشاهدها ؟ ! » .. فرمقه (إدجار) بازدراء ، ولم يجب على سؤاله ، مكتفياً بمد شفتيه كما لو كان يهم بالصفير ! .. وكانت هذه هى طريقته فى إظهار شعوره .. إذ كانت كراهيته الطاغية قد بدأت تكشف عن نفسها !

كان وجوده غير مرغوب فيه ، ولذا ثقلت وطأته على الشريكين ، وهما يسيران وقد ضم كل منهما قبضتيه كسجينين أمام حارسهما ! ..

والواقع أن الصبى لم يكن يقول أو يفعل شيئاً . ومع هذا فقد أخذ ضيقهما به يتزايد ، ولم يعودا يحتملان نظراته الفاحصة ، وعينيه اللتين رطبتهما الدموع المنسابة ، وانقباضه الذى كان يصد كل محاولة منهما للتقرب إليه . وفجأة ، قالت الأم فى غضب ، وقد ضاقت أبلغ الضيق بهذه الرقابة التى لا تنتهى : « سر أمامنا ، ولا تلاحقنا ، فإن هذا يثير أعصابى ! » .. فأطاع إدجار أمر أمه ، بيد أنه كان لا يلبث ، بعد كل بضع خطوات ، أن يستدير .. وكان ينتظرهما كلما تخلفا من ورائه ، مصوباً إليهما نظرة شاملة ملؤها الخبث والمكر ، ناسجاً حولهما شبكة من الكراهية والبغض كانا يحسان أنها تطبق عليهما من كل جانب .

* * *

● كان صمته العدائى ينخر سعادتهما كالسوس ، كما كانت نظراته الفاحصة تقتل الكلمات على شفتيهما . ولم يعد البارون يجرؤ على المضى فى مغازلته للأم ، بل إنه أحس — والسخط يملأ جوانحه — بأن هذه المرأة تفلت من يديه مرة أخرى ، وأن الشهوة التى أشعلها بعناء كبير قد أخذت تخمد بسبب خوفها من هذا الصبى المتطفل البغيض ! .. كانا دائماً يحاولان استئناف الحديث ، ولكن الحديث كان لا يلبث أن ينقطع فى كل مرة . ولم يسع الثلاثة — آخر الأمر — إلا أن يسيروا صامتين ، قانعين بسماع حفيف الشجر ووقع خطواتهم المملّ !

.. كانت البغضاء قد تملكتهم جميعاً ! .. وكان الصبى — الذى أحس بغدر صاحبيه — يستمرئ غضبهما العاجز ويستعذبه .. هذا الغضب الذى كان يتجمع حول كيانه الصغير ، المهين ! .. وأخذ يرمق البارون

من حين إلى آخر ، بنظراته الساخرة ، فيسمعه يتمتم بكلمات لا يجد جرأة على أن يواجهه بها . كذلك كان يلاحظ — فى غبطة شيطانية ! — غضب أمه المتزايد ، وكيف أنها وشريكها راحا يبحثان عن حيلة يتوسلان بها إلى إبعاده عنهما وتجنب أذاه ! .. بيد أنه لم يتح لهما أية وسيلة .. فقد كان عداؤه مستحكماً ، وخطته مرسومة بدقة لا تفسح لها أى منفذ !

وعلى حين غرة ، قالت الأم : « لنعد ! » .. فلقد أحست بأنها لم تعد قادرة على ضبط نفسها ، وأن لابد لها من أن تعمل شيئاً ، حتى لا تنفجر باكية من هذا العذاب ! .. وقال (إدجار) فى هدوء : « هذا يدعو للأسف ، فإن الطقس جميل جداً ! » .

وأدرك الشريكان أن الصبى يسخر منهما ، ولكنهما لم يجرؤا على أن يقولا شيئاً .. فقد تعلم هذا الجبار ، فى يومين اثنين ، كيف يسيطر على نفسه . ولهذا لم يبد على أية قسمة من قسمات وجهه ما يشى بسخريته اللاذعة ! .. وقفلوا عائدين دون أن ينطق أحدهم بكلمة طوال الطريق ؛ حتى إذا ماخلت الأم إلى ابنها فى مخدعها ، أخذت تتخلى عن رزانتها ، وتفثأ غيظها ، فألقت مظلتها وقفازها بحركة تنم عن الاستياء : ولاحظ (إدجار) جلياً أن أعصابها مهتاجة ، وأن أمثال هذه الحركة تسرى عنها ، فى حين أنه كان ينشد انفجاراً ، فبقى فى الغرفة ليذكى جذوة هياجها ! .. وأخذت تروح وتجىء ثم تجلس .. وتطرق المائدة بأصابعها أحياناً . وأخيراً ، قفزت قائلة : « لشد ما أنت أشعث الشعر ! .. وكم أنت قذر ! .. ألا تستحى فى هذه السن من الظهور أمام الناس بهذا

الشكل ؟ » .. فراح ينسق شعره دون أن يجيب بكلمة ! .. وأثارها هذا الصمت البارد الذى اقترن بابتسامة واهنة ساخرة ارتسمت على شفتيه ، فودت لو أنها انهالت عليه لطما : وما لبثت أن صاحت فيه : « اذهب إلى غرفتك ! » .. فقد أصبحت لا تحتمل وجوده على مقربة منها ، وابتسم (إدجار) ، وخرج !

* * *

● لكم أصبحا يرتجفان أمامه ! .. لكم أصبحا يخافان وجودهما معه ، والتعرض لنظراته الصارمة تغمرهما . وكانت عيناه تزدادان وميضاً كلما اشتد ضيقهما ، فكان اغتباطه هذا — فى حد ذاته — مثيراً لهما !.. كان (إدجار) يعذب خصميه الأعزلين بقسوة الأطفال ، وهى قسوة فيها شىء من وحشية الحيوان ! .. وظل البارون قادراً على كظم غضبه ، لأنه لم يكن قد يئس من الوصول إلى حيلة جديدة مع الصبى ، ولأنه لم يكن يفكر إلا فى هدفه . أما الأم فقد أخذت تفقد سيطرتها على نفسها ، شيئاً فشيئاً . وكانت تنشد لغيظها تفريجاً ، فى السعى لكشف بعض عيوبه . فكانت تقول له بغلظة ، أثناء تناول الطعام : « لا تعبث بشوكتك ! .. أنت غير مؤدب ! .. أنت لا تستحق أن تجلس مع الكبار ! » .. ولكن (إدجار) لم يزد على أن يبتسم لهذه الملاحظات :. كان يبتسم ورأسه مائل قليلا نحو الجانب الآخر ، فقد كان يعرف أن هذه الصيحات إن دلت على شىء ، فإنما تدل على اليأس ! .. وازدهاه أن يرى الشريكين يكشفان أمامه عما كان فى نفسيهما ، على هذا النحو ! .. أما هو ، فكانت نظراته هادئة كما لو كانت نظرات طبيب . ولو أن

هذا حدث من قبل ، لكان من المحتمل أن يجنح إلى الغلظة لإثارة غضبهما ، ولكن المرء يتعلم كثيراً ، وفى وقت وجيز ، عندما يكون كارهاً ، مبغضاً وقد تعلم الآن أن يقنع بالصمت ، فصار دائماً صامتاً ، صامتاً !

ولقد ظل مثابراً على صمته المرهق حتى بدأت أمه تصرخ من وطأة هذا الصمت عليها .. إذ لم يعد فى طوقها احتمال هذه الحال ، فلما نهضت والبارون — بعد تناول الطعام — أراد (إدجار) أن يتبعهما فى حركة طبيعية ، لا تنم عن تعمد ، وعندئذ انفجرت الأم بغتة .. نسيت كل تحفظ وقذفت بكل ما كان فى صدرها ! .. كان وجود الغلام على هذا النحو الوقح يعذبها عذاباً أليماً ، فانتفضت — فى عنفوان غيظها — انتفاضة الجواد من لذع الذباب ، وقالت : « ما بالك تلاحقنى دائماً كطفل لم يجاوز الثالثة من عمره ؟ .. لست أحب أن تكون باستمرار فى أعقابى ، فليس للأطفال مكان فى مجالس الكبار . يجب أن تعرف هذا .. اشغل نفسك لحظة بما يسليك .. اقرأ شيئاً ما ، أو افعل ماتريد ، ولكن دعنى قليلا ، فإنك تثير أعصابى إذ تحوم حولى بهذا الوجه المكتئب ، المقيت ! » .

وهكذا انتزع منها الاعتراف آخر الأمر .. وظل (إدجار) يبتسم ، بينما بدت الأم والبارون مضطربين . ثم استدارت تبغى الابتعاد ، وقد أغضبها من نفسها أن كشفت عن استيائها ! .. أما (إدجار) ، فلم يزد عن أن قال : « إن أبى لا يحب أن أتنزه بمفردى .. فلقد أخذ منى وعداً بأن أكون حذراً ، وأن أبقى دائماً إلى جانبك » !

وضغط على كلمة (أبى) ، إذ كان قد لاحظ أن لها وقعاً شديداً عليهما ، مما أوحى إليه بأن لأبيه شأناً ما فى هذا السر ، وأن له — ولابد — على الشريكين سلطاناً خفياً ، مادام مجرد ذكر اسمه يوقعهما فى الضيق والاضطراب ! .. ولم يجيبا بشىء فى هذه المرة أيضاً ، بل استسلما فى صمت ! .. وسارت الأم مع البارون جنباً لجنب ، وخلفهما (إدجار) ، بيد أنه لم يكن يحس مهانة الخدم ، وإنما كان على العكس قوياً ، صارماً ، يقظاً كالحارس .. كان — وهو الذى يجهل كل شىء — أقوى من خصميه اللذين عقدا خنصريهما على السر الدفين !

* * *

الفصل السابع

● كان الوقت يمر سريعاً ، فلم يبق على رحيل البارون سوى أيام ، قرر أن يفيد منها ما استطاع . وكان والسيدة يدركان ألا جدوى من مقاومة عناد الصبى الغاضب ، فعمدا إلى وسيلة من أتعس الوسائل .. وسيلة مخزية .. تلك هى أن يلوذا بالهرب ، ليفلتا ساعة أو اثنتين من جبروت الصبى . ومن ثم قالت الأم لـ(إدجار)،وهما يقفان فى بهو الفندق بعد يومين : « اذهب إلى مكتب البريد ، فسجل هذين الخطابين » .. وكان البارون لدى الباب — يتحدث إلى أحد الحوذيين — فتناول (إدجار) الخطابين ، وهو فى ريب من الأمر .. كان يعرف أن خدم الفندق يؤدون — عادة — هذه المهمة ، فهل تراهما عادا إلى التآمر ضده ؟ .. وتردد لحظة ، ثم سأل أمه : « وأين تنتظريننى ؟ » .

— هنا ..

— أواثقة أنت ؟

— أجل ..

— إذن ، فأنت لن تخرجى .. ستنتظرين هنا فى البهو حتى أعود ؟

كان يشعر بتفوقه ، ومن ثم خاطبها بلهجة الأمر ! فقد تغيرت أمور كثيرة منذ أمس الأول . وما لبث أن اتجه إلى الباب وفى يده الخطابان فلما مر بالقرب من البارون ، خاطبه للمرة الأولى — منذ يومين — قائلا : « لن أغيب إلا ريثما أحمل هذين الخطابين إلى مكتب البريد ، وسوف تنتظرنى أمى ، فأرجو ألا تغادرا الفندق قبل عودتى

وتنحى البارون مسرعاً ، ليفسح له الطريق ، وقال : « أجل ، أجل ، لا تخف ! » .. وهرع (إدجار) صوب مكتب البريد ، ولكنه اضطر هناك إلى الانتظار ، إذ كان قد سبقه رجل راح يرهق الموظف بطائفة من الأسئلة . على أنه مالبث أن أنجز مهمته — فى النهاية — فعاد إلى الفندق مسرعاً ، وهو يحمل الإيصالين ..

ووصل فى عين اللحظة التى استوت فيها أمه والبارون داخل عربة تحركت بهما ، فاستشاط حنقاً .. وود لو جمع بعض الأحجار ليرجمهما بها ؟ .. لقد أفلتا منه ، ولكن .. بأى ثمن ؟ .. بأكذوبة خسيسة ، دنيئة ؟ .. لقد كان يعرف — منذ أمس — أن أمه تكذب .. ولكن نقضها وعداً صريحاً بهذه الطريقة المزرية ، قضى على البقية الباقية — فى نفسه — من الثقة بأمه ! .. وخيل إليه أنه لا يكاد يفقه الحياة ، بعد أن رأى ألا قيمة للوعود — التى ظن أنها حقيقية ، فإذا بها ليست أكثر من فقاقيع تنفجر فى الهواء لأقل نفخة !

* * *

● ولكن ، أى سر عجيب هذا الذى يحدو بشخصين كبيرين إلى أن يخدعاه — هو الصبى الصغير ! — وأن يفرا منه كما لو كانا مجرمين ؟! . إن الناس — فى الكتب التى قرأها — يلجئون إلى الغش ، والخداع ، والقتل ، للوصول إلى المال أو الجاه أو الحكم .. أما هذان ، فما الذى دفعهما إلى هذا العمل ؟ .. ما الذى يبغيانه ؟ .. لماذا يتواريان عنه ؟ .. ما الذى يتستران عليه بالأكاذيب التى لا تنتهى ؟ ! .. وأخذ يرهق عقله ويضنيه ، فى غير ما رحمة ، وقد ساوره شعور غامض بأن الطفولة تقبع



ووصل فى عين اللحظة التى استوت فيها أمه والبارون داخل عربة تحركت بهما ، فاستشاط حنقا .

وراء هذا السر ، فإذا قدر له أن ينفذ إليه ، انتقل إلى النضوج وأصبح رجلا ! .. ولكن ، ما السبيل إلى معرفة هذا السر ؟ .. لم يكن فى وسعه أن يفكر — للاهتداء إليه — بعقل صاف ، فإن الغضب والحنق اللذين تملكاه ، بعد أن رأى أمه وصاحبه يفلتان منه ، أخذا يمضانه ويعكران صفو ذهنه !

وانطلق يعدو فى اتجاه الغابة ، حتى إذا بلغ الطريق المعتم ، الذى لا يتعرض فيه لأنظار أحد ، ترك دمعه ينساب غزيراً ، كاوياً ! .. وراح يهتف فى غيظ ملتهب : « كاذبان ! مخادعان ! خبيثان ! » .. كان مضطراً إلى أن يقذف بهذه الشتائم حتى لا تجثم على صدره فتخنقه ! .. وكانت الهموم ، ونفاد الصبر ، والغضب ، والكراهية التى حفلت بها هذه الأيام « الكبيرة » ، والتى احتملها بجهد طفل يخال أنه أصبح من الكبار اليافعين .. كانت هذه المشاعر تتفجر فى صدره ، فتنساب فى دموع ! .. ولكن هذه النوبة كانت آخر نوبات البكاء فى طفولته .. النوبة التى تغلق باب الطفولة ! .. ومن ثم فهى أعتى النوبات وأقساها ! .. كان يستسلم للبكاء فى استعذاب — كالمرأة — للمرة الأخيرة ، فأخذ يبكى ، فى هذه اللحظة من لحظات الهياج ، راثياً لكل ما كان فى نفسه من ثقة ، وحب ، وعقيدة ، واحترام .. كان يرثى طفولته بأسرها !

وعندما عاد إلى الفندق فى النهاية ، كان إنساناً آخر . كان هادئاً ، رزيناً . وسعى أولا إلى غرفته ، حيث غسل وجهه وعينيه فى عناية ، كى لا يتيح للمذنبين أن يستمتعا برؤية آثار دموعه ! .. ثم قبع متأهباً للانتقام ، فراح ينتظرهما وهو رابط الجأش ، مسيطراً على أعصابه ! .

وكان البهو مزدحماً بالناس حين عاد الهاربان .. كان بعض الجلوس يلعبون الشطرنج ، وبعضهم يقرأون الصحف .. والسيدات منهمكات فى الثرثرة . أما الصبى ، فقد جلس بينهم لا يحير حراكاً ، وقد شحب وجهه ، وزاغت نظراته . وإذ نفذ البارون وأمه خلال الباب ، بدا عليهما الضيق حين رأياه على غير توقع منهما ! .. وما أن هما بأن ينطقا ببعض المعاذير التى ابتكراها قبل وصولهما ، حتى استوى واقفاً أمامهما فى هدوء ، وقال فى تحد : « سيدى ، أحب أن أقول لك شيئاً » ..

وتململ البارون محرجاً .. كان كمجرم فوجئ متلبساً بجريمته ، فقال : « حسناً .. نعم .. بعد قليل .. بعد لحظة ! » .. ولكن (إدجار) صاح بحدة ، وبصوت تعمد أن يرفعه حتى يسمعه من كانوا فى البهو : « بل أريد أن أكلمك الآن .. لقد كان مسلكك مشيناً ، إذ كذبت على .. كنت تعرف أن أمى تنتظرنى .. » .

وقطعت عليه الأم حديثه ، إذ رأت الأنظار تتجه إليها ، فأسرعت نحوه قائلة : « إدجار ! » .. ولكن (إدجار) فطن إلى أنها تريد أن تغطى صوته بصوتها ، فازداد حدة ، وصاح بأعلى صوته موجهاً كلامه للبارون : « إننى أكرر لك — على مسمع من الملإ — إنك كنت دنيئاً حين كذبت على ، وإن هذا ذنب شائن ! »

وشحب وجه البارون .. وعلقت به أنظار القوم ، وأخذ بعضهم يتغامزون . وعندئذ لكزت الأم بقبضتها الطفل الذى كان يرتجف انفعالا ، وصاحت فيه بصوت مختنق : « هيا إلى غرفتك فوراً ، وإلا صفعتك أمام الجميع ! »

بيد أن (إدجار) سرعان ما استرد هدوءه ، وشعر بالاستياء من تهوره على هذا النحو .. فقد كان — فى الواقع — يبغى أن يثير البارون بينما يظل هو متمالكاً نفسه .. ولكن غضبه غلب إرادته !

واتجه إلى السلم بخطى متثاقلة ، بينما قالت الأم للبارون متلعثمة : « اغفر له وقاحته يا سيدى ، فأنت تعرف أنه عصبى » .. وأزعجتها النظرات التى كان القوم يوجهونها إليها فى شىء من السخرية .. فلم يكن أبغض إلى نفسها من أن تتعرض للفضيحة ، ومن ثم أدركت أن لابد لها من أن تتشبث برزانتها وثبات جنانها . ولم تشأ أن تتوارى عن الأنظار فوراً ، ومن ثم سارت — أولا — إلى حارس الباب ، وسألته عما إذا كانت ثمة خطابات باسمها ، وتحدثت إليه فى بعض أمور تافهة ، ثم صعدت إلى غرفتها ، وكأن شيئاً لم يقع .. ولكن القوم شيعوها — إذ أولتهم ظهرها — بموجة من الهمس والضحك المكتوم !

* * *

● وأخذت تصعد السلم متباطئة ، فما كان يزعجها قدر المواقف الخطيرة .. بل إنها كانت — فى الواقع — تخشى أن تناقش الصبى الحساب ، فما كان فى وسعها أن تنكر ذنبها ، كما أنها كانت تهاب نظرات ابنها .. النظرات الجديدة ، الغريبة ، غير المألوفة ، التى أودت بطمأنينتها ، وشلت فكرها ! .. وأوعز إليها الخوف أن تتذرع باللين ، إذ حدست أن الصبى الثائر لن يلبث أن يغدو أقوى منها ، إذا هى عمدت إلى العنف !

وفتحت الباب فى لطف بالغ ، فإذا الغلام يجلس فى الغرفة ساكناً وقد سيطر على أعصابه . ولم يكن يبدو فى عينيه أى خوف ، ولا أى شعور بالذنب ، وإنما كان يبدو معتداً بنفسه تمام الاعتداد !

وقالت أمه ، متذرعة ما استطاعت بلهجة الأمومة : « ما الذى دهاك يا إدجار ؟ .. لقد خجلت لك ! .. كيف تسنى أن تبلغ بك القحة حداً يجعلك تتخذ مثل هذا المسلك الشائن نحو شخص من الكبار ؟ لابد أن تذهب فوراً فتعتذر للبارون ! » .. وأرسل (إدجار) بصره خلال النافذة ، قائلا : « لا ! » ، وكأنما كان يوجه قوله إلى الأشجار المواجهة له فى الخارج ! .. وأخذ العجب يساور الأم مما بدا عليه من ثقة بنفسه ، فقالت : « ماذا بك يا إدجار ! .. أراك قد تغيرت تماماً ، حتى أننى لا أكاد أعرفك ! .. لقد عهدتك دائماً ابناً عاقلا ، رقيقاً ، يسهل التفاهم معه .. فإذا بك تنقلب فجأة فى سلوكك كمن أصابه مس من الشيطان ! .. ما الذى يوغر صدرك ضد البارون ؟ .. لقد كنت تحبه كثيراً ، وكان من ناحيته لطيفاً معك ، طيلة الوقت ! »

— أجل .. كان لطيفاً معى ، لأنه كان يسعى إلى التعرف بك !

ووخزتها هذه العبارة ، فقالت : « ما هذا الغباء ؟ .. كيف أمكن أن تتصور شيئاً كهذا ؟ .. ما الذى يجول بخاطرك ؟ » .. فهتف الصبى فى غضب : « إنه كاذب ، مخادع .. وليست أفعاله سوى حيل وخبث .. لقد شاء أن يتعرف بك ، فأخذ يتودد إلى ، ووعدنى بأن يهدينى كلباً .. ولست أدرى بماذا وعدك أنت الأخرى ، ولا لماذا يتودد إليك ؟! .. على أنه ولابد يبغى منك — أنت الأخرى — شيئاً ،

وإلا ما اتخذ هذا المظهر المهذب ، اللطيف .. إنه رجل سيئ ، ويكذب كثيراً .. ألا راقبيه ، وسوف ترين كيف يتخذ مظهراً غير مظهره الحقيق .. أواه ! .. لشد ما أبغضه .. هذا التعس ، الكذوب ، النذل !! »

— ويحك يا (إدجار) .. كيف تنطق بمثل هذه الألفاظ ؟

وشعرت بحيرة واضطراب ، فلم تدر بماذا تجيب بعد ذلك .. وانتبه فى أعماقها إحساس أخذ يوحى إليها بأن الصبى على حق .. بينما استطرد (إدجار) قائلا : « إنه نذل ، ما فى هذا من ريب .. وكان جديراً بك أن تتبينى هذا بنفسك .. وإلا ، فلماذا ترينه يخشانى ؟ .. لماذا يتهرب منى ؟ .. إنه يفعل ذلك لأنه يعرف أنى أحدس نواياه ، وأننى أكشف خبثه ! »

— كيف تتكلم بهذا الشكل ؟ .. كيف تنطق بهذه الألفاظ !

كان هذا كل ما استطاعت أن ترد به على قوله . فقد كان عقلها عاجزاً عن التفكير ، ولم تجد شفتاها سوى هذه الكلمات ترددانها : وفجأة ، غشيها جزع مروع ، إذ أعياها فى الواقع أن تعرف أيهما أولى بأن تخشاه وترتاب فيه ، (البارون) ، أم الصبى ؟! .. ورأى (إدجار) أن إنذاره قد أثر فى أمه ، فداعبه الأمل فى أن تنحاز إلى صفه ، فتحالفه فى عداوته للبارون . ومن ثم اقترب منها متدللا ، وأمسك بذراعها ، وبدا صوته ناعماً بتأثير عواطفه الجياشة : « إنك ولابد قد لاحظت بنفسك يا (ماما) سوء نواياه .. لقد غير حالك تماماً .. أنت التى تغيرت ، لا أنا .. لقد أوغر صدرك على ، لا لشىء

إلا ليخلو بك ! .. إنه ولابد يريد أن يغرر بك ، ولست أعلم بماذا وعدك ، ولكن الذى أعرفه أنه لن يفى بوعده . ألا صدقينى .. إن من يخدع إنساناً واحداً خليق بأن يخدع الناس جميعاً ، فهو رجل شرير لا ينبغى الاطمئنان إليه ! »

وخيل لأم (إدجار) أن هذا الصوت الرقيق ، المختنق بالعبرات ، كان ينبعث من فؤادها هى . فلقد راودها منذ الأمس إحساس كان يوحى إليها بهذه الكلمات ذاتها ، فى إلحاح مطرد ! .. على أنها خجلت من أن تعترف بأن ابنها كان على حق ، ففعلت ما تفعله الكثيرات من مثيلاتها ، إذا شئن التخلص من إلحاح شعور ممض .. لجأت إلى الغلظة والجفاء ، فقالت : « إن الأطفال لا يدركون هذه الأمور ، فليس لك أن تقحم نفسك فيها ، بل يجب أن تصلح من مسلكك .. وهذا كل شىء ! »

فاسترد وجه (إدجار) جموده ، وقال فى لهجة جافة : « ليكن ما تريدين .. لقد نبهتك وكفى ! »

— إذن ، فلست تريد أن تعتذر للبارون ؟

— بلى .. لا أريد !

* * *

● وكانا يقفان وجهاً لوجه ، فأحست بأن سلطانها إزاءه قاصر فقالت : « حسناً ، ستتناول الوجبات وحدك فى غرفتك ، ولن تجلس إلى مائدتنا حتى تعتذر .. سأعلمك كيف يكون السلوك اللائق .. اذهب فالزم غرفتك ولا تبرحها حتى آذن لك .. هل تفهم ؟ »

فاكتفى بالابتسام .. كأنما غدت هذه الابتسامة الماكرة جزءاً من شفتيه .. لكنه كان فى قرارة نفسه مستاء لمسلكه .. لكم كان مخبولا حين ترك عنان انفعالاته يفلت منه مع البارون . ومن ثم أراد أن يتفادى الوقوع فى مثل هذه الغلطة مع تلك الكاذبة .. أمه !

وغادرت الأم المكان مسرعة ، دون أن تلتفت إليه .. فقد كانت تخشى نظراته الثاقبة ، الفاحصة .. لقد غدا هذا الصبى مبعث ضيق لها مذ أحست بأن عينيه قد تفتحتا ، وبأنه يلاحقها بكل ما لا تريد معرفته أو سماعه ! .. كان يرعبها أن ترى ضميرها — ذلك الصوت الداخلى — ينفصل عن ذاتها ، ويتخذ شكل هذا الولد .. ولدها هى ، الذى تراه سائراً إلى جانبها ، ينبهها ويسخر منها ! .. كانت كل قيمة هذا الولد فى حياتها ، حتى الآن ، تنحصر فى أنه مجرد حلية تتزين بها ، أو لعبة تتلهى بها ، أو شىء ما تخصه بحبها .. وقد يضايقها أحياناً ، ولكنه برغم هذا جزء من حياتها ، وهو يكمل لحن هذه الحياة ! .. ولكن هذا الشىء تحرك أخيراً ، وللمرة الأولى ، وأخذ يعترض طريق إرادتها ، ويحاول أن يثنيها .. ومن ثم أصبحت تستشعر نوعاً من الكراهية ينمو فى نفسها كلما فكرت فى ابنها !

على أنها بينما كانت تهبط درجات السلم ، وهى متعبة بعض الشىء سمعت ذلك الصوت الصبيانى — الذى خالت أنه ينبعث من صدرها ذاته — يتردد فى أذنيها : « إنك لتحسنين صنعاً لو أخذت حذرك منه ! » .. ولم تستطع أن تخنق هذا النذير الذى راح يتردد فى أعماقها ! . ولمعت مرآة أمام عينيها ، انعكس طيفها على صفحتها ، فأخذت تتأمله

بنظرة متفحصة ، عميقة ، تلمست طريقها إلى أغوار نفسها ، إلى أن رأت شفتيها تنفرجان عن ابتسامة خفيفة ، وتستديران ، كما لو كانتا توشكان أن تقذفا بكلمة ساخرة ! .. وكان الصوت يدوى فى أعماقها دون انقطاع ، بيد أنها هزت كتفيها ، كما لو كانت تطوح بهذه الوساوس بعيداً عنها ! . . ثم ألقت على المرآة نظرة أخيرة ، وجمعت أطراف ثوبها ، ونزلت بخطى ثابتة كاللاعب الذى يدق مائدة القمار بآخر قطعة ذهبية معه !

* * *

● حمل خادم الفندق الطعام لـ (إدجار) فى غرفته — حيث كان حبيساً — ثم انصرف مغلقاً الباب خلفه . وما لبث (إدجار) أن سمع صرير القفل فنهض ثائراً . لا شك أن أمه هى التى أمرت بحبسه على هذا النحو ، وكأنه حيوان مسعور ! .. وطافت برأسه أفواج مبهمة من مشاعر التساؤل والاستقصاء والاستنتاج : « ترى ما الذى يجرى فى الطابق الأسفل وأنا حبيس هنا ؟ .. أية مؤامرة تراهما يدبرانها ؟ .. وهل يتكشف الآن ، وفى غيابى ، ذلك السر الكبير .. السر الذى أحس به عندما أكون بين الكبار ، فى كل آن ، وفى كل مكان ! .. ذلك السر الذى يوصدون عليه أبوابهم بالليل ، والذى يخبئونه وراء أحاديث تافهة ، حين أقبل على مجالسهم فى النهار ! .. ذلك السر الذى ظل — منذ أيام — جد قريب منى ، حتى لأكاد ألمسه ، ولكنى مع ذلك أعجز عن إدراك كنهه ! .. أى جهد فاتنى أن أبذله فى سبيل كشفه ؟ .. كم أخذت من كتب — من مكتبة أبى — وقرأتها . فوجدت فيها كل هذه

الأشياء المشوقة ، غير أننى لم أفهمها ! .: لابد أن ثمة خاتماً ينبغى فضه أولا إذا شئت أن أنفذ إلى هذا السر .. وقد يكون الخاتم فى نفسى ، وربما كان فى نفوس الآخرين .. لكم سألت الخادم ، ورجوتها أن تفسر لى فقرات من تلك الكتب ، فسخرت منى !.. ما أفظع أن يكون المرء طفلا ، متعطشاً إلى المعرفة ، ولكنه لا يملك أن يسأل الناس ! .: وما أبشع أن أكون – بهذا الوضع – أضحوكة للكبار ، ومخلوقاً تافهاً لا نفع من ورائه ! .. على أننى لن ألبث أن أهتدى إلى هذا السر .: إن قلبى يحدثنى بأنى ولابد مهتد إليه .. لقد أصبحت أقبض على طرف منه ، ولن يهدأ لى بال حتى أعرفه بأكمله ! »

وأصاخ السمع ، إذ خيل إليه أن ثمة قادماً يقترب . بيد أنه ما لبث أن تبين أن ريحاً خفيفة هبت ، فداعبت أوراق الشجر ، وهزت الأفنان ، وكسرت بهذا صفحة ضوء القمر التى كانت مسدلة عليها .: فما لبث أن عاد إلى الاسترسال فى تأملاته :

« لا يمكن أن يكون الأمر الذى يدبرانه خيراً ، وإلا ما انساقا فى الأكاذيب الدنيئة إلى هذا الحد ، ليقصيانى عنهما .. لا شك أنهما الآن يسخران منى .. إن الخبيثين مغتبطان – ولابد – إذ تخلصا منى أخيراً ، ولكن الذى يضحك أخيراً ، يضحك كثيراً ! .. ما أغبانى إذ ارتضيت لنفسى هذا السجن ، فأتحت لهما فترة ينعمان فيها بالحرية ، بدلا من أن ألازمهما كظلهما ، وأراقب كل حركة من حركاتهما ! .: إننى أدرك أن الكبار قليلو التبصر والحيطة ، فهم يتوهمون أننا نظل أطفالا طوال حياتنا ، وأننا إذا آوينا إلى مضاجعنا فى الليل ، لا نلبث أن نغط فى نوم

عميق .: وينسون أن فى وسعنا أن نتظاهر بالنوم ، ونحن منتبهون لكل ما يحدث حولنا .. بل ينسون أن فى وسعنا أن نبدى بلاهة ، ونحن أشد ما نكون ذكاء ! .. لقد حدث عندما وضعت عمتى طفلا – منذ عهد غير بعيد – أن حرص الجميع على أن يبدوا أمامى دهشة ، وكأن الأمر مفاجأة لهم ، فى حين كنت أعرف أنهم ظلوا يرتقبونه زمناً طويلا ، إذ سمعت أبى وأمى يتحدثان عنه فى إحدى الليالى – قبل ذلك بأسابيع – وهما يحسبانى نائماً ! .. وفى هذه المرة أيضاً ، سأفاجئ هذين الشقيين .. آه ، لو استطعت أن أسترق السمع خلال الباب ، وأن أرقبهما خلسة بينما هما يظنان أنى فى سجن حصين !.. ألست أحسن صنعاً إذا أنا دققت الجرس .. ستأتى – إذ ذاك – الخادم ، وتفتح الباب لتسألنى عما أريد .. كذلك سيفتح الباب لو أننى أثرت جلبة أو كسرت إناء ، وعندئذ ، أستطيع أن أنتهز الفرصة ، فأندفع إلى الخارج ، وأذهب لأراقبهما . ولكن ، لا .. لا أحب هذا ، فلا ينبغى أن يعرف أحد المعاملة المهينة التى ألاقيها منهما .. إننى راض بها ، فلسوف أكيل لهما غداً بالكيل نفسه ! »

* * *

● وارتجف (إدجار) إذ تناهت إلى سمعه ضحكة نسوية منبعثة من الطابق الأسفل ، وساءل نفسه : أليست هذه ضحكة أمه ؟.. حسناً ، لتضحك هازئة منه ، هو الغلام المسكين الذى يحبس وراء باب موصد حين يكون حضوره أمراً غير مرغوب فيه .. هو الإنسان الذى يلقى فى أحد الأركان دون ما اكتراث ، وكأنه حزمة من الثياب القذرة !

وأطل خلال النافذة فى حذر .. لا ، لم تكن أمه صاحبة الضحكة : لقد انبعثت من واحـدة من بضع فتيات ماجنات لم يكن يعرفهن ، انصرفن إلى مداعبـة شاب . وفطن إذ ذاك إلى أن نافذته لم تـكن على ارتفاع كبير ، بل إن المسافة بينها وبين الأرض كانت قصيرة . ومن ثم خطر له على الفور أن يقفز من النافذة ، ويذهب لمراقبتهما وهما يحسبان أنهما وحيدان ، بمنأى عن بصره ! .. وتملكته غبطة ضافية ، وخيل إليه أنه يمسك بين يديه بالسر الخطير المثير ، سر الطفولة ! .. وصـاح به هاتف داخلى كان يرتجف لهفـة فى أعماقه : « هيا أسرع بالخروج ! » .. ولم يكن ثمة خطر يخشى ، فالطريق خال من المـارة : وفى طرفة عين ، قفز من فوق حافة النافذة ، فانبعث لارتطام قدميـه بأرض الشارع صوت خفيف لم يسمعه أحد .

كانت المراقبة والترصد خلال اليومين المـاضيين ، مبعث متعـة فى حياته ، ولكنه بدأ يحس الآن بشىء من التوجس يمازج هذه المتعة ، وهو يطوف خلسة حول الفندق على أطراف قدميه ، متجنباً فى حذر أن يتعرض لأى ضـوء .. واسترق النظر — أولا — إلى داخل قاعـة الطعام ، ملصقاً خده فى حرص بزجاج النافذة .. كان مكانهما المألوف خالياً ! .. وأخذ يتنقل من نافذة إلى أخرى ، مرسلا بصره خلال كل منها ، دون أن يجرؤ على التسلل إلى داخل الفندق ، خشية أن يلتقى بهما وجهاً لوجه فى إحدى الردهات . ولمـا لم يلمحهما فى أى مكان ، بدأ اليأس يداخله ، ولكنه ما لبث أن لمح بغتة ظل شخصين لدى الباب ، فاضطرب وأسرع إلى التراجع ، مختفياً فى الظلام . كانت أمه خارجة

فى صحبة البارون ، وقد أصبح رفيقها لا يفارقها ! .. إذن ، فقد وصل فى الوقت المـلائم .. ترى فيم كانا يتكلمان ؟ .. ولم يستطـع أن يتبين حديثهما ، إذ كانا يتكلمان بصوت منخفض ، بينما أخذت الريح تهز الشجر بعنف . على أنه ما لبث أن سمع ضحكات من أمه .. ضحكات لم يكن له بها عهد .. ضحكات عصبية ، منفعلة ، حادة ، غير مألوفة ، وكأنمـا كان ثمة من يدغدغ ملمس الضحك لديها .. كان ضحكها يبدو وكأنه منبعث من شخص غريب عنه ، فينذر بالشر ! .. ولكنها كانت تضحك ، فليس ثمة شر إذن .. بل ليس هناك ما يوحى بأنهما يخفيان عنه أمراً على شىء من الأهمية أو الغرابة ..

وشعر (إدجار) إذ ذاك بشىء من خيبة الأمل !

● ✲ ✲

● ولكن لمـاذا يخرجان من الفندق ؟! .. وإلى أين يذهبان الآن ، وحـدهما ، فى جوف الليل ؟ .. كانت فى الجو نذر رياح شـديدة صاخبة .. وأظلمت صفحة السماء بغتة ، بعد أن كانت — منذ لحظة — صافية ، مشرقة بالضوء .. وكأنما طرحت يد خفية حجباً على وجـه القمر ، فإذا الليل كثيف الظلمة ، حتى ليجد الإنسان مشقة فى تبين الطريق . ولكن كوكب الليل لم يلبث أن تخلص من غلالته القاتمة هذه وغمر المكان بفيض من الضوء الفضى . وطال تعاقب الضوء والظلمة ، وكأن الكون غانية ماجنة ، تتقنع حيناً وتسفر حيناً آخر ! .. وإذ عاد إلى السماء صفاؤها ، لمح (إدجار) وسط الطريق طيفى البارون وأمـه سائرين ، أو قل أنه لمح طيفاً وحـداً يمثلهما ، لأنهما كانا يسيران

متلاصقين ، كما لو كانا نهباً لخوف داخلى يهز مشاعرهما هزاً عنيفاً !.. ترى إلى أين يذهب هذان الشريكان الآثمان ؟.. كان نبات الصفصاف يتنهد ، والغابة تتململ فى حركة قلقة ، مضطربة ، وكأن صائداً ضارياً يروح ويجىء — بين أعوانه — فى المكان ، طليقاً من كل قيد ! .. وقال (إدجار) فى نفسه : « سأتبعهما ، فإنهما لن يستطيعا سماع وقع خطواتى وسط صخب الريح وحفيف نباتات الغابة » .

وأخذ يرقبهما وهما يهبطان الطريق المنحدر الواسع .. وسار فى أعقابهما خفية ، متنقلا من شجرة إلى أخرى ، ومن ظل إلى آخر : كان يتبعهما فى مثابرة وعناد ، حامداً للريح صنيعها ، إذ كانت لا تمكنهما من سماعه ، لاعناً إياها — فى الوقت نفسه — لأنها حرمته من سماع حديثهما ! .. وداخله يقين بأنه لو استطاع أن يتبين وجهيهما ، لعرف السر ! !

ومضيا فى سيرهما غير مبالين بشىء ، وهما يحسان بالسعادة لخلوتهما هذه فى الليل الطويل النابض بالحركة ، مستسلمين لنشوتهما الفياضة ، دون أن يدور بخلدهما أن فى الظلمة من كان يقتفى كل خطوة من خطواتهما عن كثب ، وأن ثمة عينين مليئتين بالفضول والبغض ، لا تتحولان عنهما لحظة !

وما لبثا أن توقفا فجأة ، فتوقف (إدجار) كذلك على الفور ، والتصق بإحدى الأشجار ، وقد اعتراه سخط مشوب بالخوف .. فماذا يحدث لو أنهما نكصا على أعقابهما عائدين إلى الفندق ، ولم يستطع أن يبلغ غرفته قبل وصولهما ؟! .. لسوف يخسر كل شىء إذ ذاك ..

سيعرف أنه يرقبهما خفية ، وسيفقد كل أمل فى أن ينتزع منهما السر الذى يهفو إليه بكل قوته ! .. على أنهما لاحا مترددين .. وكان — لحسن حظه — بمنأى عن ضوء القمر ، فلم يكن بوسعهما أن يتبيناه ، بينما كان هو يراهما بجلاء .

وأشار البارون بيده إلى درب صغير مظلم يؤدى إلى السهل ، حيث كان ضوء القمر أقل تألقاً ، إذ لم يكن يصل إليه من الأشعة الفضية سوى خيوط تتخلل الغابة ، منسابة فى وهن نحو الطريق . وتساءل (إدجار) : « ترى لماذا يريدان أن يهبطا من هنا ؟ » .. وبدت أمه وكأنها رافضة . أما البارون فقد أخذ يتكلم . واستطاع (إدجار) أن يتبين من خلال حركاته أنه يلح . وعرا الصبى خوف ووجل . ما الذى يبغيه هذا الرجل من أمه ؟ .. لماذا يريد هذا التعس أن يستدرجها إلى الظلام ؟ .. وبغتة ، قفزت إلى عقله ذكريات حية مما كان قد قرأه فى كتبه عن الاغتيالات وحوادث الخطف والجرائم الغامضة .. لابد أنه يريد قتلها ، وأنه كان يبعده لكى يستدرجها إلى هذا المكان المنعزل ! . ألا يجدر به أن يستغيث ، وأن يصيح : « القاتل ! »

وهم بأن يصيح فعلا ، ولكن شفتيه الجافتين لم تخرجا أى صوت . وتوترت أعصابه لفرط الانفعال .. ولم يعد يقوى على البقاء واقفاً ، فبحث عن شىء يستند إليه . وأجفل إذ تقصف أحد الأغصان تحت يده . واستدار الطيفان وجلين ، وأرسلا بصريهما فى ظلام الغابة ، يحاولان أن يستبينا ما كان هناك .. وازداد (إدجار) التصاقاً بالشجرة ، وثبت يديه إلى جانبيه ، وجمد فى مكانه وقد لفه الظلام بردائه . وساد



واستدار الطيفان وجلين ، وأرسلا بصربهما فى ظلام الغابة ، يحاولان أن يستبينا ما كان هناك ..

الصمت من جديد ، ومع ذلك لم يبد على الشريكين — برغم السكون — أنهما قد استردا طمأنينتهما.

وما لبثت الأم أن قالت : « لنعد ! » .. ووافق البارون ، إذ كان هو الآخر قلقاً .. ومن ثم عادا أدراجهما فى خطى وئيدة ، وقد التصق كل منهما بالآخر . واستشعر (إدجار) لألمهما النفسى لذة ! .. وزحف على يديه وقدميه ، حتى أدمى كفيه ، متسللا خلال الشجر ، إلى أن اجتاز الغابة . ثم أخذ يعدو بأقصى سرعته ، حتى تقطعت أنفاسه من الإعياء .. وما أن بلغ الفندق ، حتى صعد السلم فى قفزات قليلة : وكان مفتاح (سجنه) فى ثقب الباب لحسن الحظ ، فأداره فى القفل ، وفى لحظة واحدة كان داخل الغرفة ، فاستلقى على فراشه .. وبقى ساكناً لبضع دقائق ، إذ كان قلبه ينبض بشدة فى صدره ، وكأنه مقرعة تدق جوانب ناقوس رنان ! .. على أنه ما لبث أن استجمع قواه ، فنهض وأسند ذراعيه إلى النافذة ، مرتقباً عودتهما .

* * *

● انتظر طويلا .. لا شك أنهما كانا يسيران ببطء شديد . ومضى يرقب الطريق فى حذر ، خلال النافذة المغمورة بالظلام .. وما لبثا أن لاحا له ، يتقدمان رويداً ، رويداً ، وقد لمعت ملابسهما فى ضوء القمر كانا يبدوان كطيفين يتحركان فى هذا الضوء المائل إلى الخضرة : وما لبث الصبى أن عاد يسائل نفسه مرة أخرى : ألم يكن هذا الرجل قاتلا حقاً ؟.. ألم يكن تسلله وراءهما سبباً فى الحيلولة دون وقوع حادث رهيب ؟.. وما لبث أن تبين بوضوح وجهيهما وقد لاحا فى بياض

الجير . وكان يرتسم على وجه أمه شعور بالغبطة ، لا عهد لها به : أما البارون فكان على العكس ، يبدو مستاء .. لا شك أنه كان مستاء لإخفاقه فيما دبره !

وازدادا اقتراباً ، بيد أن طيفيهما لم يفترقا إلا عندما صارا على بعد خطوات من الفندق .. ترى هل سيرفعان أنظارهما إلى الطابق الذى يقف فيه ؟ .. كلا ، لم يتطلع أحدهما نحوه .. وقال الصبى لنفسه : « لقد نسيانى ! » .. وطغى عليه حنق جائح ، خالطه إحساس خفى بالانتصار .. وعاد يقول فى نفسه : « أما أنا ، فلم أنسكما .. إنكما تحسبان — ولا شك — أنى نائم ، أو أننى لست موجوداً على الإطلاق ، ولكنكما لن تلبثا أن تعرفا أنكما مخطئان .. فلسوف أراقب كل خطوة من خطواتكما ، حتى أظفر من هذا الوغد بالسر .. السر الرهيب الذى لا يدعنى أنام .. سأفض حلفكما .. فلست غافلا ولا نائماً ! »

واجتاز القادمان باب الفندق ، وإذ دخلا — واحداً خلف الآخر — اختلط ظلاهما الطويلان المنبسطان على الأرض لحظة ، قبل أن يتلاشيا فى ضوء الباب .. ثم أفاض القمر ضياءه على فناء الفندق ، فبدا كأنه سهل من الجليد واسع الجنبات :

* * *

الفصل الثامن

● استدار (إدجار) عن النافذة لاهثاً ، يرتعد من الخوف ! :: إنه لم يكن فى يوم من الأيام أقرب إلى مثل هذا السر ، منه اليوم . لقد كان يحسب أن عالم الانفعالات والمغامرات المثيرة .. عالم الاغتيالات والمخادعات ، الذى ارتاده فى كتبه ، لا وجود له إلا فى مملكة الأقاصيص والأحلام ، بعيداً عن الواقع المحسوس ، الملموس : أما الآن ، فقد بدا له بغتة أن ذلك العالم موجود فى قلب عالمنا هذا المخيف ، فاهتز له كيانه كله اهتزازاً عنيفاً .. من يكون هذا الرجل الغامض الذى دخل بغتة فى حياتهما الهادئة ؟ أهو حقاً قاتل ؟ أهو حقاً يبحث عن الأماكن المنعزلة ويريد استدراج أمه إلى حيث يخيم الظلام؟ لابد أن أمراً مخيفاً كان يوشك أن يقع ، فما العمل ؟ لابد من أن يكتب إلى أبيه فى صباح غد ، أو يرسل إليه برقية . ولكن ، ألا يمكن أن يقع الحادث فى هذا المساء بالذات ؟ إن أمه لم تصعد بعد ، إنها ما تزال مع ذلك الغريب ، مع ذلك الرجل اللعين !

وكانت تفصل بين باب الغرفة والباب المؤدى إلى الردهة مسافة ضيقة ، لا تتجاوز حجم خزانة الثياب .. فاختفى الصبى فى ذلك المكان المظلم ، خلف ستارة ، ليرقب عودتهما المتأخرة ! كان قد قرر ألا يتركهما بعد الآن وحدهما ، ولو للحظة واحدة ! .. لقد انتصف الليل وخلت الردهة ، وخفت ضوؤها ؛ فلم يعد يضيئها سوى مصباح واحد .. وبدت له الدقائق ساعات :: وأخيراً ، سمع وقع أقدام على

درج السلم ، فأرهف سمعه . . لم تكن مشية شخص يريد الإسراع فى العودة إلى غرفته ، وإنما هى خطوات متثاقلة ، مترددة ، أشبه شىء بخطى السلحفاة .. وبتلك الخطى التى نجتاز بها طريقاً وعراً !

وكانت تسمع من حين لآخر همسات ، يتبعها توقف متكرر ! فكان (إدجار) يرتعد من الانفعال : هل هما القادمان آخر الأمر ؟ .. أهو ما يزال معها ؟ إن الصوت الخافت بعيد جداً ، بيد أن الخطى التى مازالت مترددة غدت أكثر وضوحاً !.. وفجأة سمع (البارون) يقول هامساً بصوته البغيض ، شيئاً لم يفهمه ، أعقبه على الفور جواب أمه تقول : « لا ، لا ، ليس اليوم ! » .. وارتجف إدجار أكثر فأكثر . إنهما يقتربان ، وسيسمع حتماً كل شىء ! إن كل خطوة يخطوانها صوبه — بالغة ما بلغت من الصغر — تضاعف من نبضات قلبه ! لكم بدا له صوت الرجل الذى يبغضه قبيحاً لا يطاق ، وهو يلحف متذللا : « خلى عنك القسوة . لقد كنت فائقة الجمال هذا المساء ! » .. فأجابت : « لا ، لا يحق لى ! لا أستطيع .. اتركنى ! »

وتولى الصبى الرعب : إن أمه تتنهد بشدة ، ترى ماذا يريد (البارون) منها ؟! لماذا هى خائفة ؟ إنهما يقتربان من الباب ، وهو خلفهما يرتعد فى مخبئه ، ولا يفصله عنهما أكثر من ذراع ، ولا يخفيه عن ناظريهما سوى الستار الرقيق . إنه الآن يسمع صوتهما قريباً من أنفاسه : « تعالى ، يا ماتيلد ، تعالى ! » .. ومرة أخرى سمع الغلام أمه تتنهد ، بيد أنها تتنهد الآن تنهداً واهناً .. إن مقاومتها تضعف !

ترى ما الذى يحدث ؟ .. وواصل الاثنان السير فى الظلام فمرت أمه أمام غرفتها ، لكنها لم تدخل . إلى أين يستدرجها (البارون) ؟ لماذا لم تعد تتكلم ؟ هل أعطاها مخدراً ، أم هو يضغط على حنجرتها ؟ .. إن الغلام ليكاد يجن لهذه الأفكار ! .. وفتح الباب ، بيد مرتعشة ، بضع سنتيمترات . إنه يراهما الآن فى الردهة التى يغمرها الظلام ، وقد احتوى البارون الأم بين ذراعيه وأخذ يجذبها فى رفق ، وهى تبدو مستسلمة ! .. حتى وقفا أمام غرفة الرجل ، وحسب الغلام فى وجل أنه يريد إدخالها بالقوة ، وأنه سيرتكب جرمه الآن ! .. ففتح الباب بحركة وحشية ، واندفع نحو البارون وأمه ! .. ورأت الأم (شيئاً) يخرج بغتة من الظلام منطلقاً صوبها .. فصاحت ، وبدا كأنه أغمى عليها ! .. وأسندها البارون بمشقة ، غير أنه أحس فى تلك اللحظة بقبضة صغيرة على وجهه ، تسحق — برغم وهنها — شفتيه ، وتلصقهما بأسنانه .. كما أحس شيئاً يتشبث بجسمه كالقط ! .. وإذ ذاك تركت الأم وقد تملكها الرعب فانطلقت مبتعدة قبل أن تعرف حتى من المهاجم !.. بينما حاول البارون — دون أن يرى شيئاً — أن يرد اللطمات التى تنهال عليه ! .: كان الصبى يعرف أنه أضعف من خصمه ، لكنه لم يوقف النزال . لقد حان الوقت أخيراً كى يثأر لحبه الطعين ، وينفث كل البغض الذى استجمعه فى قلبه . إنه يضرب خصمه بقبضتيه الصغيرتين ضربات عمياء ، وقد اصطكت أسنانه فى هياج وجنون ! .. وإذ عرفه (البارون) وقف فى مواجهته مفعم النفس — هو أيضاً — بالبغض لهذا « الجاسوس » الذى عكر صفو الأيام الأخيرة من إجازته ، والذى

حال بينه وبين الفوز بالصفقة التي شرع في اقتناصها ! .. وكان الغلام يضرب بغلظة ، كيفما اتفق .. وزفر غيظاً ، لكنه لم يترك المعركة ، ولا استغاث بأحد ! .. وظل دقيقة في عراكه الصامت وسط الردهة المظلمة . وشيئاً فشيئاً ، استبان البارون أن هذه المعركة بينه وبين غلام لم يكتمل بعد ، هي معركة (مضحكة) ، فهم بلطمه لطمة تبعده عنه ! .. بيد أن الغلام إذ أحس بأن عضلاته تخور ، وأنه سيهزم بعد لحظة . عض في هياج وحشي ، اليد القوية التي أرادت أن تمسك برقبته ! .. فصاح البارون — دون قصد — صيحة مختنقة ، وجذب يده من فم الغلام .. وإذ ذاك غنم إدجار الفرصة فهرع إلى غرفته ، وأغلق الباب وراءه !

لم تطل معركة نصف الليل هذه أكثر من دقيقة ! ولم يسمع أحد — سواء من الجانب الأيمن أو الجانب الأيسر — شيئاً . حدث كل شيء في سكون ، كما لو كان في حلم ! .. ومسح (البارون) بمنديله يده الدامية ، وهو يجيل بصره في الظلام قلقاً : لم ير أحد ما حدث ، ولكن كان هناك في السقف ضوء مضطرب بدا له كأنه يسخر منه !

* * *

● حين صحا (إدجار) في صبيحة اليوم التالي ، أشعث الشعر ، نهباً لألم ممض غامض ، ساءل نفسه في حيرة : « أهو حلم ؟ .. كابوس ثقيل مخيف ؟! » . إنه يحس بدوار شديد ، ويبدو مضطرباً . وإذ نظر إلى نفسه ، أذهله أن يلحظ أنه ما زال بملابسه ! فنهض مسرعاً واتجه نحو المرآة .. بيد أنه تراجع من شدة الخوف حين رأى وجهه شاحباً ،

متبدلا تماماً ، وجبينه متورماً وبه خطوط حمراء ! .. ثم استعاد هدوءه بعناء ، وتذكر في مرارة ما حدث : تذكر المعركة الليلية في الردهة ، وعودته الخاطفة إلى غرفته ، كما ذكر أيضاً أنه في حمى الفزع الذي انتابه كان قد ارتمى على فراشه دون أن يخلع ملابسه ، متأهباً للهرب ! ولا شك أنه بعد هذا استسلم لنوم مضطرب تجدد فيه مشهد الردهة ، ولكن بصورة مختلفة ، أشد رعباً .. إذ أن رائحة الدم كانت تصعد إلى أنفه !

أما في الطابق الأسفل من الفندق فكانت ثمة خطى تدق أديم الأرض ، وأصوات ترتفع في الهواء — كما لو أن طيوراً غير مرئية تصعد صفحة السماء ! — وقد أخذت أشعة الشمس تنساب إلى غرفة الغلام . لابد أن النهار قد تقدم . ونظر (إدجار) إلى ساعته ، فتبين أنها تشير إلى منتصف الليل . لقد فاته في شدة انفعاله أن يملأها ! وأن عجزه عن ضبط الوقت تماماً لما يضاعف الاضطراب الذي يستشعره من جراء جهله بما حدث يوم أمس بالضبط ! .. ونهض فاغتسل وأصلح من شأن نفسه في عجلة ، ثم هبط إلى الطابق الأسفل وهو نهب لهزة نفسية ، ولشيء من الإحساس بالإثم !

كانت أمه في قاعة الطعام ، جالسة بمفردها إلى المائدة المألوفة ، وتنفس إدجار الصعداء حين رأى أن غريمه غير موجود في القاعة ، وأنه لن يرى ذلك الوجه البغيض الذي لطمه أمس بقبضته ، بدافع من الغضب . ومع ذلك فإنه وهو يقترب من المائدة لم يكن واثقاً بنفسه .

وحيا أمه تحية الصباح . لكنها لم تجبه بشيء ، بل لم تنظر إليه !

إنها تركز بصرها فى المنظر الخارجى الممتد أمامها ، وقد بدت شاحبه غاية الشحوب ، وعيناها مغلقتان قليلا ، وأسفل أنفها يهتز تلك الاهتزازة التى يعرفها إدجار ، والتى تشى باضطراب أعصابها ! .. وعض الغلام شفتيه : إن هذا الصمت يزعجه ، فهو لا يعرف إذا كان قد أصاب (البارون) بالأمس إصابة خطرة ، وإذا كانت أمه على علم بالمعركة الليلية ؟! ! وكان هذا يؤلمه أشد الألم ، فبدا له وجه أمه — الذى ظل ثابتاً — مقلقاً إلى حد أنه لم يحاول مجرد النظر إليها ، خشية أن تبرز عيناها بغتة وراء جفنيها المغلقين ، وتحدقا فيه !

ولم ينطق بكلمة واحدة ، أو يجرؤ على أية حركة — حتى لقد حرص أشد الحرص على ألا يحدث أى صوت عند رفع قدحه ، أو إعادته إلى مكانه من المائدة ! — وإن راح يلقى من حين لآخر . خفية ، ببعض النظرات على أصابع أمه التى تداعب الملعقة فى حركة عصبية تنم عن غضب خفى ؟!

وظل جالساً على هذه الصورة ربع ساعة ، فى انتظار شىء لا يجىء !.. لم تفه أمه بكلمة واحدة تخرجه من اضطرابه ! وعندما نهضت ، وهى ما تزال غير ملقية بالا لوجوده ، لم يكن يدرى ماذا ينبغى له أن يفعل : أيبقى جالساً وحده إلى المائدة ، أو يصحبها ؟ على أنه نهض آخر الأمر وتبعها فى ضعة ، بينما تظاهرت هى بأنها لا تراه !. وأحس الصبى أنه مضحك فى سيره على هذا النحو فى أثر أمه .. فأخذ يقصر خطاه حتى تتضاعف المسافة التى تفصله عنها .. إلى أن دخلت غرفتها غير عابئة به ، وأغلقت الباب فى وجهه !

ماذا حدث ؟ إنها وهو لم يعودا يعرفان أحدهما الآخر ! لقد فارقته طمأنينة الأمس . أليس مخطئاً فى مهاجمة البارون على هذا النحو ؟ وهل هما يعدان له عقاباً أو تحقيراً جديداً ؟ إنه يلمح أن شيئاً رهيباً يوشك أن يحدث ! كانت تبدو فيما بينه وبين أمه بوادر عاصفة تقترب ، وكانت الصاعقة تبدو محتومة .. لقد أنفق أربع ساعات متنقلا بين قاعات الفندق يحمل ثقل هذا الإحساس الذى ناءت به رقبته الغضة ، حتى إذا حان موعد الغداء جلس إلى المائدة فى ضعة وذلة !

ومرة أخرى حيا أمه ! إنه فى حاجة إلى قطع هذا الصمت المكشر عن أنيابه ، الجاثم فوق صدره ، المخيم على حياته كسحابة قاتمة !.. لكن أمه لم تجب هذه المرة أيضاً ، ولم تنظر إليه كذلك ! وأحس إدجار فى وجل جديد بأنه يواجه غضباً مقدوراً ، ومركزاً ، لا عهد له به من أمه : إن الخلافات التى نشأت بينهما إلى اليوم لم تكن سوى ثورات غضب ترجع أكثر ما ترجع إلى حالات عصبية ، وكانت سرعان ما تزول بملاطفة أو ابتسامة . أما هذه المرة فيبدو له جلياً أنه قد أثار على نفسه فى قلب أمه شعوراً دفيناً ، وهو الآن يرتعد أمام تلك القوة التى أيقظها من مرقدها !

وهكذا تناول طعامه على مضض . إنه يغص بشىء صلب حتى ليكاد يختنق ! وأمه تبدو كما لو أنها لا تلحظ شيئاً من كل هذا . مرة واحدة أبدت ما ينم عن شعورها بوجوده ، حين نهضا فاستدارت كما لو كان ذلك بطريق المصادفة ، اتفاقاً ، وقالت : « اصعد يا إدجار ، إن لى كلاماً معك » .

لم تقل ذلك بلهجة التهديد ، بل قالته فى ثبات وهدوء ، إلى حد أن إدجار استشعر رعشة تهز كيانه ، كما لو أن حلقة محكمة وضعت حول عنقه !.. لقد أذلت كبرياءه ، فتبع أمه إلى غرفتها ككلب مصفوع !

ظلت أمه صامتة بضع دقائق – حسبها هو (ساعة) . لفرط ما كان يعانيه من ألم ممض !.. كان يسمع همس ساعته ، وضحك طفل فى الخارج ، ونبضات قلبه تدق سراعاً داخل صدره . وكانت هى أيضاً تحس بانفعال شديد ، فكانت كلما خاطبته تتجنب النظر إليه ، وتدير له ظهرها !.. وابتدرته بقولها :

– لا أريد أن أتكلم عن مسلكك أمس . إنها فضيحة يخجلنى أن أفكر فيها ، ولسوف تتحمل تبعتها ! أما الآن فأريد أن أقول لك شيئاً واحداً : منذ اليوم ليس لك مكان بين الكبار ! لقد كتبت الآن إلى أبيك ليجعل لك رائداً ، أو يكل شأنك إلى قسم داخلى فى أحد المعاهد.. حتى تتعلم السلوك الحسن ! فلست أريد أن أتعذب بسببك ..

كان إدجار واقفاً مطأطئ الرأس ، وقد أحس أن ذلك ليس سوى مقدمة وتمهيد للأمر الجوهرى الذى ينتظره فى قلق !

وأردفت الأم : « والآن ستذهب على الفور للاعتذار إلى البارون ! »

ارتجفت فرائص إدجار .. بيد أنها لم تسمح له بمقاطعتها ، بل استطردت : « لقد سافر البارون اليوم ، وستكتب له الخطاب الذى سأمليه عليك ! » .

ارتعش (إدجار) مرة أخرى ، لكن أمه قالت فى صلابة : « لا معارضة ! إليك الورق والحبر ، اجلس ... » .

نظر إليها إدجار وقد تصلبت عيناه خضوعاً لقرار لا رجعة فيه ! – فإنه لم يكن قد رأى أمه فى أى وقت مضى قوية حاسمة إلى هذا الحد – ثم عراه الخوف فجلس وتناول القلم ، وأحنى رأسه على المائدة ، انحناءة كبيرة ، بينما أخذت أمه تملى عليه : التاريخ فى أعلى.. هل تكتب ؟.. اترك سطراً .. حسن :

(سيدى) .. اترك سطراً آخر .. « علمت بمزيد الأسف (هل أنت مستمر ؟) .. علمت بمزيد الأسف أنك غادرت (سيمرنج) ، وأنا لهذا مضطر لأن أضمن خطابى ما كان ينبغى أن أفعله بشخصى ، أى (أسرع قليلا ، لا ضرورة لتحسين خطك) ، أى أنى أرجوك قبول أسفى على مسلكى بالأمس . فإنى كما قالت لك أمى ناقه من مرض خطير . وما أزال سريع الانفعال . ولهذا فإنى كثيراً ما أرى الحبة قبة ، فأسلك فى بعض الأمور مسلكاً أندم عليه بعد قليل ! » .

كان (إدجار) منحنياً بظهره نحو المائدة ، فاعتدل بقوة ، واستدار : لقد استيقظت كبرياؤه .. فهتف : « لن أكتب هذا ، لأنه غير صحيح ! »

وصاحت أمه مهددة (إدجار) :

– ليس صحيحاً ! لم أفعل شيئاً أندم عليه . لم أفعل سوءاً أعتذر عنه ، وإنما هرعت فقط لإغاثتك عندما طلبت الغوث ! »



شحبت شفتا الأم ، وتمرد أسفل أنفها :

— تقول إنى استغثت ؟ أنت مجنون !

انتفض (إدجار) غضباً فنهض بغتة واقفاً ، وأجابها : « نعم لقد استغثت فى الردهة ، مساء أمس ، عندما وضع يده عليك وصحت بصوت عال : « اتركنى ، اتركنى » ، حتى لقد سمعت صياحك وأنا فى غرفتى ! »

— أنت تكذب ! .. فما كنت قط مع (البارون) فى الردهة ، وإنما صحبنى فقط حتى أول السلم ..

وإذ سمع إدجار هذا الكذب الجرىء خيل إليه أن قلبه يوشك أن يتوقف عن النبض ، ولم يدر ماذا يقول .. ثم نظر إلى أمه بعين فاحصة وجابهها :

— ألم ... ألم تكونى ... ألم تكونى فى الردهة ؟ وهو ... وهو .. ألم يأخذك بين ذراعيه ، ألم يضربك بقبضته بشدة ؟

ضحكت ضحكة فاترة جافة .. وأجابته : « كنت تحلم ! »

وكان هذا أكثر مما يحتمله الغلام أو يتوقعه ! كان يعرف أن الكبار يلجأون إلى أساليب غير صحيحة للهرب من الحقيقة ، وإلى أكاذيب وخدع ملتوية .. أما إنكار الأشياء الحقيقية تماماً ، فى غير حياء أو خجل ، فذلك ما أثار ثائرته وأهاج نفسه !

— وهذه الكدمات الدامية .. أهى حلم أيضاً ؟

— وكيف لأحد أن يعرف ممن أصابتك ، ومع من تشاجرت ؟..

على أننى لا أريد جدالا .. عليك الطاعة ، ولا شىء غيرها .. اجلس ، واكتب .

وكانت شديدة الشحوب ، وتجد عناء فى الاحتفاظ بثباتها وهدوئها .

وفجأة ، انبثق فى أعماق (إدجار) شىء .. قبس أخير انبعث من يقينه .. وبهت إذ رأى الحقيقة تمتهن على هذا النحو ، وكأنها لا تزيد فى قيمتها عن عود ثقاب محترق ! .. وسرت فى جسده قشعريرة .. وعندما تكلم أخيراً ، بدا كل ما قال دامياً ، موجعاً ، واخزاً :

— آه ، كل هذا عرض لى فى الحلم ! .. حتى ما جرى فى الردهة ! .. هذه الكدمات الدامية .. ونزهتكما بالأمس وحيدين فى ضوء القمر ، ورغبته فى أن يحملك على سلوك الدرب المنحدر .. لعلنى حلمت بكل هذا أيضاً ! .. أو ظننت أننى أرتضى البقاء سجيناً فى غرفتى كطفل صغير ؟ .. لا ، لست أبله بالدرجة التى تخالينها ! .. إننى أعرف ما أفعل !

وأشاح عنها فى صلف . وإذ رأت الأم ابنها يقاومها على هذا النحو خرجت عن هدوئها ، فصاحت وقد اربد وجهها بالكراهية ، وجاش غضبها : « هيا .. اكتب فوراً ، وإلا .. » .. فقال بصوت انطوى على التحدى والاستثارة : « وإلا ماذا ؟ »

— وإلا ضربتك كما يضرب الطفل العنيد !

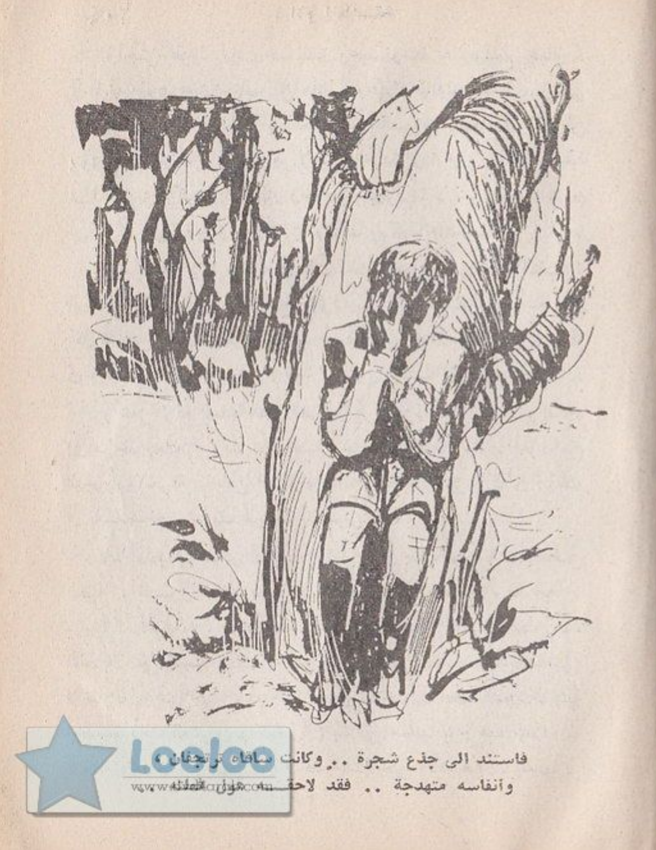
فاقترب منها خطوة ، وأطلق ضحكة ساخرة . وإذ ذاك صفعته على وجهه ، فصاح كشخص أشرف على الغرق ، وانبعث فى أذنيه طنين غريب ، وأخذ يطوح قبضتيه حوله على غير هدى .. وانبثق

أمام عينيه خيط من نور أحمر .. واستمر يضرب بقبضتيه كيفما اتفق ، ثم أحس بأنه أصاب شيئاً ناعماً .. أحس بأنه يديه أصابتا وجهاً .. وسمع صرخة !

وردته هذه الصرخة إلى وعيه .. إلى الحقيقة . فتنبه — بغتة — إلى ما كان يفعل .. وشعر بما كان أبعد الأمور عن أن يصدقه .. لقد ضرب أمه ! .. واستبد به الألم ، والخجل ، والخوف .. واستأثرت به رغبة جامحة فى الهرب ، والاختفاء .. بل تمنى لو ابتلعته الأرض ! . وإن هى إلا لحظة ، حتى قفز نحو الباب ، وهبط السلم مسرعاً ، ثم غادر الفندق . وانطلق يعدو فى الطريق ، كما لو كان فى أعقابه حشد حانق يطارده !

* * *

● ووقف أخيراً ، بعيداً ، وقد أدركه الإعياء ، فاستند إلى جذع شجرة .. وكانت ساقاه ترتجفان ، وأنفاسه متهدجة .. فقد لاحقه هول فعلته ، وراح الذعر والاستنكار يخنقانه ، ويهزان كيانه فى عنف محموم . ترى ما الذى ينبغى أن يفعل بعد هذا ؟ .. أين يلتمس المأوى ؟! .. وشعر بالوحدة تحيط به ، برغم أنه كان فى الغابة التى ألفها ، وعلى مسيرة ربع ساعة من الفندق . وخيل إليه أن ما من شىء يشعر به ، أو يكترث له .. بل كان كل شىء يبدىء له العداء ! .. لقد غدا وحيداً ، لا سند له .. حتى الأشجار التى أحاطته أمس بهمساتها الحنون ، قست فجأة ، وبدت ظلالها متحفزة للانقضاض عليه ! .. ولكن ، كم من أمور ترتقبه ، أشد من هذا قسوة وجحوداً !



فاستند الى جذع شجرة .. وكانت ساقاه ترتجفان ، وأنفاسه متهدجة .. فقد لاحقه هول فعلته .

وأحس بخور ، إذ وجد نفسه وحيداً وسط عالم واسع يجهله .. لا ، لن يقوى على احتمال كل هذا .. وعلى احتماله وحده ! .. ولكن بمن يلوذ ؟ .. إنه ليخشى أباه الغضوب ، السريع الانفعال ، الذى لن يتورع عن طرده فوراً .. وهو لا يبغى العودة إلى أمه ! .. وشعر برغبة فى المضى فى ركوب الأخطار وخوض المجهول ، لا سيما وقد بدا له أنه لن يقوى على رؤية وجه أمه ، دون أن يذكر أنه صفعها !

وتذكر إذ ذاك جدته .. تلك الجدة العجوز ، الطيبة القلب ، الرقيقة الجانب ، التى دللته منذ طفولته ، والتى كانت تدافع عنه دائماً كلما تعرض — فى البيت — لعقاب أو ظلم ! .. إذن ، ليختبىء عندها فى (بادن) — بالقرب من (فيينا) — وربما يكتب إلى أبويه معتذراً ..

وأشعره ربع الساعة الذى قضاه فى أول عزلة له ، بالهوان والذلة ، إلى درجة جعلته — وقد خال نفسه وحيداً فى هذا العالم ، أعزل من التجربة والمعرفة — يلعن اعتزازه بذاته .. هذا الاعتزاز الذى أيقظه فى نفسه شخص غريب لم يلبث أن غرر به ..

ولم يعد يبغى سوى أن يظل الطفل الذى كانه من قبل .. الطفل المطيع ، الصبور ، المجرد من هذا الصلف الذى أصبح يراه سخيفاً ، مزرياً ! .. ولكن ، كيف يذهب إلى (بادن) ؟ .. كيف يقطع هذه الأميال التى تفصله عنها ؟ .. وجذب محفظة نقوده الجلدية — التى لا تفارقه — من جيبه ، ثم حمد الله حين وجد بها قطعة النقود الذهبية الجديدة ذات العشرين (كورونا) — التى منحها يوم عيد ميلاده — محتفظة بلمعانها وبريقها .. كان قد أمسك حتى الآن عن أن ينفقها ..

وكان فى كل يوم ، يتثبت من وجودها داخل المحفظة . واغتبط لرؤيتها ، أليس غنياً بفضلها ؟ .. وفى رفق ينم عن عرفان بالجميل جعل يفركها بمنديله حتى غدت فى تألق الشمس الصغيرة !

ولكنه لم يلبث أن جزع ، إذ خامرته فكرة جديدة .. هل تكفى هذه النقود ؟ .. إنه كثيراً ما سافر بالقطارات ، ولكن لم يخطر بباله من قبل أن هذا السفر يقتضى ثمناً ، ولا سأل مرة عن مقدار هذا الثمن. أهو (كورون) واحد ، أم مائة (كورون) ؟ .. وتبين — لأول مرة — أن فى الحياة أشياء لم يفكر فيها من قبل .. وأن للأشياء الكثيرة التى عاش بينها ، والتى اعتاد أن يتناولها بأصابعه وأن يلعب بها ، قيمة ذاتية ، ومغزى خاصاً ! .. وفطن — وهو الذى كان منذ ساعة فقط يتصور أنه يعرف كل شىء — إلى أنه مر بعديد من المشكلات والألغاز دون أن يلقى بالا إلى واحدة منها ، وأن بصيرته الصغيرة تخونه ، ولما يخط بعد سوى خطوات قليلة فى معترك الحياة !

واشتد تردده ، وتعثرت مشيته ، عندما اقترب من المحطة . كم من مرة فكر فى الهرب على هذا النحو ، وكم من مرة هم بأن يقذف بنفسه فى خضم الحياة ليصبح إمبراطوراً ، أو ملكاً ، أو جندياً ، أو شاعراً ! .. ولكنه الآن ، وقف ينظر فى خوف ووجل بالغين ، إلى مبنى المحطة الصغير ، الصارخ اللون ، القائم إلى جانب القضبان الحديدية .. ولم يعد يفكر إلا فى شىء واحد ، هو : هل تكفى العشرون (كوروناً) لإيصاله إلى بيت جدته ؟

وتأمل القضبان الحديدية اللامعة ، وقد امتدت بعيداً وراء مرمى

البصر .. وألفى المحطة خالية من الناس أو تكاد ، فاتجه وجلا إلى نافذة التذاكر ، وسأل بصوت خافت — حتى لا يسمعه أحد — عن ثمن تذكرة إلى (بادن) . وأطل عليه من خلف النافذة المعتمة وجه علته الدهشة ، وهو يلقى نظرة باسمة — خلال عدستى نظارته — على هذا الغلام البادى الارتباك ، ثم سأله الموظف : « تذكرة كاملة ؟ » .. فأجاب (إدجار) فى غير صلف أو غرور ، وإنما فى خوف من أن يكون الثمن مرتفعاً جداً : « نعم » .

— ستة كورونات .

— إذن ، أعطنى تذكرة من فضلك !

ومد يده — مغتبطاً — إلى الرجل بقطعة النقود اللامعة ، العزيزة عليه ، وتناول ما تبقى منها ، قطعاً من النقد الصغير .. وأحس (إدجار) بأنه غدا مرة أخرى غنياً إذ باتت فى يده قطعة الورق المقوى القمحية اللون ، التى تكفل له الحرية ، وفى جيبه قطع النقود ذات الرنين الصامت ! .. وعرف من لوحة المواعيد أن القطار يصل بعد عشرين دقيقة ، فانزوى فى أحد الأركان .. وأخذ ينتظر . وكان على الرصيف بضعة أشخاص ، ينتظرون مثله ، ولا يحفلون بشىء ، بيد أن الصبى المضطرب خالهم ينظرون إليه .. وبدا له أنهم جميعاً فى دهشة لرؤية طفل يسافر بمفرده ! .. بل وخيل إليه أن مرآه يشى بالذنب الذى اقترفه !

وتنفس الصعداء عندما طرق سمعه — آخر الأمر — صوت قادم من بعيد ، أخذ يزداد شدة كلما اقترب من المحطة .. كان صوت القطار

الذى سيحمله إلى العالم ! ولم ينتبه — إلا بعد أن ركب القطار — إلى أن تذكرته من تذاكر الدرجة الثالثة ! .. فقد كانت أسفاره دائماً — قبل اليوم — بالدرجة الأولى .. وهنا أيضاً ، تبين أموراً جديدة عليه .. تبين أن بعض الأشخاص يمتازون — فى الدنيا — على البعض الآخر ، وأن بين الناس فوارق لم يفطن إليها من قبل ! ..

وكان فى المقعد المواجه له عمال إيطاليون ، غلاظ الأصوات ، أمسكوا فى أيديهم الخشنة فئوساً ومجارف ، ولاح فى أعينهم الأسى والاكتئاب ! .. كان من الجلى أنهم قضوا يومهم فى عمل شاق ، مضن إذ أسلم التعب المبرح بعضهم إلى النوم ، فأسندوا ظهورهم إلى خشب المقاعد الصلب ، وفغروا أفواههم . ولم يخطر ببال (إدجار) سوى أنهم كدوا ليكسبوا المال ، ولكنه لم يفكر فى مقدار ما كسبوا ، وإنما كان كل ما فطن إليه ، إذ ذاك ، أن المال شىء لا يكون فى متناول الإنسان فى كل وقت ، وإنما لابد للمرء من اكتسابه بأية طريقة ! .. وأدرك أنه كان يرى الجو المترف الذى عاش فيه أمراً طبيعياً ، فلم يفطن إلى أن فى الحياة ثغرات ذات اليمين وذات الشمال ! .. ثغرات فاغرة الأفواه ، لم يلق بالا إليها فى أى وقت من الأوقات . وانتبه فجأة إلى أن فى الدنيا مهناً ، وحرفاً ، ومناصب متباينة ، وأن على جانبى حياته أسرار من اليسير تبينها ، ولكنه كان غافلا عنها !

* * *

● ما أكثر الأمور التى عرفها (إدجار) فى تلك الساعة التى خلا فيها إلى نفسه ، على ذلك المقعد الضيق ، وسرح ببصره خلال النافذة

المفتوحة ، نحو الأفق ! .. لقد بدأ يستبين رويداً ، خلال القلق المبهم شيئاً راح يتفتح ويبرز أمام بصيرته .. وما كان هذا الشيء : «السعادة» وإنما كان شعوراً من الإعجاب .. الإعجاب بصورة الحياة ، وقد نمت وتضاعفت خطوطها أمام عينيه ! .. وعلى الرغم من أنه شعر بأن فراره كان خوفاً ، وجبناً ، إلا أنه أحس مع ذلك بأنه — ولأول مرة فى حياته — قد أقدم على فعل ، بدافع من ذاته هو : .. كان يواجه — للمرة الأولى — هذا العالم الواقعى الذى طالما مر به من قبل دون ما اكتراث !

ووقر فى نفسه أنه ربما غدا لغزاً غامضاً بالنسبة لأبيه وأمه ، كما كان العالم من قبل لغزاً غامضاً بالنسبة له ! .. وأخذ ينظر خلال النافذة بعينين جديدتين .. بعينين انزاح عنهما الستار الذى كان يحجب عنه الأمور والأشياء قبل اليوم . وخيل إليه أن كل الأشياء أخذت تطلعه على كنهها ، وطبيعتها ، وحوافز النشاط الخفية التى تساورها ! .. وكانت البيوت تلوح لناظريه كما لو كانت تطير ، لفرط سرعة القطار .. كأنما كانت ثمة ريح عاتية تحملها على أجنحتها ! .. ووجد فكره يتجه — دون إرادة منه — إلى أولئك الذين يعمرون تلك البيوت فراح يسائل نفسه : أأثرياء هم أم فقراء ؟ أسعداء أم تعساء ؟ .. أتراهم مثله يتوقون إلى معرفة كل شيء ؟ .. وهل هناك أطفال لم يحفلوا حتى الآن بغير اللعب ، كما كانت حاله ؟ .. وخيل إليه أن عمال سكة الحديد الذين كان يشاهدهم خلال أسفاره — وهم يرفعون رايات الإشارة فى طريق القطار — لم يعودوا دمى ، أو لعباً لا حياة فيها ، كما كانوا

يلوحون له من قبل ، فقد أدرك أن هذه وسيلتهم للكفاح من أجل العيش !

وازدادت سرعة القطار وهو يتجه نحو بطن الوادى ، مبتعداً عن الجبال التى ما لبثت أن بدأت تتوارى ، لينبسط السهل أمام بصر (إدجار) .. فالتفت مرة أخرى نحو الجبال المتباعدة ، وقد غدت كضباب أزرق مهتز ، أو شيء أشبه بالظلال ..

وخيل إليه فجأة ، أنه خلف طفولته هناك .. بين تلك الجبال التى أخذت تتلاشى أمام بصره !

* * *

● ما لبث القطار أن وصل إلى محطة (بادن) . وما أن وجد (إدجار) نفسه وحيداً على الرصيف الذى غمرته الأضواء ، وتراءت عنده أنوار الإشارات الحمراء والخضراء ، حتى غشيته كآبة ، إذ فطن إلى أن الليل قد أسدل أستاره .. كان — خلال النهار — يستشعر طمأنينة وأمناً لأن الناس يحيطون به فى كل مكان ، كما كانت المناظر تسرى عنه .. أما الآن ، فكيف تكون حاله وقد أوى الناس إلى دورهم ، حيث يجدون أسراتهم فى انتظارهم ، وحيث الفراش الوثير ، والنوم الناعم ؟. وأحس بعزلة لا قبل له بها ، وبأنه هائم على وجهه — على غير هدى — تلاحقه فعلته ! .. وانتبه إلى أن لابد له من أن يأوى فى أسرع وقت إلى ملجأ يحميه ، وألا يمكث دقيقة واحدة فى الخارج .. فى بيئة مجهولة لديه !

وانطلق فى الطريق الذى كان يألفه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى وجد نفسه فى النهاية أمام (الفيلا) التى كانت جدته تقطنها . وكانت تقوم فى موقع بديع ، فى أحد الشوارع الكبرى ، وقد صانتها عن الأنظار أشجار حديقة غناء ، فكانت « الفيلا » بسقفها الأحمر تلوح خلال الأشجار كلهب وسط سحابة خضراء ! .. أما جدرانها فكانت بيضاء .. وكانت من طراز بديع ، قديم .

وألقى (إدجار) نظرة خاطفة خلال سياج الحديقة — وكأنه غريب يتعرف على الدار — فلم يجد حركة فى الداخل ، كما كانت النوافذ مغلقة . وحدس أن أهل الدار فى الجانب الخلفى منها . وما أن وضع يده على مقبض الباب البارد ، حتى ساورته فكرة أزعجته : كان منذ ساعتين يرى فى التجائه إلى جدته أمراً طبيعياً ، ولكنه فطن الآن إلى أنه أبعد الأمور عن أن يكون طبيعياً .. كيف يدخل ؟ .. وكيف يمثل بين يدى جدته ؟ .. وكيف يجيب على الأسئلة التى ستوجهها إليه ؟ .. كيف يحتمل النظرات الأولى التى ستوجه إليه حين يضطر إلى الجهر بفراره ؟.. بل كيف يفسر شناعة مسلكه الذى لم يعد يرى له مبرراً ؟!

وفجأة ، فتح الباب ، فأجفل مذعوراً ، وأسرع بالابتعاد خشية أن يفاجئه أحد . ولكنه لم يدر إلى أين يذهب . ووقف برهة أمام متنزه البلدية .. كان الظلام يرين عليه .. وخيل إليه أنه خال من أى إنسان ، فعن له أن يجلس فيه ليستريح ويستعرض حاله ، ومن ثم دلف إلى المتنزه فى وجل . وبدت له المصابيح الواهنة التى قامت بين الشجر عند مدخل المتنزه كأشباح التفت بغلالات خضراء .. وكان لابد من أن

ينحدر فى طريق تفضى به إلى قلب الحديقة ، حيث غرق كل شىء فى ظلمة ليل الربيع المبكر ، حتى ليخال الناظر أنه إزاء عجينة سوداء تختمر ! .. وخفق قلبه إذ مر بأشخاص جلسوا تحت أضواء المصابيح الغازية الواهنة ، يتحدثون أو يطالعون .. إذن ، فلن يجد الوحدة التى ينشدها ؟ .. وخطر له أنه ربما استطاع أن يخلو إلى نفسه فى الدروب المعتمة ، ولكنه سمع فيها همساً يمتزج — بين حين وآخر — بزفيف الريح ، وحفيف الشجر ، ووقع أقدام بعيدة ، وضحكات مختنقة ، وأصوات خافتة كالأنغام ، تنظمها آهات وتنهدات خيل إليه أنها تتصاعد من أفئدة الإنسان ، والحيوان ، والطبيعة الهاجعة !

وأحس بهاجس محير ، قلق ، منذر ، فى هذه الحياة النابضة التى أشاعها مطلع الربيع ، والتى ملأت جنان الغلام المضطرب ألماً موجعاً!

* * *

● وجلس فوق أحد المقاعد ، منطوياً على نفسه ، فى هذا الظلام الذى لا عهد له به : وجعل يفكر فيما سوف يقوله لجدته ، بيد أن الأفكار كانت تفلت منه قبل أن يمسك بها ! .. كان — على الرغم منه — يلقى سمعه إلى الهمسات الخافتة ، وإلى الحركات الغامضة التى كانت تنبعث فى جوف الليل . لكم كانت هذه الظلمة مفزعة ، مخيفة ! .. ومع هذا ، فكم فيها من جمال وسحر ! .. ترى من أين تجىء كل هذه الأصوات ، وكل هذه التنهدات والهمسات والنداءات ؟! .. وأرهف السمع ، فتبين من هذه الأصوات زفيف الريح وهى تتخلل الشجر وتهز أوراقه .. على أنه تبين أيضاً — وبوضوح فى هذه المرة —

أن هناك أناساً جاءوا أزواجاً من المدينة المضيئة ، فبعثوا الحياة فى الظلمة بوجودهم المستتر بين طياتها ! .. ما الذى جاء بهم إلى هنا ؟!.. ما كان (إدجار) ليعرف ، إذ أنهم لم يكونوا يتكلمون بصوت مسموع .. بل لم يكن يسمع سوى وقع أقدامهم فوق الأديم الخشن ، وكان يرى بين الفينة والفينة أطيافهم تمر سراعاً فى القطاعات المضيئة ، وقد تلاصق كل اثنين ، على نحو ما كان يرى أمه وهى مع البارون !. إذن ، فهنا أيضاً يكمن ذلك السر .. السر الرهيب ، الخفى ، المثير !.. وما لبث أن سمع وقع خطوات تزداد منه دنواً ، وضحكات مختنقة .. فخشى أن يقع عليه نظر القادمين ، وتوارى موغلا فى جوف الظلام.. ولكن القادمين صعدا الدرب المنحدر ، ولم يرياه فى الظلام الكثيف .. وما أن استعاد (إدجار) أنفاسه ، حتى ألفى القادمين يقفان قرب المقعد الذى يجلس فوقه .. وتلاصق وجهاهما . ولم يستطع أن يتبين شيئاً واضحاً ، ولكنه سمع زفرة تنبعث من المرأة ، بينما تمتم الرجل بكلمات حارة محمومة . وأحس (إدجار) بشعور غامض ، ملتهب ، يبث رعشة معربدة فى كيانه .. وظل الغريبان على وضعهما دقيقة . ثم سمع من جديد وقع أقدامهما على الأديم الخشن ، فأنصت إليه حتى تلاشى فى جوف الليل .

وارتجف الغلام فى عنف ، وأحس بالدم يغلى فى عروقه .. ثم شعر فجأة بأنه وحيد فى جوف هذا الظلام الرهيب .. وتولاه حنين ملح إلى صوت ودود ناعم ، وإلى أحضان حانية ، وإلى أن يجد نفسه فى غرفة تسطع فيها الأضواء ، بين أشخاص يحبهم ! .. وخيل إليه أن

ظلمة الليل العميقة قد تجمعت وانسكبت فى نفسه ، وراحت تفرى قلبه !

ونهض بغتة . ماذا يمكن أن يحدث له ؟ .. قد يؤنب ، ويضرب ؟. ولكنه لم يعد يخشى شيئاً ، منذ عرف تلك الظلمات ، وأحس رهبة العزلة ! .. ومن ثم انطلق فى طريقه دون أن يدرى ما هو فاعل ، فما لبث أن بلغ بيت جدته على غير وعى منه .. ومرة أخرى لامست يده المقبض البارد .. وكان الضوء — فى هذه المرة — ينساب من النوافذ فوق الخضرة ، فتخيل منظر قاعة الجلوس ، وقد اجتمع فيها أصحاب الدار . وبدأ يستشعر ارتياحاً واطمئناناً ، إذ ألفى نفسه قريباً جداً من أناس يحبونه ، فهدأ روعه . وإذا كان قد تردد قليلا قبل أن يدق الجرس ، فما كان ذلك إلا رغبة منه فى أن يزداد استمتاعاً بشعور الألفة والقرب ممن يحبهم !

وفجأة ، انبعث إلى جواره صوت حاد ، منفعل : (إدجار) !.. أأنت هنا !؟ »

كانت الخادم أول من رآه ، فأسرعت نحوه تربت كتفه .. وفتح الباب بغتة ، فانطلق نحوه كلب ينبح ، وانسابت الأضواء من داخل الدار ، وسمع أصواتاً تتجاذبها الغبطة والدهشة .. ثم استبان أصحاب هذه الأصوات إذ اقتربوا منه فى ابتهاج .. وكانت جدته فى المقدمة ، تبسط ذراعيها نحوه .. وخيل إليه أنه فى حلم حين رأى أمه خلفها ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع !.. وارتجف فى غمرة هذه الجلبة المحببة ،

وسرى إلى نفسه وجل وحيرة ، فلم يدر ماذا يفعل ، ولا ماذا يقول .. بل إنه لم يدر ، أخوف هذا الذى كان يحس به ، أم سعادة !

* * *

● كانوا يرتقبونه منذ ساعات .. فقد ارتاعت أمه لفراره برغم غضبها وحنقها ، وأخذت تبحث عنه فى كل مكان .. وسرى القلق والانزعاج فى (سمرنج) ، وذهبت الهواجس بالقوم كل مذهب .. وفجأة ، أقبل شخص ذكر لهم أن الغلام شوهد عند نافذة التذاكر فى المحطة ، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . وسرعان ما عرف أن (إدجار) ابتاع تذكرة إلى (بادن) .. وكانت الأم قد أبرقت إلى (بادن) وإلى (فيينا) — حيث كان والد الصبى — بنبأ الفرار ، فقضى الأب ساعتين فى حركة دائبة ، يتنسم أخبار الهارب ..

وما لبثت الأم أن بادرت بالرحيل إلى (بادن) فى أثر الصبى ..

وأحاطت به الأسرة ، فبدأ كالسجين فى أيديهم ، ولكن .. فى غير ما عنف أو خشونة !.. وقادوه إلى قاعة الجلوس وقد سادهم شعور بالظفر !.. ومن العجيب أن الغلام لم يحس للتأنيب وخزاً موجعاً فقد تبين أن الحب والغبطة كانا يطفران على أسارير أهله .. بل إن فترة التأنيب لم تطل ، فما لبثت جدته أن احتضنته وهى تجهش بالبكاء . ولم يعد أحد يتحدث عن خطئه !.. وحفت به رعاية الأهل .. ، وما لبثت الخادم أن خلعت عنه ثيابه ، وألبسته غيرها — أدفأ منها — ثم سألته جدته إن كان يبغى شيئاً ، كأن يكون جائعاً مثلا .. وانهالت عليه بالأسئلة ، وهى تغمره بالحنان .

وإذ فطن القوم إلى أنه منهوك القوى ، كفوا فى النهاية عن سؤاله . وإذ ذاك تولته غبطة ضافية ، إذ عاوده الشعور بأنه ما زال طفلا .. الشعور الذى كان يخجل منه قبل ذلك ، فإذا به يستمرئه ، ويندم على ما تولاه فى الأيام الأخيرة من كبرياء ، وصلف ، وجنوح إلى الاستغناء عن كل هذا ، وإلى أن يستبدل به ما خاله فى الاستقلال من متعة !

وانبعث رنين جرس التليفون ، وما لبث (إدجار) أن سمع أمه تردد بعبارات متقطعة : « إدجار .. وجد .. وصل إلى هنا .. آخر قطار » .. وأدهشه أنها لم تبد نحوه جفاء ولا غلظة ، وإنما راحت تغمره بنظرات هادئة ، هدوءاً غريباً كل الغرابة !.. وشعر بأنه يزداد ندماً .. وود لو أفلت من هذه الرعاية التى تحيطه بها جدته وخالته ، ليسعى إلى أمه يسألها الصفح ، ويسر إليها — فى خضوع وانصياع — بأنه يحب أن يعود طفلا ، كما كان ، وأن يطيع أوامرها !.. ولكنه حين نهض فى هدوء ، سمع جدته تقول فى لهجة نمت عن الخوف : « إلى أين ؟! »

وظل واقفاً وقد عراه الخجل ، إذ رآهم يضطربون لكل حركة يتحركها ، كأنما كان يخيفهم جميعاً .. فقد كانوا يخشون أن يهرب منهم مرة أخرى !.. آه ، لو عرفوا أنه أكثر من أى منهم ندماً على هذا الهرب !

وأعدت المائدة ، وقدم إليه عشاء خفيف ، وكانت جدته تجلس بالقرب منه ، لا تحول عنه نظرها . وأحاطت به خالته والخادمة فى



وود لو أفلت من هذه الرعاية التى تحيطه بها جدته وخالته ، ليسعى الى أمه يسـالها الصفح ...

صمت .. وأحس بأنه غدا مطمئناً كل الاطمئنان وسط هذه العناية التى أغدقوها عليه .. لم يعد يشغله سوى أن أمه لم تكن بجانبه . آه ، لو أنها عرفت كم هو نادم ، إذن لما فارقت جواره قط !

وسمع بغتة صوت عربة تقف أمام المنزل .. وبدا على الآخرين ذهول أزعج (إدجار) .. وأسرعت جدته تغادر الغرفة ، ثم سمع حديثاً يجرى فى الظلام .. وأدرك أن أباه قد جاء .. ثم فطن إلى أنه ترك وحيداً فى القاعة ، فإذا هذه اللحظة القصيرة من الوحدة كافية لإيقاع الاضطراب فى نفسه !.. كان يعرف مدى صرامة أبيه ، فهو الشخص الوحيد الذى يخشاه خشية حقيقية !.. وأرهف سمعه .. كان أبوه يبدو غاضباً ، إذ راح يتكلم بصوت مرتفع ، وفى انفعال شديد . وأخذ (إدجار) يسمع – من حين لآخر – جدته وأمه تهدئان من حنق أبيه ، ولكن لهجة الأب ظلت غليظة ، غليظة كتلك الخطى التى أخذت تزداد اقتراباً ، حتى بلغت الباب ، الذى ما لبث أن فتح فجأة .. وكان والد (إدجار) بديناً .. وإذ رآه الصبى يدخل بخطى عصبية تنم عن غضب شديد ، أحس أنه بجانب أبيه غاية فى الضآلة !

وصاح الأب : « ماذا دهاك يا ابنى حتى تهرب على هذا النحو وتسبب لأمك كل هذا الانزعاج ؟ »

كان الأب منفعلا ، ويداه ترتعشان بشدة .. ودخلت خلفه أم (إدجار) فى رفق ، وقد شحب وجهها . ولم يجب (إدجار) .. كان يدرك أنه مطالب بأن يبرر مسلكه ، ولكن كيف يمكنه أن يقص قصة غشه والتغرير به وضربه ؟! .. ترى هل يفهم أبوه الأمر ؟! .. وعاد

الأب يقول : « هل فقدت لسانك ؟ .. ما الذى حدث ؟.. تكلم فى هدوء .. هل وقع شىء لا يروقك ؟.. لابد من سبب لهربك بهذه الصورة .. هل مسك أحد بسوء ؟ »

وتردد (إدجار) ، وقد نكأت الذكرى جراح نفسه من جديد ؛ وهم بأن يتكلم . غير أنه لمح — فى انفعال شديد — أمه وهى تشير إليه من خلف أبيه إشارة غريبة .. إشارة لم يفهمها فى أول الأمر ، ثم ما عتم أن أدرك أنها تتوسل إليه بعينيها ، بينما رفعت أصبعها إلى فمها تطلب منه أن يلتزم الصمت !

وبغتة أحس الغلام بحرارة تغمر كيانه .. أحس بسعادة طاغية عجيبة تملأ جوانحه .. أدرك أن أمه تستودعه سرها ، وأن مصير إنسان — هو أمه — رهن بكلمة تنطلق من شفتيه الصغيرتين .. وداخله زهو إذ رأى أمه تركن إليه .. وهفا بكل كيانه إلى التضحية ، فعول على أن يبالغ فى إظهار ذنبه ، ليبين لها أنه غدا بالفعل رجلا . ومن ثم استجمع شجاعته ليقول : « لا ، لا .. لم يكن هناك سبب .. بل كانت أمى غاية فى الرقة معى ، ولكنى لم أكن عاقلا ، فسلكت مسلكاً شائناً ، وعندئذ .. وعندئذ ، هربت خوفاً ! »

وأشاح أبوه عنه فى دهشة .. كان يتوقع أى شىء إلا هذا الاعتراف .. وانفثأ غضبه ، فقال : « إن الندم إمارة طيبة ، وما دمت نادماً ، فليس لدى ما أقوله .. ولعلك تفكر ملياً قبل أن تفعل شيئاً — فى المستقبل — حتى لا تتورط ثانية فى حماقة كهذه ! »

وأنعم النظر فى ابنه ، ثم قال فى حنان : « لشد ما تبدو شاحباً .. ولكن ، يلوح أنك كبرت أيضاً ، فآمل ألا تصدر منك بعد اليوم مثل هذه الأمور الصبيانية ، لأنك لم تعد طفلا .. إنك الآن فى سن الإدراك ! »

وكان بصر الصبى — طيلة الوقت — عالقاً بأمه .. وخيل إليه أن شيئاً يبرق فى عينيها .. أتراه انعكاس الضوء ؟.. لا .. كانت عيناها نديتين بالدموع .. وعلى شفتيها ، كانت ثمة ابتسامة خاصة ، وكأنها كانت تقول له : « شكراً ! »

واكتهل الليل ، فأشير على الطفل بأن يأوى إلى فراشه !.. على أنه لم يشعر — فى هذه المرة — بما كان يخالجه فى الأيام السالفة من مرارة لهذا الطلب ، فقد كان يهفو إلى أن يخلو إلى نفسه ، ليفكر فى أشياء كثيرة ، وانفعالات عديدة ، حافلة ، متباينة !.. كان كل ما عاناه من ألم فى الأيام الأخيرة يتلاشى فى انبهاره بأول حدث هام يقع فى حياته .. وخيل إليه أنه يتذوق السعادة ، وهو يستعرض الأحداث الغامضة التى قد يخبئها له المستقبل !

كانت الأشجار تهتز بعنف ، فى جوف الليل ، خارج الدار .. ولكن (إدجار) لم يشعر بخوف أو وجل .. لقد أصبح يواجه الحياة بجأش رابط ، بعد أن عرف كم هى غنية ، حافلة !.. ألم يرها أمامه على حقيقتها ، عارية من كل أكاذيب الطفولة ، على كثرتها ؟! .. إنها فى تجردها تبدو له فى جمال فاتن ، مهيب !.. ما كان ليتصور لحظة أن الأيام قد تكن له كل هذه التغييرات ، والآلام ، والمباهج .. ولكم

أخذ يشعر بالسعادة وهو يتصور أن عديداً من مثل هذه الأيام تنتظره ، وأن حياته بأسرها تتأهب لتكشف له عن أسرارها ! .. لقد ألم الآن بطرف عن جوانب هذه الحياة وتنوعها ، فخيل إليه أنه أدرك طبيعة البشر ، وعرف أنهم يحتاجون بعضهم إلى بعض ، حتى حين تفرق بينهم الضغائن !.. ولقد تذوق عذوبة حب الناس له ـ ممثلين فى أهله ـ فشعر بأنه لا يقوى على التفكير فى الكراهية .. لا يقوى على كراهية أى شىء ، ولا أى شخص ، ولو كان هذا الشخص غريمه اللدود : (البارون) !.. بل إنه شعر نحو البارون بعرفان الجميل ، لأنه أول من فتح أمامه باب هذا العالم الجديد .. عالم التجارب الأولى فى الحياة !

وراق له أن يفكر على هذا النحو فى الظلام .. إلى أن غزت عقله صور غامضة ، تسللت من عالم الأحلام . وفيما كان النوم يغشاه ، خيل إليه أن الباب يفتح ، وأن إنساناً يتقدم نحوه فى رفق .. ولم يستطع تبين القادم جلياً .. كذلك لم يقو على فتح عينيه ، إذ أن النوم غلبه . بيد أنه أحس وجهاً غضاً ، دافئاً ، ناعماً ، ينحنى على وجهه ، ثم يلتصق به .. وعرف أنها أمه تعانقه وتداعب شعره ، وأحس بالقبلات ، وبالدموع .. واستجاب فى لطف لهذا الحنان الذى تقبله على أنه رمز للصلح وعرفان الجميل لما أسداه بكتمان اتهامه لها !

ولم يعرف الصبى إلا بعد زمن طويل ، بعد سنوات ، أن هذه الدموع الصامتة إنما كانت وعداً من امرأة تتقدم بها السن ، بأنها لن تكون بعد الآن ملكاً لغير ابنها ، وبأنها ستكف عن المغامرات ، وستتخلى عن كافة رغباتها الأنانية ! .. لم يعرف أنها جاءت تعترف له

بالجميل ، لأنه أنقذها من مغامرة عقيمة ، وأنها شاءت أن تمنحه فى هذه القبلات تراثاً لمستقبل حياته هو : الحب .. بمرارة مذاقه وحلاوته معاً !.. لم يدرك الصبى كل هذا ، ولكنه أحس نشوة هذا الحب .. هذا الحب الذى يصله الآن بسر الكون الخطير !

وعندما جذبت الأم يديها فى رفق ، وأبعدت شفتيها عن شفتى الغلام ، واختفى طيفها من الغرفة ، خلفت وراءها شيئاً دافئاً .. خلفت أنفاساً عذبة فوق فم (إدجار) . وفاض قلبه بالرغبة فى أن يحس كثيراً بالشفاه الناعمة تلصق به ، وأن يظل محوطاً بمثل هذا الحنان ! .. وأسدل النوم ستاراً كثيفاً على إحساسه بذلك السر الذى كان يتوق بكل كيانه إلى معرفته .. سر الحب .. وللمرة الأخيرة ، مرت بخاطر الصبى صور الساعات التى انقضت جميعاً .. وللمرة الأخيرة أيضاً ، انفتح أمامه كتاب صباه بصفحاته الحافلة بالإغراء ، ثم أسلم جفنيه للنوم ..وعندئذ بدأ حلم حياته العميق يفض أسراره !

* * *

(تمت بحمد الله)







عزيزى القارئ :

يضم هذا الكتاب روايتين من روائع الأديب العالمى «ستيفان زفايج» ـ الذى سبق أن قرأت له روايته الخالدة (حذار من الشفقة) ـ والروايتان هما : (١) الأرملة العاشقة (٢) والأم العاشقة .. وكما هو الشأن فى كل روايات «زفايج» تصادف هنا فى كلتا الروايتين جمال الأسلوب ، وعمق التحليل النفسى لخلجات النفس الإنسانية ، مما يتيح لك الاستمتاع بما تقرأ !

ويجمع بين الروايتين عامل مشترك ، هو أن البطلة فى كل منهما تجاوزت طور الشباب ودخلت فى مرحلة خريف العمر ، سواء فى ذلك الأرملة والأم . فكلتاهما تمارس العشق بعد أن لم تعد شابة يافعة . وعشق الأرملة مثل عشق الأم ، له خصائص تختلف كل الاختلاف عن عشق الفتاة ، التى يتفتح قلبها للحب وهى فى ربيع العمر ، وهنا تبدو مقدرة «زفايج» الفذة فى النفاذ إلى العاطفة البكر لدى الأنثى فى مقتبل حياتها !

وقد سبق أن سردت لك صفحات من حياة «ستيفان زفايج» منذ لمع نجمه فى سماء الأدب ، إلى أن أدركه اليأس من الحياة فى أعقاب المآسى التى جلبتها النازية على أوربا والعالم . مما دفعه إلى الهجرة من وطنه النمسا إلى البرازيل . حيث أقدم على الانتحار !

والآن أتركك كى تستمتع بقراءة هاتين الروايتين من روائع عملاق الأدب النمسوى «ستيفان زفايج» !

حلمى مراد